

مجلة تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري

فهرس هذا الجزء

- الشعر الجاهلي ـ : محمود محمد شاكر ٣٢١
- أبانان : تحديد موقعهما : محمد بن ناصر العبودي ٣٩١
- في رحاب الحرمين ـ : ابن عبد السلام الدرعي ٤١٣
- فصول من كتاب شمال نجد ـ : أ · موزل ٤٢٥
- تحفة الالباء في تاريخ الاحساء : صالح الدخيل ٤٤٠
- عروة بن أذينة الشاعر ـ ٢ ـ : حمد الجاسر ٤٧٣

ج ٥ و ٦ س ١٠ (ذو القعدة والحجة سنة ١٣٩٥ هـ)
(تشرين ٢ ـ ك ١ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٥ م)

تصدر عن : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

العنوان
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل - هاتف ٢٢٩١٥
الرياض - المملكة العربية السعودية

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها: حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
٣٠ ريالاً للأفراد و٥٠ ريالاً لغير الأفراد
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء: ٣ ريالات

ج ٥ و ٦ — س ١٠ ذو القعدة والحجة ١٣٦٥ هـ - تشرين - ك ١ (نوفمبر وديسمبر) ١٩٧٥

الشِّعْرُ الجاهِلِيُّ

— ١ —

[دعت (جامعة الإمام محمد بن سعود) أستاذنا العلامة الجليل أبا فهر محمود بن محمد شاكر ليحاضر طلابها ، فألقى هذه المحاضرة الممتعة حقاً ، المستوفية لايضاح كثير من الجوانب التي يعوز الباحثين — في هذا العصر — إيضاحها عن (الشعر الجاهلي) .
وقد كرم أحد أصدقاء أستاذنا باتحاف مجلة «العرب» بنسخة من تلك المحاضرة ، ويسر المجلة أن تفتتح بالقسم الأول منها هذا الجزء ، وأن توالي نشر بقيتها ، وسيجد فيها القراء ولا سيما من يعنى بدراسة الشعر العربي القديم من الإمتاع والفائدة واستيفاء جوانب الموضوع ما لا داعي معه إلى الاسترسال في الحديث عنها] .

أجدهُ أمراً لا بُدَّ منه أن أتحدث حديثاً موجزاً عن الشعر الجاهليِّ عامة ، قبل أن أبدأ حديثي عن شعر الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، وشعرُه الذي وصل إلينا في ديوانٍ مجموعٍ . هو من رواية أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، مولى بني شيبان ، وهو الإمام الذي انتهت إليه إمامة أهل الكوفة ، وولد سنة مئتين ، وتوفّي ببغداد ليلة السبت لعشر خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين ومئتين .

وبعض هذا الحديث عن الشعر الجاهليّ لا بُدَّ منه ، لأنه لا ينفصل البتة عن رأيي في شعر الأعشى ، وفيما وصل إلينا منه ، ولا عن رأيي فيما قالَهُ بعض علمائنا الأقدمين في بعض قصائده التي انتهت إلينا أنها مصنوعة ؛ ولا عن رأيي فيما ادّعاه بعض المحدَثين من الحكم على كثير من شعره ، أو على أكثر شعره ، أنّه موضوعٌ منحولٌ .

وعندي أنّ أكبر القضايا التي يثيرها أمر « الشعر الجاهلي » ثلاث قضايا :

القضيّة الأولى : قضيّة عُمْر الشعر الجاهليّ الذي وقع إلينا ، وهي قضيّةٌ متفرّعةٌ عن أوّليّة الشعر نفسه في لسان العرب .

والقضية الثانية : قضية شعراء الجاهلية المعروفين ، وما انتهى إلينا من أشعارهم ومقدار هذا الشعر .

والقضية الثالثة : قضية وضع الشعر ونحله شعراء الجاهلية ، أهي صحيحة أم باطلة ؟ فإن صحّت ، فأين هذا المنحولُ فيما وصلنا عن العلماء الرُّواةِ من أشعارهم ؟

وهذه القضايا الثلاث متداخلةٌ متشابكةٌ ، ومن صواب الرأي أن يحاول المرء أن يوضّح مواضع الفصلِ بين كُلّ قضية وقضيّة . لأن هذا الفصل بين متداخلاتها خليقٌ أن يضيء الطريق للباحث ، ويعينَه على تصوُّر قضيّة الشعر الجاهليّ كله تصوُّراً صحيحاً أوْ قريباً من الصحيح . وسأحاول أنْ أفعل ذلك ، مستعيناً بالله ، وباذلاً غاية جُهْدي اليومَ ، بعد زمانٍ طويل مَضَى على مِحْنَتي محنةً شديدةً قاسيةً بأمر الشعر الجاهليّ في أوّل عُمْرِي ، وما وقعتُ يومئذ فيه من الاضطراب حتّى استقر قراري على صحة ما انتهيتُ إليه من الثقة بصحة هذا الشعر ثقةً لا تتزعزع ، فرميتُ كُلَّ ما كان يومئذٍ دَبْر أذني ، وانطلقتُ أدرُسُ الشعرَ نفسه ، وبلذّة أجدها في دراسته ، غير مبالٍ بكلّ ما كان من اضطرابي حتى انتهيت إلى الاستقرار والاطمئنان إلى صحة هذا الشعر . فالآن بعد هذا الزمان المتباعد ، أحاول أن ألمَّ شعثَ ما انتشر وضاعَ ونُسِي من أسباب ثقتي بهذا الشعر .

* * *

أما القضية الأولى ، وهي قضية عمر الشعر الجاهليّ وأوّليته ، فإني رأيتُ أكثر الباحثين يؤولون في الحديث عنها إلى قول أبي عثمان الجاحظ ، (المولود سنة ١٥٠ ، والمتوفي سنة ٢٥٥هـ) ، لأنه من أقدم ما قيل في هذه القضية ، ولثقة الناس بعقل الجاحظ ونظره . فلذلك أرى أن أثبت هنا مقالته كُلَّها التي تتعلّق بالشعر ، في خلال ما أفاض فيه من ذكر فضل الكتابة والكتّاب ، وهذا نص ما قاله في كتاب الحيوان (١ : ٧١ — ٧٥) .

« ... فكلُّ أمةٍ تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكلٍ من الأشكال . وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفّى ، وكان ذلك هو ديوانها . . . وذهبت العجمُ على أن تقيّد مآثرها بالبنيان . . . بنى أردشير بيضاء اصطخر ، وبيضاء المدائن ، والحَضْرَ ، والمدنَ والحصون والقناطر والجسور والنواويس . ثم إن العرب أحبّت أن تشارك العجم في البناء ، وتنفرد بالشعر ، فبنوا غُمدان ، وكعبةُ نجران ، وقصرَ مارد ، وقصرَ مأرب ، وقصرَ شَعُوب ، والأبلق الفردَ » ... ثم انتهى أبو عثمان إلى أن قال : « وأما الشعرُ فحديث الميلاد صغير السنّ . أوّلُ من نهجَ سبيلَهُ وسهّل الطريق إليه : امرؤ القيس ، ومهلهل بن ربيعة . وكتب أرسطاليس ، ومعلّمه أفلاطون ، ثم بطليموس وديمقريطس وفلانٍ وفلانٍ — قبل بدء الشعر بالدهورٌ قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب . ويدلُّ على حداثة الشعر قولُ امرىء القيس بن حُجر . . :

إنّ بني عوفٍ ابْتَنَوْا حَسَباً	ضيّعهُ الدُّخْلُلُونَ إذ غَدَرُوا
أدَّوْا إلى جَارِهِم خَفَارتَهُ ،	ولم يَضِعْ بالمغيبِ من نَصَرُوا
[لم يفعلُوا فِعْلَ آل حنظلَةَ	إنّهمُ ، جَيْرِ بِئس ما ائتمروا]
لا حِمْيَريٌّ وفَى ولا عُدُسٌ	ولا استُ عَيْرٍ يحكُّها الثّفَرُ
لكن عُوَيرٌ وفَى بذمّتِهِ	لا قِصَرٌ عابَهُ ولا عَوَرُ

فانظركم عُمْر زرارة ؟ وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي صلى الله عليه عليه وسلم ؟ فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئة سنة ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام » .

وهذه الأبيات التي استدلّ بها أبو عثمان ، يقولها امرؤ القيس في شأن مقتل أبيه حُجْرٍ ، لما قتلته بنو أسد ، فانحازت ابنته هند هي وقطينُها إلى « عُوَير بن شجنة بن عطارد بن عوفَ بن كعب بن زيد مناة بن تميم » ، فأجارها وفرّ بها ورمى بها النجّادَ حتى اطلعها نجرانَ ، وقال لها : « إني لا أغنى عَنْكِ شيئاً وراء هذا

الموضع ، وهؤلاء قومك ، وقد برئت خفارتي » . وكان امرؤ القيس حين قُتل أبوه حجر مقيماً في بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، لأن ظِئره ُ كانت امرأةً منهم . وبيّنٌ من هذا الشعر أنّه هو وأختَه استجارًا ببني حنظلة فلم يجيروهم . استجارا بحميريّ بن رياح بن يربوع بن حنظلة ، وعُدُس بن زيد بن عبدالله بن دارم بن مالك بن حنظلة . و « عُدُس » ، هو « أبو زرارة بن عُدُس » وزُرارة بن عدس ، كانَ أحد حكام تميم في الجاهلية ، وكان قد أسنَّ ، وكان موته قبل يومِ أوراة الثاني بقليل ، وذلك على عهدِ عمرو بن هند ، الذي حرّق بني تميم ، فقيل له « محرق » ، وهو « مضرّط الحجارة » ، وهو « عمرو بن المنذر بن ماء السماء » . وكان مولده صلى الله عليه وسلم ، كما في تاريخ أبي جعفر الطبري (٢ : ٩٤) لثماني سنين وثمانية أشهر من ملك عمرو بن هند بالحيرة ، وذلك في زمن كسرى أنوشروان ، وهو عام الفيل الذي غزا فيه أبو يكسوم الأشرم بيت الله الحرام يريد هدمه .

وظنّي ، وهو ظاهرُ الصوابِ إن شاءالله ، أنّ أسلوب الجاحظ في استظهاره هو هذا : كان موتُ زُرارة بن عُدُس قُبَيل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذه نحو من خمس وأربعين سنة إلى أن بعث الله رسوله بالإسلام على رأس أربعين سنة من مولده . وزرارة بن عدس قد رأس وقادَ (تميماً ، وهو أحَدُ الجرارين) ، نحواً من أربعين سنة أو أكثر إلى أن أسنَّ ومات قبل في يوم أوارة الثاني ، فهذه نحو من تسعين سنة . وأبوه « عُدُس بن زيد » قد سادَ من قبله ورأس نحواً من أربعين سنة . فهذه مئة وعشرون إلى مئة وخمسين سنة ، على الأكثر . فإذا كان امرؤ القيس قد ذكر « عدس بن زيد » في شعره ، فهذا دليلٌ على حداثة الشعر . ولم كان ذلك ؟ لأن أبا عثمان قد زَعَم أنّ « أوّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه » هو امرؤ القيس الكندي وخالُه مهلهل بن ربيعة التغلبيّ ، وما دام هذا صحيحاً عند أبي عثمانَ ، فإنه يستظهر بغاية الاستظهار ، هكذا يقول ، فيضيف خمسين سنة أخرى لما عَسَى أنْ يكون صحيحاً من قولهم إنّ امرأ القيس كان يتّكىء في بعض شعره على من سبقه كابن حزام الطائي وأبي دوادٍ الإياديّ ، فهذه مئتا عام

بغاية الاستظهار . وإذن ، فالشعر « حديث الميلاد صغير السنّ » هذا هو أسلوب أبي عثمان في الاستدلال على حداثة « الشعر » عند العرب .

وهذا الأسلوب من النظر في تقدير عمر الشعر العربي ، أسلوب حسابيّ بَحْتٌ . والحساب وحدُه لا يكادُ يغني شيئاً في ميلاد الشعر وحداثة سنّه . لم ينظرْ أبو عثمان ، أو لم يُبال أن ينظُر ، في شعر امرىء القيس نفسه ، كيف جاء موزوناً مقفىّ على ضروب مختلفة من الأوزان والقوافي معروفة عنده في شعر مهلهل وابن اخته الذي ورث عنه الشعر . ولم يبال أن يأمر نفسه أن تنظر ، كما أمرنا أن ننظُر في موت زرارة ، كيف تسنّى لمهلهل ابن أخته أن يستحدثا هذا القدر من البحور المختلفة الأوزان والقوافي ؟ ولا كيف يمكن أن يقع لهما هذا القدرُ من الابتداع جملةً على غير مثال سابق ؟ وأسئلة أخرى كثيرة جدّاً . والذي لا أشكُّ فيه ، لطول معرفتي بأبي عثمان ، هو أنه فرِح فرحاً شديداً غامراً بأسلوبه الحسابيّ في الاستدلال على ميلاد الشعر ، فأغفله الفرح الغامرُ عن مذهبه في النظر والفحص والتساؤل وتقليب كل قضية على وجه بعد وجهٍ ، معترضاً ، آخذاً تاركاً ، دافعاً مثبتاً حتى يفرُغ . وهو مذهبه الذي برع فيه ، كما هو معلومٌ مألوفٌ في كتبه ورسائله ، وفي احتجاجه لآرائه التي تولّى نُصْرتها ، وأقواله التي استحدث بها مذهبه في الاعتزال .

وهذا الأسلوب الحسابيّ لا يغني ولا ينفع إلاّ في أمر واحدٍ لا غيرَ ، هو تحديد عـُمْر ما بلغنا من شعر مهلهل وابن أخته امرئ القيس ، لا أكثر . وكُلُّ تجاوز لهذا القدر ، تهجُّم على غيبٍ بلا دليلٍ هادٍ ، وهو أيضاً خطأ فاحشٌ في نَقْله نتيجةَ الحسابِ من موضعٍ هو به لائقٌ ، إلى موضع آخر يباينُه كُلَّ المباينة ، وليس ينفع أبا عثمانَ أن يتّكىء في نقله على دَعْوى يدّعيها هُوَ لامرىء القيس أو لخاله مهلهل زاعماً أنه أوّل من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه . وذلك لأن هذه الدعوَى في أوليّة أمرىء القيس أو غيره ، هي قبل كُلّ شيء محتاجة في إثباتها إلى دليلٍ مُقْنِـع ، غيرَ مجرّد الادعاء الذي لا برهانَ عليه : أن « كتب أرسططاليس ، ومعلّمه أفلاطُون ، ثم بطليموس وديمقراطيس وفلانٍ ، قبل بدء

الشعر بالدهور قبل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب » ، والدعوَى لا تقرَّر بدَعْوَى مثلها تفتقر هي نفسُها إلى بُرهانٍ يُجَلِّيها ويثبِّتُها . وكلتاهما تحتاجُ إلى دليلٍ غير الدليل الحسابيّ المعتمِد على زمن الميلاد وزمن الوفاة . وإذنْ ، فقول الجاحظ : « إن الشعر حديث الميلاد صغير السنّ » ، قضيّة باطلةٌ ، لا برهان عليها ، وليس لها دليلٌ ، وهي مقالةٌ لا أصل لها . وليس يبقى في أيدينا من استظهاره الذي استظهرهُ إلاّ أمرٌ واحدٌ ، هو أن امرأ القيس وخاله المهلهل من أقدم شعراء الجاهلية الذين انتهى إلينا شعرهم ، فإذا كان ذلك فإن أكثر الذي انتهى إلينا من سائر قديم شعر الجاهلية ، لا يكادُ يتجاوز عمرهُ مئتي عام . وهذا يوشك أن يكونَ حقّاً لا ريبَ فيه ، ولكن يحسنُ أن تقيّد هذه القضية بقيدٍ لا بُدَّ منه ، احترازاً من التعميم الغامض ، هو أننا نعني القصائد الطوال المقصَّدة ، دون ما نسمّيه المقطّعات ، أو الأبيات ذواتِ العدد التي بلغتنا من قديم شعر الجاهلية .

* * *

وقد كنتُ شديدِ العَجَبِ من أمر أبي عثمان ، أتعجّبُ من أينَ أتى بهذه الدّعوى التي بني عليها استظهارهُ ، أنّ امرأ القيس هو أوّل من نهَج سبيل الشعر وسهّلَ طريقه ؟ وكان بدا لي قديماً أنّ أبا عثمان قد أخذ هذا من الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (رقم : ٧١٢٧) ، عن هشيم ، حدثنا أبو الجُهَيم الواسطيّ ، عن الزُّهريّ ، عن أبي سَلَمة ، عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امرؤ القيس صاحبُ لِواء الشعراء إلى النّار » . وهذا الخبر الخبر نفسه رواه البخاري في الكنى قال : « قال مسدّد ، حدثنا هشيم ، حدثنا شيخ يكنى أبا جهم ، عن الزهريّ ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : « صاحب لواء الشعراء إلى النار ، امرؤ القيس ، لأنّه أوّل من أحْكَم الشّعر » . وأبو الجهم هذا قال فيه ابن عدى « شيخٌ مجهولٌ ، لا يعرف له اسمٌ ، وخبره منكر ، ولا أعرفُ له غيره » وقد أفاض أخي السيد أحمد محمد شاكر رحمه الله في شرح إسناد هذا الخبر ، وذكر إجماع علماء الجرح والتعديل على أن أبا الجهم معروف برواية هذا الخبر ، وأنه خبر واهٍ ضعيفٌ جدّاً ، وذكر أيضاً ما يدورُ في كتب

الأدب من حديث ينسبُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر امرأ القيس فقال: « ذاك رجُلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها، منسيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار » ، ووجد أخي في إسناده في تاريخ ابن عساكر عن ابن الكلبيّ ، ورواه الطبراني في الكبير « من طريق سعد بن فروة بن عفيف عن أبيه عن جدّه » ، قال : « ولم أجد من تَرجم هؤلاء . وهذا إسناد مظلم ، لا تقوم به حجة ، بل لا تقوم له قائمة . وإنما هي كُلُّها روايات ضعافٌ متهافتة ، يضعّفُ بعضُها بعضاً » . وكنت أعذرُ الجاحظ ، لأنه لا علم له بالحديث ، وأتعجّبُ له أن يزوَرَّ في كتبه عن الأحاديث الصحاحِ الراسخة في الصحة ، ثم يعتمد في هذا الأمر على خبرٍ هالكٍ متهافتٍ لا تَنهض به حُجّة ! وكنت أظنُّ إذا رجّح أنه ترجم ما جاء في هـــذا الكلامِ : أن امرأ القيس هو « أوّل من أحكم الشعرَ » ، فقال : « هو أول من نهج سبيل الشعر وسهل الطريق إليه » ، والتشابُه بين سياق القولين ظاهرٌ بيّنٌ ، وهذا جائزٌ جدّاً ، لأنّ أبا عثمان ذكر في كتبه كالبيان والحيوان وغيرهما أحاديث من أحاديث هشيم بن بشير الواسطي الإمام الثقة (١٠٤—١٨٣) ، وروى كثيراً من الأخبار من كتب ابن الكلبي ، هشام بن محمد بن السائب (٠٠٠—٢٠٤) ، فهو خليق أن يكون رأى هذين الخبرين ، فأخذ منهما ما أخذ ، وصاغ هذه القضيّة ، وألقاها إلقاء الواثق بصحتها ، وهي في الحقيقة دَعْوَى لا نسبَ لها إلاّ في ألفاظ خبرين واهيين ، من رواةٍ مجاهيلَ كَذَبَة مُعْرِقينَ في الكذب .

ازددت على الأيام ثقةً بأنّ مقالة أبي عثمان في « كتاب الحيوان » ، دعوى مشتقة من ألفاظ هذين الخبرين العليلين الهالكين ، مع التباين الشديد في حقيقة المعنى ، لم يسبقْهُ إليها أحدٌ من نقّاد الشعر وحفظته . بيد أنّ وجد الرأي تغيُّرٌ عندي فيما بعدُ . أيكون أبو عثمان وحده هو الذي نظر في قضيّة « الشعر الجاهلي » وأوّليته وقِدَمه ؟ لا ، بل نظر فيها رجُلٌ من معاصريه هو أقوم منه على الشعر عامةً ، وعلى الشعر الجاهليّ خاصةً . وهو أشدُّ تَحقُّقاً بدراسته ، وأبلغ نفاذاً وتثبُّتاً في روايته وفَحصه . لا ، بل من الخَطَل أن يُقَايَس بينهما ، لاختلاف طريقيهما

في النظر والرواية اختلافاً مُبيناً . وهذا الرجل هو أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحيّ ، صاحب كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، (المولود سنة ١٣٩ ، والمتوفّي سنة ٢٣١) ، فهو كما ترى معاصرٌ لأبي عثمان الجاحظ (المولود سنة ١٥٠ ، والمتوفي سنة ٢٥٥) . ولولا أنّي شُغلت بكتاب ابن سلام ، وأجمعتُ العزم على شرحه وتحريره ، لكنت خليقاً أن أقف حيث كنت من رأيي في دعوى أبي عثمان لا أزيدُ عليه شيئاً يذكر .

ويحسن بي هنا أن أقصّ القصة . في خلال مراجعتي نصّ كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وتتبُّعي ما نقله العلماء من كتابه إلى كُتُبهم ، وجدت الجاحظ قد نقل في مواضع من « كتاب الحيوان » خاصة ، عن ابن سلاّم أقوالاً وأخباراً هي بنصّها موجودةٌ في نسختي من « طبقات فحول الشعراء » ، فثبت عندي أن الجاحظ قد اطّلع على نسخة من كتاب ابن سلام ، فنقل منها . والدليل على ذلك أن أبا عثمان ، كما ذكر الأستاذ عبد السلام هرون في مقدمة كتاب « الحيوان » ومقدمة « كتاب البيان والتبيين » ، قد أقعده الفالج قبيل مقتل ابي الزيات في سنة ٢٣٣ ، وأنه ألف الكتابين في آخر حياته . وقد أوشك الدكتور طه الحاجري أن يقطع بوقت تأليف « كتاب الحيوان » في مقدمة كتاب البخلاء فقال : « أما كتاب الحيوان فنستطيع القطعَ في طمأنينة علمية بأنه كتبه في أواخر حياته ، بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ » . وقد استظهرت أنا أيضاً أنه ألف كتاباً ثالثاً هو « كتاب البرصان والعرجان » في تلك العلّة ، ألفه مع الحيوان ، وقبل كتاب البيان ، لأنه ذكر فيه الأحنف قيس ، وذكر شيئاً من أقواله ثم قال ص ٢٠٧ : « وسنذكُر فقراً من كلامه في كتاب البيان والتبيان ، إن شاء الله ، وبالله التوفيق » .

وإذا كان « كتاب الحيوان » الذي ألفه أبو عثمان في آخر حياته ، يدلُّ على أنه اطّلع على كتاب ابن سلام ونقلَ منه ، فإن « كتاب البرصان والعرجان » يدلُّ دلالة قاطعةً أخرى على ذلك . فإن أبا عثمان ، بعد أن فرغ من ذكر البرصان . واستفتح القول في العرجان ص ١١٠ ، قال في تقدمة الباب : « وسنذكر شأن العرجان وأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأقدارهم بمثل ذلك من الأشعار الصحيحة

والأسانيد المرضية » ، وقد وفّى بما قال في شأن من ذكرهُم ، إلاّ رجلاً واحداً لم يذكر عنه خبراً ولا صفة ولا بياناً من بين جميع من عدّوهم وحلاّهم من العرجان، من ص ١١٠ ، إلى ص ٢٧٠ ، بل أسقطه إسقاطاً في خلال العرجان وأخبارهم ، فقال في ص : ١٢٨ « ومن العرجان : أبان بن عثمان البجلّي ، وكان صاحب أخبار ، وقد أكثر عنه محمد بن سلام الجمحيّ » ، ولم يزد على ذلك شيئاً من خبر أو غيره . والذي ذكرهُ من إكثار محمد بن سلام عنه في الرواية بيّنٌ في كتاب الطبقات . فأنا أرجّح أنّه استفاد أنه « أعرج » من كتاب ابن سلام فضمّهُ إلى عرجانه ، لأنّ ابن سلام وصفه بالأعرج في موضعين من كتابه (ص : ٢٥٣ ، ٤٨٢) ، إذ كان أبو عثمان حديث عهد بكتاب ابن سلامٍ ، وكان أمر العرجان يشغلُه ، فأخَذه وضمّه ، ولكنّه نسي أن يضيف إلى نسبته « البجلي » « الكوفيّ » لأن ابن سلام لم ينسبه كذلك إلا في موضع واحد من كتابه (ص : ٣٧٥) ، وكوفيته لا تشغل أبا عثمان ، إنما يشغله عرجه وهو يؤلف في العرجان . فهذا كما ترى قاطع الدلالة على أن الجاحظ قبل أن يؤلف « كتاب الحيوان » و « كتاب العرجان والبرصان » ، وقع إليه كتاب الجمحيّ بأخَرةٍ عند تأليفه ، فقرأهُ ونقل منه ما نقل .

وظنّي أن أبا عثمان ، كان قد سمع بكتاب ابن سلام بعد وفاته ٢٣١ ، ممن كان يختلف إليه من أصحابه وتلامذته ، لأن ابن سلام لم يقرأ كتابه على أحدٍ في حياته ، فلما مات بقيتْ كتبُ عند أهله ، فأرسل أبو عثمان إلى بعض أهله ، فاستعار الكتاب أيّاماً ، فقرأه على عَجل ثم ردّه ، ثم نقلت كتبه بعد ذلك من بغداد إلى البصرة ، إلى ابن أخته أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي ، ولم يقرأه على الناس إلا بعد دهرٍ طويل من وفاة ابن سلام .

ولمّا كان محمد بن سلام قد صدّر كتابه في « طبقات فحول الشعراء » ، برسالة في الشعر القديم وفي رواة هذا الشعر ، ساقَه النظر إلى ذكر الشعر فقال : « إنّ أوائل العرب لم يكنْ لهم من الشعر إلا الأبيات يقولُها الرجل في حاجته ، وإنّما قُصِّدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف (ص : ٢٦) ، وأن « أول من قصّ القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة

التغلبيّ » (ص : ٣٩) ، ثم قال : « وكان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل ، ومهلهلٌ خاله ، وطرفةُ ، وعَبِيد ، وعمرو بنَ قميئة ، والمتلمّس ، في عصر واحدٍ » (ص : ٤١) ، وأن امرأ القيس « سبق العربَ إلى أشياء ابتدعَهـا ، واستحسنتها العربُ ، واتبعتْهُ فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتّبكاء في الديار ، ورقّةُ النسيب ، وقُرْبُ المأخذ ، وشبّه النساء بالظباء البيض ، وشبّه الخيل بالعقبان والعصيّ ، وقيّد الأوابد ، وأجاد التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى » (ص : ٥٥) — ولمّا قرأ أبو عثمان مقالة ابن سلامٍ في أوّل كتابِه ، أعجبتْهُ ، وهزّتْه ، وذكرته بالخبر الهالك الذي جاء فيه أنّ امرأ القيس « صاحبُ لوّاء الشعراء إلى النار ، وأنه أوّل من أحكمَ الشعر » ، بدا لَهُ أن يصوغَ من ذلك كُلّه قضيّة ، يزيد فيها على ابن سلامٍ ، فاجتهد فصاغ قضيته الأولى : « أوّل من نهجَ سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه ، امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة » ، وأعجبه ما صاغ إعجاباً مفرطاً ، فإنّه ابتدعَ ما لمْ يُسْبَق إليه ، ولم يُبَال بهذا الفرق الظاهر بين قوله هو : « أول من نهجَ سبيل الشعر » ، وقولِ ابن سلامٍ : « أوّل من قصّد القصائد » ، وقول الخبر الهالك أيضاً : « أول من أحكم الشعر » . فإنّ ألفاظ الخبرين جميعاً لا تتناول الحكم على أوليّة الشّعر نفسه ، بل هي مقصورةٌ على أوليّة تقصيد القصائد وذكر الوقائع فيها ، أو على أوليّة إحكام الشعر ، وأنّ مهلهلاً وامرأ القيس كانَ لكُلٍّ منهما الفضل الأوّل في ذلك. بيدْ أن أبا عثمان لم يبالِ طرفةَ عَيْن أن ينقُل هذه الأوّلية من معنىً خاصٍّ محدود ، هو تقصيد القصائد وتطويلها ، إلى معنىً عام مُطْلَقٍ جامع هو « الشعر » نفسه . واستحوذ أبي عثمان اعجابُه بنفسه ، وثقته بحسن رأيه ونظره ، أن يزداد سبقاً في الاستخراج والاستنباط فزاغ زيغة منكرة مفرطة الغرابة ، فأعاد صياغة القضيّة صياغةً جديدة يُلقيها مُسَلّمة لا تحتاجُ إلى برهان فقال: « أما الشعر فحديث الميلاد صغير السنّ ، أوّلُ من نهج سبيله ، وسهّل الطريق إليه : امرؤ القيس ومهلهل بن ربيعة » . وصدر هذه القضية مشتقٌ من قول ابن سلام : « وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف » ، لقرب عهدهما من مولد رسول الله صلى الله عليه

وسلم فهو « محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف » . والأمرُ بَين ٌ جداً كما ترى ! !

ولم يقنع أبو عثمان بهذا ، بل أرادَ أن يَدْعَم هذه القضية بدليلٍ مبتدع آخَر لم يسبق إليه . فسوّل له إعجابُه بنفسه وبرأيه ، وبالقضية التي بهرته صياغتُها حين صاغها ، فزاغ زيغَةً أخرى أشدُّ جوراً ، فابتغى أن يحدِّد ميلاد الشعر تحديداً لا يُختَلَفُ عليه ، فطلب من شعر امرىء القيس الذي كان عنده أوّل من نهج سبيل الشعر كما زعم ، دليلاً أشدّ ظهوراً وتحديداً ، وأوثق حجّة من قول ابن سلام في شأن أولية تقصيد القصائد على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فأسعفه شعر امرىء القيس بأبيات فيها ذكر « حميرى بن رياح بن يربوع بن حنظلة » و « عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة » ، و « عدس » ، هو رأس بني تميم في زمانه ، وابن زرارة بن عدس ، رأس تميماً أيضاً ، وهو مشهورٌ لا يخفى ذكرُه ، لاقتران اسمه بأشنع يومٍ مذكور في بني تميم ، يوم أن حرّق عمرو بن هند مئة من تميم في يوم أوارة الثاني ، وهو مشهور أيضاً ، معروفٌ قُرْبُ تاريخ حدوثه من تاريخ مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإذن ، فما أيسَر الأمر وما أبينه ! وإذنْ ، فقد أوفَى أبو عثمان على الغاية ، وسَبَقَ ، فحقّ له أن يختم ما استخرجته براعتُه فيقول مُدِلاًّ متبختراً : « فانظرْ كم عُمُر زرارة ، وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإذا استظهرنا بالشعر ، وجدنا إلى أن جاء الله بالإسلام مئة وخمسين سنة ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار ، فمئتي عام » . وانتقالُ أبي عثمان من الاستدلال بالشعر الذي فيه ذكرُ « عُدُس » ، دون أن يذكر أنه يعنيه أو يريده ، ثم إلقاؤه اسم « زرارة » غُفْلاً بعقب ذلك مباشرة دون أن يشير إلى أنه « زرارة بن عُدُس » ، واطراحُه ذكر « يوم أوارة الثاني» الذي جاء عقب موت «زرارة» ، وإغضاؤه عن الاحتجاج لتاريخ ذلك اليوم متى كان — أقول هذا الانتقال المفاجىء ، وسياق عبارته في الأمر والاستفهام وتفويض الأمر كله إلى سامعه أو قارئه — غايةٌ في الإدلال والتشامخ ليس بعدها غاية ! وما حاجة أبي عثمان إلى تفسير هذا الاستدلال الحسابيّ ، إذا كان الأمرُ أوضح من أن يفتقر إلى بيان ؟ ! وقد بيّناه نحن آنفاً إكراماً لأبي عثمان !

وقد ظنّ أبو عثمان ما ظنّ في لطفِ ما سبق إليه وفي براعة ما ابتدعه . واحتملته خيلاؤه التي لا تُفارقه فقيّده في أوّل « كتاب الحيوان » ، وكان حديث عهدٍ بقراءة كتاب ابن سلامٍ ، ليكون عند نفسه وعند الناس قد أربى على الجمحيّ ، وافترعَ قولاً هو أحسن من قوله وأوثقْ ، وأنه أتى على ما أبهمه ابن سلامٍ فأضاءه ونفى عنه الظلام . بيد أن الحقّ دامغٌ ، يغسِلُ تهاويل الزينة الظاهرة عن وجه كُلّ قضيّة باطنُها باطِلٌ . وقضية أبي عثمان في أولية الشعر ، وهي كما رأيت ، دعوى باطلةٌ مركّبة على دَعْوى باطلةٍ أخرى لا أصل لهَا ، وكلتاهما لا حجّةَ عليها يجب التسليمُ لها من نصٍّ أو نظَرٍ . لقد بطلت قضيتهُ وتكشفت عنها زينتها ، وعادت عجوزاً غير ذلك خليلٍ ، كما يقول امرؤ القيس بن عابس الكندي :

شَمْطاء جزّتْ رأسَها وتَنكّرَتْ مكروهةٌ للشمّ والتقبيــــلِ

فالعجب كل العجبِ بعد ذلك ، لمن يعتمد قول الجاحظ في أوليّة الشعر وعمره ، وحداثة ميلاده وصغر سنّه ! ولم يبق في أيدينا مما يعتمد عليه ، إلاّ الذي لم يختلف عليه أحدٌ ، وهو أنّ من أقدمِ ما وصلنا من شعر الجاهلية ، شعر مهلهل وامرىء القيس وأقرانهما . فإن شئت أن لا تفجع أبا عثمان في قضيته وحسابه ، فزد على ذلك أن الذي بين الرجلين الشاعرين وأقرانهما وبين مجيء الله بالإسلام ، يتراوح ما بين مئة وخمسين سنة ، إلى مئتي سنة . هذا غاية ما يمكن التسليم بصحته ، لا أكثر ولا أقل . ومع ذلك فالأمر على هذا الوجه ليس يقيناً جامعاً ، ولا حقّاً قاطعاً .

وإذنْ ، فقد صارَ قولُ الجاحظ الآن لا يعنينا في شيء ، والذي ينبغي أن يعنينا هو ما قاله ابن سلامٍ في رسالة كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، فالرجُل أشدُّ من أبي عثمان تحرّياً وضبطاً ، وأبلغُ منه تحقّقاً وتثبُّتاً في رواية الشعر ونقده ، وهو بلا ريب أعلمُ به منه وأخبر . فمن الحسَن إذنْ أن نُقبل بوجوهنا عليه ، وأن نحاول — أيضاً — تحليل أقواله تحليلاً متأنّياً ، يقفنا على أول مدرجة الصواب ويَجُوزُ بنا طرق الشّك إلى قرارة الحقّ واليقين ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله المخرِجنا من ظلمات الحيرةِ والضَلال إلى نورِ الهُدَى والطمأنينة .

* * *

وقبلَ كُلِّ شيء ، وقبل النظر في مقالة أبي عبدالله محمد بن سلام الجمحي في كتابه ، « طبقات فحول الشعراء » ، أجدهُ لزاماً لا مفرَّ منهُ ، أن أكشف عن شيء من منهجي في قراءة كتب القدماء من علمائنا رحمهم الله . فقد غبرَ عليَّ زمانٌ طويل في مدارسة كتبهم ، على اختلاف موضوعها ، واختلاف أزمانها ، ولقيتُ العنتَ ، وما فوق العَنَتِ في التردّد ما بين الخطأ والصواب في فهم بعضِ ما يقولون ، فأسلمني ذلك إلى حالةٍ من الشك تأخذُ بأكظامي ، وأنا أقرأ بعض كلامهم ، حتى ما أطيقُ أن أتنفّس ، وأظلُّ حائراً متهيباً أن أقول برأيٍ قاطع في فهم ما أقرأ ، وتغلبني غمرةٌ طاغيةٌ من قلّة الثقة بفهمي وبمعرفتي . وربَّ حرفٍ واحدٍ في كلامِهم ينقُلني من موقف الواثِق ، إلى موقف مناقِضٍ ينفي هذه الثقة ، ويأتي بعده حرف آخر يحملُني من موقفي هذا ، فيطرحني مرةً أخرى إلى الموقف الأول في الثقة والاطمئنان ؛ وهكذا دواليك حتى أضيقُ بما أنا فيه . فمن أجل ذلك ألجأ دائماً إلى إعادة النظر مرةً بعد مرّةٍ ، وأحاولُ أستوعبَ في كلِّ مرةٍ قدراً من الشكوك وقدراً من اليقين ، وأعرضُ هذا على الكلامِ كُلّه شيئاً بعد شيء ، حتّى أزيلَ التخالُف الداعي إلى الشكِ ما استطعت . ومعنى ذلك : أن ألجأ إلى تحليل الألفاظ ثم الجُمَلِ تحليلاً دقيقاً ، في خلال النصّ كلّه طال أو قَصُر ، ثم أعيدُ تركيبَه بعد أن يَزُولَ كُلُّ غموضٍ يكتنف الألفاظ ، وكُل تشقُّقٍ يَسْري في الجُمَل ، وكُل انتشارٍ يُبَعثر مَقاصدَ كاتبه على أنظارنا نحن المحدَثين من أهل العربية . وهذا أمرٌ يطول الحديث عنه ، ولا يظهر ظهوراً جليّاً إلاَّ بمثلٍ مضروبٍ يدلُّ عليه ، وقد كانَ ذلك في بعض ما كتبتُ قديماً ، وكانَ منذ قليلٍ في تحليليٍّ لكلام أبي عثمان الجاحظ على وجه من وجوه هذا المنهج ، وسيكونُ شيء منه بعد قليل في تحليل كلام ابن سلامٍ في رسالة كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وحتّى عنوانُ هذا الكتاب نفسه لم يسلم عندي من الشك والتحليل .

وذلك أنّي منذ عهد قديم ، وقفت حائراً متلدّداً في ضبط معنَى بعضِ ألفاظٍ تدورُ بيننا اليومَ قريبة واضحة المعنَى ، ثم لا نجد في أنفُسِنا سبباً يحملنا على إعادة النظرِ في حقيقة معناها ، ثم عند التوقف والشك ، ومع الأناة والتّردادِ ، ظهر لي

أنَّ بعضها في كلام ابن سلاّمٍ عند تحليله ، أصبح محفوفاً بمعانٍ غير المعاني التي ألِفتُها وألفها العلماء والأدباء في زماننا وقبل زماننا ، لم يُساورهم ولم يساورني أنا أيضاً من قبلُ شك في معناها الواضح المألوفِ عندنا . فلما توقفتُ فيها فيما بعدُ لأسباب كثيرة ، لم يكن ذلك عندنا مستغرباً ، لأن بعض الألفاظ التي استحدثها قدماء علمائنا من أهل العلم ، وفي كُلِّ فنٍّ منه ، لم تكن يومئذٍ قد استقرّت معانيها على الوجه الذي انتهى إلينا وألفناه نحنُ في كتب من بعدهم من العلماء والأدباء . وهذا أمرٌ معروف مقرّر بلا ريب فيه ، ولكنّ الألفَ يغطّي عليه ويُنْسِيناه . فمن ذلك ، مثلاً ، في كتاب ابن سلام لفظ « طبقة » ، استعمله صاحبنا في ثنايا كتابه ، ثم جعل جمعه « طبقات » عنواناً لكتابه . وهذا اللفظ مألوفٌ معروفٌ عندنا وعند من سبقنا من العلماء ، وسمّوا كثيراً من كتبهم به . فقالوا : « طبقات الفقهاء » ، و « طبقات الأدباء » و « طبقات الأطباء » و « طبقات الشافعية » و « طبقات اللغويين والنحاة » و « طبقات الأمم » و « طبقات الصوفية » ، وعشراتٌ من الكتب تحمل لفظ « الطبقات » ، وهو في جميعها مفهوم واضح . ولمّا تعرَّضَ المحدثون من علمائنا لكتاب ابن سلامٍ ، حملوا معنى « الطبقة » و « الطبقات » عنده على ما ألفوه ، فقالوا بتفضيل الطبقة الأولى من فحول الجاهلية على الطبقة الثانية منهم ، وهكذا ، لأنه ظاهر أنه لم يقسّم هؤلاء الشعراء على وفق الزمن وتاريخ المولد والوفاة ، فلم يبق في أيديهم إلاّ معنى واحد من معاني « الطبقة » ، وهو تفضيل طبقة على طبقة ، وهو معنى لا يريده ابن سلام ، وليس في كتابه شيء يدلّ عليه ، بل فيه ما يدل على أنه لا يريد هنا التفضيل البتّة وقد بينتُ في مقدمة الطبعة الثانية من نسختي من « طبقات نخول الشعراء » (ص ٢٤ ، ٢٥) ما أنا فيه من التردّد في فهم هذا اللفظ ، ثم عدت في المقدمة نفسها ، فحلّلت هذا اللفظ ، وحاولت تتبُّع تاريخه ، وانتهيت إلى ما أظنُّ أنّه حقيقة معنى ابن سلام بهذا اللفظ ، وذلك من ص ٦٥ ، إلى ص ٦٩ ، ثم قلتِ في ختام ذلك : « وسيبقى أمر كتاب « طبقات فحول الشعراء » بعد ذلك ، محتاجاً إلى دراسة وتفصيل وتتبُّع ، وإلى تفلية لأصول ابن سلامٍ في النظر ، ولأسسه التي بنى عليها نقده في الشعر ، وهو خليق بأن تُبذلَ

في دراسته الأعوام ، لأنه أقدم كتابٍ وصل إلينا من كتب نقّاد الأدب والشعر ، بل لعلّه طليعة كتب النقد في الأدب العربيّ ، وهو حقيق بهذه المنزلة من التقديم والجلال » . وهذا كاف ، إن شاء الله ، في الدلالة على بعض منهجي في تحليل هذه الرسالة الجليلة الّتي استفتح بها ابو عبدالله ابن سلام الجمحي ، كتابه « طبقات فحول الشعراء » .

* * *

أمّا رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وهي مقدمته الّتي استغرقت نحو خمسين صفحةً من طبعتي الثانية لكتابه ص (٣ — ٥٠) . والّتي قسمتها أنا إلى خمس وخمسين فقرة ، أولاهنّ إسناد الكتاب ، فلي في جملتها وسياقها حديث قصير ، لا بُدّ منه ، حتى يكون ما أقوله واضحاً ، وليكون ما نتولاّهُ من تحليل مقالة ابن سلام في صدر كتابه واضحاً أيضاً ، وميسّراً سبيلَ من يريد أن يتعقّبَ كلامي ، وهو ينظر في الأصل ، وهو الكتاب المطبوع . والذي يوجب ذلك أن القدماء من علمائنا كانوا لا يجدون في الاستطرادِ حَرَجاً على أنفسهم ولا على ساميعهم أو قارئيهم ، وكانوا لا يرون به بأساً لأنه يعينُ على بَذْلِ علمٍ أو معرفة نافعة في جانب من جوانب الموضوع الذي يتحدثون فيه . حتى يبلُغوا مِنْ ذلك أن تجد أداةَ الشرط في أوّل الحديث ، ثم تنقضي عدة صفحاتٍ طوالٍ جداً حتى تقف على جواب الشرط . تجد هذا عند الشافعي والطبريّ وغيرهما من أهل العلم ، رضي الله عنهم . ولهذا من فعلهم أسبابٌ كثيرة ، ليس هذا موضع بيانها . وسنرى مصداق ذلك في رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، كما أصفها الآن :

بدأ ابن سلام عرض كتابه وسبب تأليفه في الفقرة الثانية (ص ٣ من المطبوع) فقال :

« ذكرنا العربَ وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها ، إذا كان لا يُحاط بشعرِ قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانُها وساداتُها وأيّامُها . فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهلُهُ عالمٌ ، ولا يستغني عن علمه ناظرٌ في أمر العرب ، فبدأنا بالشعر » . . .

وواضحٌ أنّه أراد هنا أن يبيّن منهجه في تأليف الكتاب ، وأنه سيذكر بعقب ذلك تتمّة عرضه نعمله في التأليف ، ولكنه قطع هذا العرض فجأة ، ولم يَعُد إلى وصل الحديث عنه إلا في الفقرة الحادية والثلاثين (ص ٢٣٢) فقال متمّماً ما بدأ به : « ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام ، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكُلّ شاعرٍ بما وجدنا له من حُجّةٍ ، وما قال فيه العلماء . . . » ، ثم استطردَ بعد ذلك في حديث متصل عن هذا الشعر منذ انتهى من هذه الفقرة الحادية والثلاثين ، ثم عاد في الفقرة الخامسة والخمسين (ص : ٤٩) فقال متمماً عرض كتابه أيضاً فقال : « ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم ، إلى رهط أربعة ، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة » . . . وختم بتمام هذه الفقرة رسالة كتابه أو مقدمته . وفي خلال ذلك بعض الاستطراد وهو لا يعنينا هنا . هذا هو السياق الأوّل في مقدمة كتابه .

ثم يأتي سياقٌ ثان معترض يبدأ من الفقرة الثالثة (ص : ٤) ، وينتهي عند آخر الفقرة الثالثة عشر (ص : ١١) يبدأه بقوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع لا خير فيه . . . » ، يتعرّض فيه لبيان رأيه في هذا الموضوع ، ويكشف عن حقيقة بطلانه .

ثم يبدأ سياقاً ثالثاً يذكر فيه علماء العربية ، منذ الفقرة الرابعة عشرة (ص : ١٢) إلى أن ينتهي بالفقرة الثلاثين (ص ٢٣) ، بادئاً يذكر أبي الأسود الدؤلي ، ويحيى بن يعمر العدواني ، وقتادة ، وإسحق بن سويد ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ونصر بن عاصم الليثي ، وعبدالله بن أبي إسحق الحضرميّ ، وعيسى بن عمر ، وأبي عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، ومسلمة بن عبدالله الفهري ، وحماد بن الزبرقان ، ثم الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ثم أبي محزر خلف حيان ، وهو خلف الأحمر ، ثم الأصمعي ، وأبي عبيدة ، وكلهم من أهل البصرة ، ثم يختم هذا السياق ، فيقول : وأعلم من وردَ علينا من غير أهل البصرة المفضّل بن محمد الضبي الكوفيّ » .

وإذن فترتيب سياق المقدمة جملةً هو هكذا : السياق الأول : ١ ، ٢ ثم ٣١ إلى ٥٥ ، السياق الثاني : من ٣ ، إلى ١٣ ، السياق الثالث من : ١٤ ، إلى ٣٠ . ووضوح هذه السياقات الثلاثة والفصل بينهما واجبٌ ومهمٌ جداً لمن يريد أن يفهم ما يريدُ ابن سلامٍ بكلامه ، وهو أشدُّ وجوباً لمن يحلّل ألفاظه وجُمَله بغية الوقوف علَى مقاصده بلا خَلْطٍ بين كلامين مفترقين متباينين . وبينٌ جداً أن ابن سلام قد قطع تمام كلامه في الفقرة الثانية التي يعرض فيها نهج كتابه ، والتي وصلها بعد ذلك بزمان في الفقرة الحادية والثلاثين إلى الخامسة والخمسين ، معترضاً مستطرداً بفصلين مختلفين أولهما عن « المصنوع » من الفقرة الثالثة إلى آخر الفقرة الثالثة عشرة . وثانيهما عن علماء العربية من الفقرة الرابعة عشر إلى الفقرة الثلاثين (١٢ — ٢٣) . وبهذه المناسبة عند ذكر هذا الفصل الثاني الطويل ، أحبّ أن أذكر وهماً كبيراً وقع فيه إمامٌ جليلٌ من قدماء علمائنا أيضاً ، يدلُّنا على وجوب التأنّي وإعادة النظر ووضوح الفصل بين هذه الفصول التي تضمنها رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وذلك أنّ إمامنا أبا عليّ القالي صاحب كتاب الأمالي والنوادر (المولود سنة ٢٨٨ ، والمتوفى سنة ٣٥٦) وهو قريب العهد من ابن سلام قال في أماليه (١ : ١٥٧) : « وقال محمد بن سلام في كتاب « طبقات العلماء » : كنا إذا سمعنا الشعر من أبي مُحرِزٍ (يعني خلفاً الأحمر) لا نبالي أن نسمعه من قائله » وهو الخبر المذكور في كتاب « طبقات فحول الشعراء » رقم ٢٩ من هذا الفصل الثاني وليس لابن سلامٍ كتابٌ بهذا الاسم ، ووهم أبو علي لأنه اعتمد على ذاكرته ، ولم يكن كتاب ابن سلام من بين الكتب التي حملها معه إلى الأندلس ، كما يدلّ على ذلك فهرس ابن خير الأشبيلي . وقد أشرت إلى ذلك في مقدمة الكتاب (ص : ٣٨) . وهذا الوهم ، على هَوَانه ، يحذّرنا ويوجبُ علينا الحرص على الأناة والدقة ، مخافة أن نقع فيما هو أجلُّ وأخطر ، وأبعدُ أثراً في إساءة فهم كلام أبي عبدالله بن سلام ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

لم يكد أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحيّ يستفتح رسالة عرض منهج كتابه

بالفقرة الثانية التي ختمها بقوله : « فبدأنا بالشعر » ، والتي نقلتها آنفاً من قريب ، حتى هجم بغتةً على إحدى قضايا « الشعر » ، وهي قضيَّة المصنوع المفتعل ، منذ أوّل الفقرة الثالثة فقال :

« وفي الشعر مصنوعٌ مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجةُ في عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ، ولا معنى يُستخرَج ، ولا مثل يُضْربُ ، ولا مديح رائعٌ ، ولا هجاء مقذعٌ ، ولا نسيبٌ مستطرفٌ ، وقد تداولَهُ قومٌ من كتاب إلى كتابٍ ، لم يأخذوهُ عن أهل البادية ، ولم يعرضوهُ على العلماء ، وليس لأحدٍ ، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، أن يقبل عن صَحيفة ، ولا يَرْوِيَ عن صُحُفِيٍّ . وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعضِ الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدٍ أن يخرج منه » . وهي الفقرة الثالثة كُلُّها .

وهذه عبارة واضحة جدّاً عند النظرة الأولى ، ليس فيها معنىً غامضٌ يوجب الأناة والتأمل ، وقد مررتُ بها مراراً وأنا أعيد قراءة كتاب ابن سلامٍ فما توقفت ولا تردّدتُ . وحتى المباغتة التي ارتكبها ابنُ سلامٍ في انتقاله وقطع حديثه عن عرض الكتاب إلى أن يبدأ الفقرة الثلاثين ، لم تختلجْني إلى الشك من فهمي وإعادة النظر في ألفاظها . ومضى دهْرٌ قطعتني فيه عن ابن سلامٍ القواطع ، ثم أتَى عليَّ يومٌ فانتبهت فيه فجأةً إلى أنَّ هذه الفقرة قد غابتْ عن الطبعة الأولى المختصرة من « كتاب الطبقات » ، والتي طبعها الأعجمي يوسف هل في مدينة ليدن سنة ١٩١٣ ، وعن طبعته طبعت الثانية في القاهرة سنة ١٩٢٠ ، فكان غيابُها عن هاتين الطبعتين اللتين رجع إليها العلماء والأدباء إلى أن طبعت نسختي التامة منه في سنة ١٩٥٢ ، قد قادَ أوّل المشككين في الشعر الجاهليّ النافين لصحة ما روى منه ، إلى فسادٍ كثير في الرأي . وإلى خللٍ مفزعٍ في النظر . فلمّا حضرت هذه الفقرة نفْسها في نسختي ، فُهمت على غير وجهها ، ووضعت في غير موضعها ، وصارت حُجّة في معانٍ هي في الحقيقة حجّةٌ عليها لالها ، ثم أفضت إلى تفسير سائر كلام ابن سلام في رسالة كتابه تفسيراً غير صحيح . فيا عجباً لها من فقرة ! كان حضورها

في نسختنا من الطبقات ضارّاً ، وكان غيابُها عن نسخة يوسف هل ضارًّا أيضاً ! وإذنْ ، فللكلامِ كما للناسِ أضرارٌ في مشهدهم ومغيبهم !

وعلى الأيّام غلابي ارتبابي في شأن هذه الرسالة ، ودون أن أرجع إلى نص كلام ابن سلام ، وجدتُ في نفسي ، أو وقع في روعي على الأصحّ ، أن الأمر لا يخرجُ عن أحد احتمالين : إمّا أن يكون سَقَط من أصل كلام ابن سلام شيء مُهِمٌّ ، وإمّا أن أكون أنا قد أسأت فَهم ما قرأت . فعُدت أقرأ الرسالة كلها متمهّلاً ، فلم أستطع أن أتبيّنَ موضعاً أقول فيه : هٰهنا شيء مفقودٌ . ووجدتُ أيضاً أني قد نبّهتُ في تعليقي على الكتابِ وبيّنْت مواضع الاعتراض والاستطرادِ بياناً غير مختلٍّ ولا ناقص . وإذنْ ، فقد بطل احتمال ضياع شيء من كلام ابن سلام ، ولم يبق إلاّ تكونَ الآفةُ من سوء فهمي لكلامه ، ولم أكذب ، فقرأتُ مرةً أخرَى ، ولكني لم أظفر بالذي أبتغيه من اتّهامِ نَفْسي وإساءتها ، فأصحّح ما أسأتُ فيه ، ولكنّ القراءة ثم إعادة القراءةِ قد أظفرتني بشيء مهمٍّ جدّاً ، وهو أنّ مباغتة ابن سلامٍ بانتقاله من الفقرة الثانية التي بدأ فيها عرض منهجه في كتابه ، والتي ختمَها بقوله : « فبدأنا بالشعر » ، قبل أن يستتم عرضه — إلى فِقْرة ثالثة يتحدث فيها عن ضرب من الكلام « مصنوع مفتعل موضوع » مستطرداً متدفّقاً في بيان خبث... وعُواره ، ثم لا يكفُّ حتى يبلغ أقصى الفقرة الثالثة عشرة — أقول : انقلبت هذه المباغتة التي ألفت أشباهها في بعض كتب القدماء من علمائنا ، إلى طَفْرة غريبة مُفْرطة الغرابة ، تزدادُ غرابتُها ظهوراً وعلانيةً حين يستمرّ في إعراضه وازورارِه عن إتمام ما ابتدأهُ في الفقرة الثانية ، غير مبالٍ نَقْرةً ولا فَتْلةً بما هو فاعلٌ ، لا تساورُه أدنَى رغبة في وصل ما انقطع من حديثه ، بل يزداد تدافُعاً في غُلَواء استطراده الأوّل باستطراد ثان يبدأ مُنْذ الفقرة الرابعة عشرة إلى أن يكفكف من تدافعه وتدفقه عند منقطع الفقرة الثلاثين ، ثم يكفُّ فجأة أيضاً ، لا يفصلُ بينها وبين الفقرة الحادية والثلاثين بنَفَسٍ أو نَفَسين ليستريح ، بَلْ ينطلقُ كأنه لم يقُلْ شيئاً وكأن ختام الفقرة الثانية لم يكد يَفْصل بعد عن لسانه وهو يقول : « فبدأنا بالشعر » ، فيستمر قائلاً : ففصّلنا الشعراء

من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلهم . . . » ، ويسير على هينة يعرض نهج كتابه حتى انقضى العرض عند آخر الفقرة الخامسة والخمسين . هذا عجبٌ ! وابتداؤه هذه الفقرة الحادية والثلاثين بالفاء العاطفة المعقّبة (أي التي تفيد العطف والتعقيب) في قوله : « ففصلنا » منبتٌّ كلّ البتّ عن الفقرة الثلاثين ، وملتحم تمام الالتحام بالفقرة الثانية ، على بعد ما بينهما. فسياق كلامه إذن : « فبدأنا بالشعر ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية..» ورحم الله أبا عبدالله وغفر له .

ما هذا الذي فعله ابن سلام ؟ ولِمَ ؟ وفيمَ ؟ وعلام ؟ وأسئلةٌ أخرى كثيرة ، فاستيقنت نفسي أني لن أجد إلى جوابها سبيلاً إلاّ بعد تحليل هذه الفقرة الثالثة تحليلاً شافياً كافياً معيناً على استخراج ما كمن فيها وفي ألفاظها من دوافعه ومعانيه ، ثم أعرضُ ما أقف عليه عرضاً متّصلاً بلا مللٍ ، وإلاّ فإني واقف طويلاً حيث أنا من حيرتي وتلدُّدي ، بلا بصيصٍ من نورٍ يهدي . وما كذَّبتُ أن فعلتُ ، وكانت غُمةَ فانزاحت ، وتبلّج عمودُ الصبح عن بياضه ، بحمدالله على إحسانه وفضله . وبيان ذلك :

أني رأيتُ هذه الفقرة المباغتة التي شرع ابن سلام يحدثنا فيها عن « مصنوع ، مفتعل ، موضوع » ، قد اشتملت على ذكر « ناسٍ » لم يحدّد هو معارفهم وأوصافهم في كلامه ، ولم يفصِل بين ناسٍ منهم وناس ، واشتملت أيضاً على ألفاظٍ لاندري نحنُ حدّ معانيها عنده ، قبل أن تنتهي إلينا محمّلةً بمعان نشبتْ فيها على مرّ القرونِ وعلى طول الاستعمال . فاستجرحت منها خمسة وُجوهٍ ملثّمة ، لا بُدَّ من كشف القناع عن ملامحها حتى نتبيّن قسماتها تبيّناً ينفي عنهاً الغموض والإبهام ، وهذه هي على ترتيبها في كلام ابن سلام :

الوجهُ الأول : « قوم قد تداولوا شعراً من كتابٍ إلى كتاب » . ولا ندري من من الناس يعني ابن سلام ؟

الوجه الثاني : وصف هؤلاء القوم بأنهم « لم يأخذوا هذا الشعر عن أهل البادية ،

ولم يعرضوهُ على العلماء » ، فذكر « أهل البادية » و « العلماء » . وهذا أيضاً غير محدّد ، لأنا لا نعرف ماذا يريد بقوله : « أهل البادية » ، ولا نعلم من هُمْ هؤلاء « العلماء » ؟

الوجه الثالث : ذكر قوماً آخرين سماهم « أهل العلم والرواية الصحيحة » ، لهم وحدهم حق إبطال بعض هذا الشعر ، ولكنه لم يبين من هم « أهل العلم » ولا معنى ما يريده بالرواية الصحيحة .

الوجه الرابع : ذكر « صحيفة » نهى عن قبول هذا الشعر عنها ، وذكر « صحفياً» نهى كلّ أحد أن يروي عنه هذا الشعر ، وأيضاً تركنا في عمياء دون أن يحدّد لنا معنى ما يريدُ بالصحيفة ، ودونَ أنْ يبيّن من يكون هذا « الصحفيّ » ؟

وهذه الوجوه ، غيرُ ممكنٍ تبيُّن ملامحها وحدودها على وجه الدقة ، فيما أظنُّ ، حتى يتمَّ توسُّم آخرِهنّ ، وهو الوجه الخامس ، ولذلك رأيتُ أن أتجاوزها حتى أفرغَ منه .

أما الوجه الخامس : فهو وجه « الشعر » ، وهو عندي أخفاهُنّ صورة ، وأعسرُهنّ على التوسُّم ، وهو أحقّ بالتقديم ، لأنه هو الحقيقة المشتركة الموزَّعَةُ بين جميعهنّ . وتحليلُ معانيه عند ابن سلاّمٍ في سياق هذه الفقرة ، هو الذي سيضيء بنُورِه معارفَ هذه الوجوه الأربعة ، فنخرج من الشك والتردّدِ ، إلى اليقين والاطمئنان .

كان انتقال ابن سلام المفاجىء من منتهى الفقرة الثانية إلى رأس الفقرة الثالثة على هذا الوجه : « فبدأنا بالشعر ، وفي الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه » . وأيسرُ النظر والتأمُّل دالٌّ على أن في أيدينا قسمةً واضحةً ، تجعل « الشعر » قسمين : أحدهما ظاهرٌ في صريح لفظه ، وهو « الشعر المصنوع المفتعل الموضوع » ، والآخر محَدثٌ مضمرٌ يخرج بدلالة المخالفة وهو « الشعر » غير المصنوع » . وظاهر السياق بعد ذلك يُوهم أن كُلّ ما في هذه الفقرة مصروفٌ إلى الظاهر منهما وهو الشعر المصنوع » وحده ، دون « الشعر غير المصنوع » ، ولكنّي بعدَ تأمُّلٍ

وجدت الأمر غير مستقيم ولا واضح . لأنه بعد أن فرغ من وصف « الشعر المصنوع » ، أتى بجملتين متتابعتين فيهما أربعة ضمائر ، أولاهن فيها ثلاثة ضمائر متتابعات في قوله : « وقد تداوله قومٌ من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فهذه الثلاثة لا غضاضة في عودتها إلى « الشعر المصنوع » ، إلاّ الضمير الثالث في « لم يعرضوه » ، فإن عودته إليه قد تجعل هذه الجملة فضولاً محضاً لا معنى له ، لأنه إذا كان جوهر الحديث كُلّه عن « الشعر المصنوع » وحده ، فعرضه على العلماء وترك عرضه عليهم سواء ، فإن عرضه عليهم لا ينفعه شيئاً ، ومحالٌ أن يصحّحوه أو يصححوا شيئاً منه لأن الحديث هنا عن « الشعر المصنوع » لا عن غيره من الشعر .

ثم تأتي الجملة الثانية وفيها الضمير الرابع ، وهي قوله : « وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، أن يقبل من صحيفة أو يَرْوِيَ عن صحفيٍّ » فان هذه الجملة إذا كانت بضميرها هذا تماماً لسياق الحديث عن « الشعر المصنوع » وحده ، صارت أشدّ فضولاً وبطلاناً واضطراباً من الجملة السالفة ، إذ لا معنى لإجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء ، أي بعضٍ ، من المصنوع دون بعض ، وهو عندنا هنا كُلُّه مصنوع . وإذا أجمعوا على إبطال بعض المصنوع ، فما حكم هذا الباقي ، وهو مصنوع أيضاً ؟ هذا خلفٌ من الكلام غير مستقيم . بل أكبرُ من ذلك وأسوأ مصيراً ، أنّه إذا كان السياق كُلُّه عن « الشعر المصنوع » وحده ، فإنّ هذه الجملة تكون عطفاً على ما قبلها ، فإذا بدىء بالشرط الذي فيها والشرط محتاج إلى جزاء ، كان تركيبها هكذا : « وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، فليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي » ، وهو كلام ، كما يقولون « كبعر الكبش » ، يقع متفرّقاً غير جارٍ على نظمٍ متصل ولا مشاكلة بين الشرط وجوابه ، و « بعر الكبش » هو الذي يقول فيه القائل :

وشِعْرٍ كبَعْرِ الكبْشِ ، فرّق بينه　　لسانُ دَعِيٍ في القريض دَخِيل

وهذا لا يُقْبَلُ ممن هو دون ابن سلام بمنازل لا تعدُّ ، فما ظنُّك بابن سلام ! ولو كانَ الحديث كله عن « المصنوع » وحده ، لكان حقٌّ هذه الجملة أن تكونَ خاتمةً قائمة برأسها ، غير معطوفة على ما قبلها ، وتكون نهياً من ابن سلام عن قبول هذا المصنوع وروايته ، فيكون حقٌّ تركيبها : « وليس لأحد أن يقبَل من صحيفة ولا يروى عن صحفي » ، باسقاط الشرط المعترض الذي أحالَ معناهَا ، وجعلها من تمام الحديث عن « المصنوع » معطوفةً عليه . وبذلك يستقيم الكلام على بعض الخلل .

بل إن الأمر سينتهي إلى فساد في المعاني والمقاصد أبلغ وأفحش ، فإنه يقول بعقب هذا الكلام مباشرة : « وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليسَ لأحد أن يخرجَ منه » ، فنحن بين اثنتين حيال هذه الجملة : إمّا أن تكون من سياق حديثه عن « الشعر المصنوع » وحده ، والذي استمرّ في الحديث عنه إلى آخر الفقرة الثالثة عشرة — وإمّا أن تكون جملةً معترضة قائمة على حيالها في خلال الحديث عن « الشعر المصنوع » .

فاذا كانت الثانية ، وذلك أن تكون جملةً معترضة في السياق قائمة على حيالها ، لا علاقة لها بما قبلها من حديث « الشعر المصنوع » ، ولا بما بعدها منه ، كأنَّ ابن سلام أعرض عنه إعراضةً ليحدّثنا مبتدئاً عن « العلماء » الذين عندهم شِعْر شعراء العرب ، ويدلّنا عن أنّ هؤلاء العلماء قد اختلفوا في بعض ما عندهُمْ من شعر العرب ، واتفقوا على بعض ، فما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه . فإن كان هذا منه ، فمعنى ما حدّثنا عنه صحيح « لا غُبارَ عليه ، وهو حق كُلُّه ، لا يقدحُ فيه أن لم يبيّن لنا معنى اختلافهم هذا ، ما هو ؟ وما صورته ؟ وعلى أيّ وجه يكونُ ؟ أيختلفون في نسبة قصيدة ، ينسبها بعضهم إلى شاعر جاهليٍّ بعينه ، وينسُبها آخرون إلى جاهلي آخرَ ؟ أم في نسبة بعض أبياتها إلى جاهليّ ، ونسبة بعضها الآخر إلى جاهلي غيره أو إلى جاهليين آخرين ؟ أم من نسبتها كُلِّها إلى مُخَضْرم أو إسلاميّ ؟ أم في نسبة بعضها إلى جاهليّ ، ونسبة بعضها إلى مخضرم أو إلى إسلاميّ ؟

ووجوهٌ أخرى من الإختلاف كثيرة كلها صحيحٌ وممكنٌ . ولكن ينبغي هنا أن يبقى هذا الاختلاف بعيداً كل البُعْد عن الصنع والافتعال والوضع ، لأنّ ابن سلام كما قلنا قد قطع هذا الحديث وأغرض عنه إعراضةً ، ليحدثنا مبتدئاً عن شيء غير « الشعر المصنوع » . وإذا كان ذلك كذلك ، فقد عدنا مرةً أخرى إلى « بعر الكبش » الذي يقع متفرقاً متعادياً متنافراً ، وبذلك يكون ابن سلامٍ قد ارتكب عملاً غريباً جداً ، هو إسقاطه جملةً معادية لسياق حديثه عن « الشعر المصنوع » ، يقذف بها في خلاله ، وفي موضع لا يليقُ بها ، وبلا هدفٍ مفهوم ، وبلا داع يدعُوه إلى ذلك أو يسوّلهُ له . وهذا غير سائغ ، بل هو فسادٌ واختلالٌ في تنزيل الكلام منازلَهُ ، وسَفَهٌ متهوّرٌ في البيان والتبيين ، وهو على أيِّ وجوهه غيرَ مرضيٍّ ولا مقبول . ولا أظنُّ أنّ أحداً يرتابُ في أنّ ابن سَلاَّم منزّهٌ كل التنزيه عن مثل هذا الخلل والفساد والسفه ، بدلالة كتابه كُلِّه .

وأمّا إذا كانت الأولى ، وهي أن تكون هذه الجملة جزءاً من سياق قد أخلصه للحديث عن « الشعر المصنوع » وحده ، فعندئذ يصبحُ معنى قوله : « وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعض الشعر » ، أن العلماء قد اختلفوا في بعض المصنوع من الشعر . وهذا كلام لا معنى له البتة ، على أي وجه كانَ . وليت شعري في أيّ شيء يختلفون ؟ أيختلفون فيمن صنعه وافتعله ووضعه ؟ من يكونُ أو من يكونون ؟ هذا سخفٌ وقلّة عقلٍ — أم يختلفون فيقول بعضهم : هذا الشعر المصنوع مصنوع ، ويقول آخرون : هذا الشعر المصنوع غير مصنوعٍ ! ! هذه تخاليط ممرورين لا اختلاف علماء . وأشنع من اختلافهم اتفاقهم : أيتفقون على بعض الشعر المصنوع أنه مصنوع ؟ وإذنْ ، فما حكم باقي المصنوع ؟ أيفوِّض هؤلاء العلماء أمره إلى غيرهم ليحكم عليه ؟ فيقول المحكّمُ ماذا ؟ هذا كُلُّه عجبٌ وفوق العجب ، وهو بيقين باطلٌ وفوق الباطل ، ومحالٌ أن يريد هذا المعنى رجل متهافت العقل ، فما ظنُّك بابن سلامٍ . وإذْ بطل هذا الفرض يقيناً ، فلم يبق إلاّ الفرض الأوّل ، أن تكون هذه الجملة معترضةً قائمة على حيالها ، لا علاقة لها بالحديث عن الشعرِ المصنوع — وأنها من حيث هي جملةٌ تامة ، صحيحةُ المعنى ، على رغم كُلٍّ

ما قلتُه آنفاً من وقوعها موقعاً غريباً معادياً لسياق ما سبقها ، وعلى رغم كل ما أدّى إليه هذا الموقع الذي لا يليق بها .

وهذا التحليل الموجز المقتضب قد أفضى إلى غرائب في تركيب هذه الفقرة ، وهذه هي على تتابعها في السياق أولاها : قوله في أوّلها : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجّة في عربية ، ولا أدب يُستفادُ ، ولا معنىً يستخرج ولا مثل يضرب ولا فخرٌ معجبٌ ولا نسيبٌ مستطرفٌ » وهذا بلا ريب حديث طويل عن « الشعر المصنوع » وكشف عَنْ عُوَاره . ثم يقول بعقبه ، وقد صَرَفَ أذهاننا كُلّها إليه : « وقد تداولَه قومٌ من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوهُ عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » ، فالضمائر الثلاثة في هذه الجملة مصروفة إلى « الشعر المصنوع » وحده خالصة له ، وهي لائقة به لا تستنكر .

ثانيتُها : وهي الجملة التي تليها مباشرةً ملاصقة لها ، وهي قوله : « وليس لأحدٍ ، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، أن يقبَل من صحيفة ، ولا يروي عن صُحُفِيٍّ » ، فهذا الضمير الرابع في « شيء منه » هو أخو الضمائر الثلاثة وشقيقها راضعٌ بلبانها ، أو ابن عمها لحّاً لازق نسبهُ بنسبها . والتبعيض في « شيء منه » تبعيضٌ لما يعود إليه هذا الضمير ، وهو « الشعر المصنوع » ، والشرطُ المزحزح عن مكانه ، يجعلُ الجملة معطوفة على ما سبقها من حديث عن « الشعر المصنوع » ، وأصل سياقة جملة الشرط هكذا : « وإذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ، فليس لأحدٍ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفيّ » . وهذا خُلْفٌ من الكلام لا يستقيم من وجوهٍ ، أفدحُها أن لا معنى لإجماع أهل العلم والرواية على إبطال بعض المصنوع دون بعضٍ . هذا ، فضْلاً عن أن قوله : « فليس لأحدٍ أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي » ، هو جزاء للشرط في صدر الكلام من جهة التركيب النحويّ ، ولكنه من جهة المعنَى « بعركبش » محض ، إذْ لا مشاكلة بين المعنى الذي في الشرط ، والمعنى الذي في الجزاء ، كالذي يقول : « إذا كبّر الإمامُ مستقبل القبلة وكبّر المأمومون ، فليس لأحد أن يعبدَ غير الله » ! ! ولا هو كلام كما ترى ! وإذا أريدَ لهذه الجملة أن

تدخل في حيّز الحديث عن « الشعر المصنوع » ، فلا مفرّ من إسقاط جملة الشرط برُمّتها ، فتكونَ ختاماً للحديث عن « الشعر المصنوع » ونهياً عن قبوله ، أي تصير : « وليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي » ، فهي عندئذ لائقة بالحديث عنه ، غير مستنكرة فيه . ولكن أنّى لنا هذا !

وثالثة الغرائب : جملة تختم به هذه الفقرة التي جرى الحديث فيها خالصاً للشعر المصنوع ، وهي قوله : « وقد اختلفت العلماء بعدُ في بعض الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدٍ أن يخرج منه » ، فكان محالاً كذباً ، كما يقول سيبويه ، أن يكون لفظ « الشعر » فيها يرادُ به « الشعر المصنوع » ، وإلاّ صار اختلاف العلماء واتفاقهم هنا ضرباً مزيداً من تخاليط الموسوسين . ولكنها إذا فصلت عن السياق ، فهي في ذاتها صحيحة المعنى لا غبار عليها ، لا ، بل صادقة بيّنة الصدق ، لأن العلماء فيما نعلمه يقيناً قد اختلفوا في بعض ما عندهم ، واتفقوا على بعضٍ . ولما كان ذلك كذلك ، كانت محالاً كذباً في سياق ما قبلها ، فهي إذنْ جملة معترضة قائمة على حيالها ، نُزّلت في الكلام منزلاً لا يليقُ بها ، وهو تنزيل ، شئنا أو لم نشأ ، مُخِلٌّ متهوّرٌ .

وإذنْ فهذه فقرة فيها ثلاث جمل متتابعات آخذ بعضها برقاب بعض : الأولى أصْلٌ في الحديث عن « الشعر المصنوع » ، بلا ريب ، وفيها ثلاثة ضمائر راجعةٌ إليه — والثانية : فيها ضمير رابع هو شقيق الضمائر الثلاث الماضية ، وبذلك صارت من تمام الحديث عن « الشعر المصنوع » ، ولكنها عندئذٍ أيضاً خلفٌ من الكلام لا يستقيم ، وكلام أيضاً يعادي بعضه بعضاً — والثالثة : بيقين قاطع خارجة من سياق الحديث عن « الشعر المصنوع » . هل هذا ممكن ؟ هل هذا لائق ؟ هل هذا كلام ؟ والأمر لله من قبل ومن بعد ! !

* * *

وقعْنَا ، إذن ، في الذي يقول فيه مضرِّسُ بن رِبْعيٍّ الفقعسيّ :

دليلٍ يَقُول القومُ من ظُلُمَاتِه : سَوَاء بَصِيراتُ العُيُونِ وعُورُها

سواء بصيرات العيون وعورها ! لا حولَ ولا قوة إلاّ بالله . ما الذي أوقعنا في هذا التيه المتراكب الظلمات . إنهُ التحليل ! أليس كذلك ؟ ولكن لا ، ولا بُدَّ من بيانٍ نستطردُ به كما استطردَ أسلافنا رحمهم الله . فالتحليل ، في الكلام وفي غير الكلام ، أمر عسيرٌ يشقُّ على الناس ، ولا سيما في زماننا . لأنّه يبدأ بانتزاع شيء مجتمعٍ له صورة ومَعْنىً ، يجزّئه المحلل أجزاء دقيقة ، فيصير كل جزء منفرداً على حياله ، ثم ينظر فيه على حياله أيضاً ، ثم يبحث المحلل بعدُ عن الروابط التي يربط كُلَّ جزء بأخيه ، ثم عن الروابط الأخرى التي تجعله شيئاً مجتمعاً له صورة ومعنى . وهذا عناء عسرٌ بلا ريبٍ ، ولكنه في الحقيقة عناء لذيذٌ ، وعنتٌ مرغوبٌ فيه ، لأنه يفضي بنا إلى غايةٍ من الرضى والاطمئنان ، وإلى الثقة بوضوح الصورة ، وإلى التثبُّت من سَلامَة المعنى ، وإلى التحقُّق من براءة الروابط من كُلِّ عيبٍ يقدحُ في وُضوح الصورة ، وفي سلامة المعنى وانتظامه جُملَ الكلامِ من أوله إلى آخره . وقد نظنُّ أن تحليلنا هذا الموجز ، لم يفض بنا إلى شيء من ذلك ، بل زاد حيرتنا خبالاً . هذا ظاهرُ الأمر . نعم ، ولو لجأنا إلى ضروب أخرى من التحليل هي في طبيعتها أعنف وأغمض وأوغَل وأقسى لزاد الأمر عُسْراً وعنتاً فيما أظنُّ ، ولكنّي في الحقيقة مطمئنٌ إلى أنّ هذا التحليل الذي زاد حيرتنا ، هو الذي سوف يعيننا على التهدّي إلى مخرجٍ ينقذنا من هذا التيه ومن ظلماته ، وينقذ ابن سلامٍ أيضاً معنا ، لأنه كان هو قائدنا الذي قذف بنا في ظلماته . وإذا لم نصبر على التحليل في هذه الفقرة الثالثة ، فإن مصير المعاني التي ساقها ابن سلام في رسالة كتابه هذا ، سوف تكون أشدّ تهالكاً واضطراباً وتنافراً من هذه الفقرة ، التي قلت قبل إن غيابَها من طبعة الأعجمي يوسف هل كان ضارّاً بفهم كلام ابن سلام وبمقاصده ، وأن حضورَها في طبعتنا كان ضاراً أيضاً في فهم هذه المعاني والمقاصد . وسأنصرف الآن عن تمام التحليل المجرّد إلى طلب المخرجِ ، ولكن لا تظن أني سأفارق التحليلَ بتّةً واحدةً لا رجعة فيها ، فهذا ليس مذهبي ولا طريقي في المعرفة والعِلْم ، ولكني سأجتهد أن أنفي ما يُزْعج وما يشقُّ وما يجلبُ العنت ، بلا مفارقة قاطعة بيني وبين مذهبي وطريقي .

وأعودُ أدْراجي إلى المَطْلب الأول ، وهو كشف القِناع عن خامس الوُجوه الملثّمة في الفقرة الثالثة من كلام ابن سلام وهو « وجه الشعر » ، لأنه هو الذي ألجأنا باستطراده إلى شيء غريبٍ عجيبٍ ، وهو أن نعودَ بعد القرون المتتابعة منذ الجاهلية الأولى إلى يومنا هذا إلى محاولةٍ منكرَة في لفظ « الشعر » نلتمس بها تحديد معارف وجهه وملامحه وصورته عند ابن سَلاّمٍ .

ووجهُ « الشعر » عندنا نحنُ عربَ اليوم ، وعند أسْلافنا منذ دهورٌ متطاولةٍ ، ومنهم ابن سلام نفسه ، وجه معروفٌ لا يتنازع في تبيُّنِهِ أحدٌ . هذا أمرٌ مسلّمٌ به فيما أظنُّ . ولفظ « الشعر » في لسان العرب موضوع للدلالة على كل كلامٍ شريف المعنى ، نَبِيل المبنى ، محكم اللفظ ، يضبطُه إيقاعٌ متناسب الأجزاء ، وينتظِمُه نَغَم ظاهرٌ للسّمع مفرطُ الإحكام والدقة في تنزيل الألفاظ وجَرْسِ حروفها في مواضعها منه ، لينبَعِث من جميعها لَحْنٌ تتجاوبُ أصداؤه متحدِّرةً من ظاهِرِ لفظه ومن باطن معانيه ، وهذا اللحن المتكامِلُ هو الذي نسمّيه « القصيدة » ، وهذا اللحنُ المتكامل مقسّمٌ أيضاً تقسيماً متعانق الأطراف متناظِر الأوْصال ، تحدّدُه قوافٍ متشابهة البناء والألوان ، متناسبة المواقِيعِ متساوية الأزمان هذا هو « الشعر » . والذي يتوخّى هذا الضرب الشريف النبيل المحكم من الكلامِ ، ويأخذه بحقّه ، ويبْذلُه بحقه ، فتصغي إليه الأسماع والألباب مأخوذةً بسحره وجماله وجلالِه ، هو « الشاعر » . هذه هي بديهة اللغة ، وبديهة أصحاب اللسان العربيّ قديمه وحديثه ، في الأحقاب بعد الأحقابِ . والذي يسمع مثلاً ما رواهُ أبو عبدالله البخاريّ في صحيحه ، وأبو عبدالله أحمد بن حنبل في مسنده ، من حديث أُبي بن كعب الأنصاريّ ، سيّد قراء القرآن ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ من الشِعْر حكمةً » . لا يخالجه ارتيابٌ يدعوه إلى طلب حدٍّ أو رسمٍ أو تَصْنيف للفظ « الشعر » ولا يلتمسُ له بياناً سوى هذا البيان الحاضِر في كل نفسٍ عربيّة على بديهة اللغة ، وعلى البديهة التي توارثها أصحاب اللسان العربي من المحدثين والقدماء . فهل يرتاب في ذلك أحد ؟ أظنّ أنْ لا .

فإذا جاء أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحي . وقد عقد عزمه على أن يؤلِّف كتاباً في « الشعر » و « الشعراء » ورأى أن يعرض علينا منهجه في تأليف الكتاب ، لم يخالجنا شَكٌّ في معنى هذين اللفظين على ما في أنفسنا من بديهة اللغة . وإذا بدا لَهُ أن يبديَ لنا عُذْره الذي حمله على جعله كتاباً مختصراً غير مستوعب لشعر العرب وشعرائها جميعاً ، فنحن معه نتابعه على هذه البديهة العربية . فإذا ابتدأ كتابه برسالةٍ يذكُر فيها هذا العذر بكلام مُتّصِلٍ بلا استطرادٍ يجمع الفقرة الثانية من تقسيمنا نحن للكتاب ، إلى أختها التي لا يتمُّ الكلام إلاّ بها فقال : « ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها ، إذ كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب ، وكذلك فرسانُها وساداتُها وأيامُها ، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالمٌ ولا يستغني عن علمه ناظرٌ في أمر العرب فبدأنا بالشعر ، ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلامَ فنزّلنا منازلَهُم ، واحتججنا لكل شاعرٍ بما وجدنا له من حجّةٍ ، وما قال فيه العلماء . . . » ، ومضى على ذلك حتى يفرغ من كتابه كله ، فنحن معه بلا ريب على بديهة اللغة وبديهة أصحاب اللسان العربي وورثته ، لا يخامرنا شَكٌّ في أنه عنى بالشعر ، هذا الكلام الشريف النبيل المحكم الذي وصفناه ، وعنى بالشعراء ، هؤلاء العرب الذين أخذوا الشعر بحقّه وبذلوه بحقه . كما قلنا . ولم نحتج نحن إلى سؤالِه عن معناهما عنده ، ولا يرى هو حَاجةً إلى أن يبيِّن لنا بياناً آخر عنهما . أليس كذلك ؟ بلا ريب ، بلى ، وجيرِ ، أيضاً كما يقول امرؤ القيس .

ولكنّ ابن سلامٍ لم يفعل ذلك ، بل فعل ما أشقانا وأشقاه وأشقى كلامه ، وقف يستريح استراحةً لينفّس نفساً أو نفسين عند آخر قوله : « فبدأنا بالشّعر » ، وغابَ عنّا غَيْبَةً ، ثم إذا به يأتي من تلك الغيبة . منقضاً مسرعاً عجلاً ثائراً ، مخترماً حديثه عن « الشعر » ، مقتحماً بديهتنا التي كنّا معه عليها ، متهجِّماً على بديهة اللغة المتوارثة ، محدثاً فيها صدعاً جائراً بائناً وهو يقول : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوعٌ كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجّة في عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ،

ولا معنى يستخرجُ ولا مثلٌ يضربُ ، ولا مديحٌ رائعٌ ، ولا هجاء مقذعٌ ولا فخرٌ معجبٌ ، ولا نسيبٌ مستطرفٌ » ، ولولا أنه تعب ، فيما أظنُّ ، لما كفكفَ من انقضاضه وعجلته وسرعته وثورته شيئاً حتى يستقصي كُلَّ عيبٍ كائنٍ فيما يتحدث عنه . أيُّ شعر هذا الذي فيه ما فيه ممّا وصفَ بعدُ ؟ أهو الشعر الذي تعرفُه بديهة اللغة ، وبديهة أصحاب اللسانِ العربي ، وهو كل كلام شريف المعنى ، نبيل المبنى ، محكم اللفظ ، كما وصفناه آنفاً ، والذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر حكمة » ؟ بلا ريبٍ ، لا . أهو « الشعر » الذي عقد ابن سلام عزمه على أن يؤلف فيه كتاباً ، فحدثنا عنه إلى أن وقف عند قوله : « فبدأنا بالشعر ؟ » بلا ريبٍ ، لا ، أيضاً . فإذا كان ذلك صحيحاً ، وهو صحيح بلا ريب ، فما معنى هذا الذي اخترم به ابن سلام بديهة اللغة ، وصدعَ به هذه البديهة صدعاً بائناً بقوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل . . . » إلى آخرِ ما قال ؟

وفي بعضِ الأناةِ خير إن شاء الله . هذا « الشيء » الذي سلبه ابن سلاّم كُلَّ فضيلة فقال : « هو مصنوع مفتعل موضوع لا خيرَ في عربية ، ولا أدب ستفادُ ، ولا معنى يستخرجَ ، ولا مثل يضربُ ، ولا مديحٌ رائعَ ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر مُعْجب ، ولا نسيبٌ مستطرف » ، ولولا التعبُ لزادَ وبالغَ ، أهذا « الشيء » الذي سلبه كل فضيلة وهو كلامٌ بلا ريب ، ممكنٌ أن يدخُلَ في الكلام الشريف النبيل المحكم ، الذي تُلْتمس في بعضه الحكمة ، والذي هو « الشعر » على بديهة العرب وبديهة لغتهم ، ويكون جزءاً منه أو معدوداً فيه أو مسمّى باسمه ؟ أظنُّه محالاً مفرط الاستحالة . وأنا لا أحبُّ أن استقصي هنا الأسئلة ، وأعودَ محلّلاً موغلاً في التحليل مرةً أخرى ، فمن أجل ذلك أوجزُ مقالّتي ما استطعت . وأنا لا أشكُّ أن ابن سلام لما جاء مقتحماً متهجّماً على بديهة لفظ « الشعر » ، كاد يفلتُ لسانه فيقول : « وفي الشعر ، « شعر » مصنوع مفتعَلٌ موضوع . . . » ولكنه أمسك وردّ هذا اللفظ ، مستنكِفاً متقذّراً ، من تسمية هذا الكلام المسلوب كُلَّ فضيلة « شعراً » ، فقال : « وفي الشعر ، مصنوع مفتعل موضوع » ، لأنّه أبَى من أن يجعل هذا الشيء المتقذّر قسيماً للفظ « الشعر » الشريف النبيل المحكم ، أو نظيراً له ،

أو بعضاً منه . وعجِل ، فلم يغيّر ما ابتدأ به ، وأفاض في سلب الفضائل عمّا تقذّره من الكلام .

والدليل على هذا الذي أقول قائمٌ حاضر في كلام ابن سلام نفسه فيما بعد ذلك بقليل ، ومأخوذ عنه . فإنه لما فرغَ من هذه الفقرة الثالثة ، وعقّب عليها بحديث يتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً ، بدأ في الفقرة السابعة يدلنا عن أسباب ثورته وعجلته ، فقال ، وتأنَّ عند كُلِّ لفظ من قوله : « وكان ممّنَ أفسد الشِّعر وهجّنَه و ، حمّلَ كُلَّ غُثَاء منه : محمد بن إسحق بن يسار مولى آل مخرمة . . . وكان من علماء الناس بالسير — قال الزهري : لا يزالُ في الناس علمٌ ما بقى مولى آل مخرمة . وكان أكثر علمه بالمغازي والسير وغير ذلك ، فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أتينا به فاحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب في السير أشعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعراً قطّ ، وأشعار النساء فضْلاً عن الرجالِ ، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة . وليس بشعر ، إنما هو كلامٌ مؤلّفٌ معقود بقوافٍ » . هذه واحدةٌ .

ثم إنه قال في آخر الفقرة الثانية عشرة ، بعد أن فرغ من استطراده فقال : « ونحن لا نجد لأوّلية العرب المعروفين شِعْراً ، فكيف بعادٍ وثمودٍ ؟ فهذا الكلام الواهنُ الخبيثُ ، ولم يروِ قطُّ عربيٌّ منها بيتاً واحداً ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته ، هذه ثانية .

ثم عقب على ذلك بالفقرة الثالثة عشرة التي ختم بها هذا الجزء من استطراده المقتحم ، ما بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، فقال الجملة المشهورة التي زلَّ عليها من زلَّ من المشككين في الشعر الجاهلي وهي قوله : « وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك : ما لسان حميرَ وأقاصي اليمن اليوم ، بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيّتنا ، فكيف بما على عهد عادٍ وثمود ، مع تداعيه ووهْيه . فلو كانَ الشِّعر مثلَ ما وُضِع لابن إسحق ، ومثلَ ما روى الصُحُفيُّون ، ما كانت إليه حاجةٌ ، ولا فيه دليلٌ على عِلْم » . هذه ثالثة .

ثم لما فرغ ابن سلام من استطراده بعد الفقرة الثلاثين ، دخل في تتمة عرض كتابه منذ الفقرة الحادية والثلاثين ، ذكر دليله على ذهاب شعر الجاهلية وسقوطه (أي ضياعه ونسيانه فسقط من ذاكرة العرب) فقال في الفقرة الرابعة والثلاثين : « ومما يدُل على ذهاب الشعر وسُقُوطه ، قلةُ ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعَبيدٍ ، اللذين صحَّ لهما قصائدُ بقدرِ عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهُنَّ ، فليس موضعهما حيثُ وُضِعا من الشهرة والتّقدِمة . وإن كان ما يُرْوَى من الغُثَاء لهما ، فلا يستحقّان مكانهما على أفواهِ الرواة » . فهذه رابعة .

وهذه الأربعة فيها تمامُ نعت « الشيء » الذي تقذَّرت بديهته العربية أن تسميّة شعراً » . فأسقط الموصوف من عبارته واستبقى الصفة ، فقال : « وفي الشعر ، مصنوعٌ مفتعل موضوع كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حجّةَ في عربية ، ولا أدبٌ يستفادُ ، . . . » إلى آخر النعوت التي سلبته وعرّتْه من كُلِّ فضيلة حتى بدت سوأتُه . وتمامُ هذه النُّعوت المعرِّية ، أنه « الغثاء » و « الكلام الواهنُ الخبيثُ » « مع ضعف أسره وقلّة طُلاوته » ، و « مع تداعيه ووَهْيه » ، « لم يروِ قطُّ عربيٌّ منه بيتاً واحداً ولا راوية للشعر » ، و « لو كان الشعر مثلَ هذا الذي وُضِع لابن اسحق ، ومثلَ ما رُوَى الصحفيُّون ، ما كانت إليه حاجة ، ولا فيه دليل على علمٍ » ، ثم نَفَاهُ نفياً منْ طريقه فقال : « وهو ليس بشعرٍ ، إنما هو كلامٌ مؤلّفٌ معقودٌ بقوافٍ » .

وإذن ، فابن سلاّم يستنكف أن يكون هذا الكلام الواهن الخبيث المصنوع المفتعل ضريعاً للشعر ، أو قسيماً له يشاركُه في الاسم ، أو نظيراً له وإن باينه في الصفة ، أو جزءاً منه يفارقُه في الجودة أو الرداءة ، أو معدوداً مَعَه يقع تحت الطرف البعيد من أقاصي ظِلّه ، فنفاهُ نفياً ، ولم يُطِق إلاَّ أن يسمّيه ، لخبثه وَوَهْيه ووهنه ، « كلاماً مؤلفاً » قد عقُِدت أواخره بقافية ! وحين احتاج إلى الإشارة إليه في سائر كلامه ، وفي أكثر من عشر مواضع ، لجأ إلى الحيلة في العبارة عنه ، تقزُّزاً من أن يختلط هذا الغثاء الخبيث ، بالكلام الشريف النبيل المحكم ، معدنِ الحكمة ، وهو « الشعر » فهجر هذا اللفظ المفرد ، ولجأ إلى الجمع وهو

« الأشعار » ، فأطلقه عليه حيث وقع من كلامه ، لأنّ اللغة استعصت عليه أن يجد له فيها وسماً يسمُهُ به ، أو لفظاً يدلُّ عليه ، ولإنّ هذا الغثاء الخبيثَ مطروحٌ على وزن الشعر معقودٌ بمثل قوافيه ، ولأنّ بعضه ينسب إلى من تعرف من الشعراء ، أو إلى ناسٍ تكذّبَ واضعوه عليهم فأقحموهم مع الشعراء ، فأشار إليه بقوله « الأشعار » ، ولكنه ليس من « الشعر » المعروف في بديهة اللغة اللغة في شيء لا قليل ولا كثير .

وإذنْ ، فابن سلاّمٍ حين انتهى عند قوله : « فبدأنا بالشعر » وسكت يستريحُ ، ثم جاء بغتةً منقضّاً ثائراً متقحمّاً عجلاً مندفعاً يقول : « وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه » ، قد اخترم بديهة اللغة ، وبديهة سامعيه ، وبديهة نفسه هو ، وصدع البديهة صدعاً بائناً جائراً ، وكان في عجلته وتسرُّعه الزَّلَل والخطأ في التعبير . وصارَ ظاهرُ لفظِه الذي سبق به لسانُه أناتَهُ وفِكْرَه ، يُوهِم من قريبٍ أن الكلام الشريفَ النبيلَ معدِنَ الحكمة ، الذي تتفجّر ينابيعه على ألسنة الشعراء عبيد « الشعر » ، وذلك الغثاء الخبيث الواهن المؤلف المطروح على عقد القوافي ، والذي لا يعرف لَهُ أبٌ ولا صاحبٌ ــ كلاهما يقع عليه لفظ « الشعر » المعروف ببديهة اللغة وقوعاً واحداً وأن هذا الخبيث قسم ذلك الشريف في دلالة اللفظ !

ومنْ جرّاء هذا الإيهام القريب الظاهر قلت في فاتحة تحليلي السالف : « إنّ أيسر النظر والتأمُّل ، دالٌ على أن في أيدينا قسمةً واضحةً ، تجعل الشعر قسمين : أحدهما ظاهر في صريح لفظه ، وهو الشعر المصنوع المفتعل الموضوع ، وآخر محدثٌ مضمرٌ يخرج بدلالة المخالفة ، وهو الشعر غير المصنوع » . واستغفر الله وأتوب إليه ، فقد تبيّن الآن أن هذا قولٌ باطل أشد البطلان عندنا وعند ابن سلام نفسه ــ وأن الذي في أيدينا إنما هو وهمٌ فاسدٌ ، وأن ليس في أيدينا قسمةٌ واضحة أو غير واضحة ــ وأنْ ليس في أيدينا ظاهرٌ يقال له « شعر مصنوع » بل غثاء خبيث معقوف بقواف ــ وأن ليس في أيدينا مُضْمرٌ يخرج بدلالة المخالفة يقال له « شعر غير مصنوع » ، لأن لفظ (شعر) جارٍ أبداً على بديهة اللغة وبديهة ورثتها ، لا يحتاج

إلى صفة تُبين عنه ، أو نعت يميزه من غيره ، وإذن فقد بطلت القسمة ، وهلك التقسيم الفاسد ، وبقي لفظ (الشعر) في قول ابن سلام : (وفي الشعر مصنوع) جارياً على بديهته ونقائه وشرفه ونبله ، مُبرّأ من كل حاجة إلى بيان يرفع من خسيسته ، لأنه بائن من كلّ كلام بشرفه ونبالته . وآخر عذر لأبي عبدالله محمد بن سلام الجمحي أنه عجّل ، فزلّ ، فأخطأ ، فأضلّنا خطؤه عن مراده ، ولكن هل من سبيل إلى معرفة السرِّ الذي قاده إلى هذا الزلل ، وإلى تبيُّن الصواب الذي ينفي هذا الخطأ ، وإلى المخرج من التيه المتراكب الظلمات ، الذي أوقعتنا فيه هذه الفقرة المحيرة في فاتحة رسالة كتاب « طبقات فحول الشعراء » ؟ . فأقول : نعم ! ونُعامَى عين .

* * *

ويبدو أن الحيرة التي رافقتنا بما أحدثته الفقرة الثالثة ، فعالجت أمرها حتى كدتُ أفْلتُ منها ولمّا ، عادت تحاصرني الآن بأسباب من قِبَل نفسي ! بأيِّهما أبدأ : أبالبحث عن سِرِّ ما أوقع ابن سلام في الزلَل ، أم بتبيُّن الخطأ في عبارته ، وتصحيح سياقها ؟ وسياقُ ما كُنّا فيه آنفاً يتطلّب أن أبدأ بثانيهما ، ليكون سياقاً واحداً ، بعد أن ثبتَ أنه محالٌ أن يكون بناء الفقرة الثالثة مقصوراً على الغثاء المصنوع المفتعل الموضوع وحده ، وأشدُّ منه استحالةً أن يكون لفظُ « الشعر » في عبارة ابن سلاّمٍ واقعاً على هذا الغثاء مشتملاً عليه فيكون بعضاً منه ، أو داخلاً في بديهته . ولكنّي تأمّلتُ ، وجدت أن مافي صوري في الحديث إذا أنا تابعت السياق مضطرب غيرُ قابل للبيان، أو على الأصح وجدتني محبوساً عن هذا البيان . وأنا كثير الترداد لما قرأته قديماً من كلمة لإمامنا محمد بن إدريس الشافعي ، بلغ بها أقصى غوامض النفس الإنسانيّة التي علّمها الله البيانَ بقدرته وعزّته ، وفوّض إليها الجهاد في بلوغ ما تريدُ منه . وذلك أن الإمام يونس بن عبد الأعلى الصدفيّ المصري ، وهو من أصحاب الشافعيّ ، وكان ركناً من أركان الإسلام في زمانه (١٧٠–٢٦٤هـ) سأل الشافعيّ يوماً عن مسألة ، فقال له : « يا يونس ، إنّي لأجدُ بيانها في قلبي ، ولكن لا ينطلِقُ به لساني » . ما أروعَها كلمة ! وكل ناطق بلسان أو كاتبٍ بقلم ، يجد

ذلك في نفسه وجداناً ظاهراً ، إذا أخذ البيانَ بحقّه ، وحَرَص على إجادته . وأنا أجد هذا في نفسي الآن ، وأنا أحاولُ أن أسوق الحديث على وجهه من التعانق والتواصل ، وأجدهُ عسيراً أن أبين من جميعٍ ما فيها ، لأن بعض هذا الحديث يخلجُني ويشدُّني شدّاً إلى الحديث عن سِرٍّ ما أوقع ابن سلام في الزلل ، لأنهما في الحقيقة مترابطان . فجعلْت أميِّل الرأيَ بين الأمرين حائراً حتى كاد يضيع وقتي في الحيرة . وبعد لأيٍ عزمتُ على أن أبدأ بأولهما كما وقع اتفاقاً في ترتيب الأسئلة ، مهما يكن في ذلك من انقطاع حديثي عن الفقرة الثالثة .

وُلِد أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحيّ بالبصرة سنة ١٣٩ ، وقضى بها أكثر عُمره ، ثم بدا له فانتقل إلى بغدادَ سنة ٢٢٢ ، وهو في الثانية والثمانين من عمره وأقام بها حتّى توفي في سنة ٢٣١ ، وقد بلغ الثانية والتسعين . وقد بلغ ابن سلامٍ مرتبة الإمامة في علم الشعر والأخبار ، حتّى قال الريّاشيّ عنه : « أحاديث محمد سلام عندنا (يعني عند أهل العلم والرواية الصحيحة) مثل حديث أيوب ، عن محمد ، عن أبي هريرة » ، يعني حديث أيوب بن أبي تميمة السختياني ، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في الصحة والسلامة والقوة . ومع ذلك لم يقع في أيدينا من كتب ابن سلام سوى كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، وقد دلت رسالة هذا الكتابِ الذي أفرده للشعر ، على أنّه سوف يتبعه بكتاب أو كتب عن « أشراف العرب وساداتها وفرسانها وأيامها » . وفي فهرس النديم أن له كتاباً سماهُ « بيوتات العرب » . لم يصل إلينا منه شيء ، وظنّي أنه كتابٌ عن « أشراف العرب وساداتها وما لهم من شعر » . ودلّنا أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني على كتاب آخر هو كتاب « الفرسان » أو « فرسان الشعراء » ، لم يصل إلينا أيضاً ، ولكنه كان عند أبي الفرج ، تلقّاهُ مكتوباً من أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحيّ » ابن أخت ابن سلامٍ . وظاهر كلام ابن سلام في رسالة الطبقات ، أنه ألف كتاب « الفرسان » ، وكتاب « بيوتات العرب » ، بعد تأليفه كتاب الطبقات . فمتى ألّفَ هذه الكتب الثلاثة ، وأولهنّ خاصةً ؟

وترجمة ابن سلام في كتب تراجم الرجال والعلماء والأدباء ، مختصرة موجزةٌ

لا تكاد تشفى ، وقلّما يذكر مؤلفوها زمان تأليفِ العلماء كتبهم ، فنحن نعتمد في ذلك على الاستظهار لا غير . وأنا في خلال تتبُّعي للكتب التي ألتمس فيها نقلاً من كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، لم أجد خبراً عن ابن سلام يطابقُ نصه نصَّ ما في كتاب « الطبقات » ، إلا وهو مرويٌّ من طريق ابن أخته الحافظ مسند عصره أبي خليفة الفضل بن الحُباب الجمحي . فاستظهرتُ من ذلك أن ابن سلامٍ لم يقرأ كتابَه على أحدَ ، ولم يروه عنه سماعاً وحفظاً سوى ابي خليفة الجمحي ، وكان ضريراً ذاهبَ البصر . واستظهرتُ أيضاً أن كتاب الطبقات وكتاب الفرسان . وكتاب بيوتات العرب ، لم يذع أمرها في حياة ابن سلام ، ولم تكنْ عند أحدٍ منها نسخة . واستظهرتُ أيضاً أن كتاب الطبقات ، كان عند أهلِه ببغدادَ عند وفاته سنة ٢٣١ ، ثم آلت إلى أبي خليفة ونقلت إلى البصرة بعد زمانٍ من وفاته ، وأنّ أبا خليفة لم يخرجْ كتب خاله إلى الناس إلا بعد دهر طويلٍ ، فقرأها عليهم وأخذوها عنه .

ودليل ذلك أن عندنا اليوم نسختين عتيقتين من كتاب « طبقات فحول الشعراء » أقدمهنّ نسختي التي نشرتها ، والأخرى نسخة المدينة شرّفها الله وصلى الله على صاحبها صلاةً طيبةً وسلّم ، وهي على النِّصف من نسختي ، لأن صاحبها اختصرها اختصاراً شديداً . ولهاتين النسختين ثلاثة أسانيد عن أبي خليفة : إسنادان في نسختي ، واسناد في نسخة المدينة .

والإسناد الأول : رواية أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أحمد بن أسيدٍ الأصفهاني (المتوفي سنة ٣٣٦) عن القاضي أبي خليفة الجمحيّ . وأبو خليفة ولي قضاء البصرة في سنة ٢٩٣ . وابن أسيد الذي سمعها منه ، رحل من أصفهان إلى بغداد ، ومرَّ في رحلته بالبصرة ، فسمع من أبي خليفة ، وذلك قبيل وفاة أبي خليفة سنة ٣٠٥ ، فبين هذين التاريخين قرأ على القاضي كتاب الطبقات . (٢٩٣ــ٣٠٥) على أكثر تقدير .

والإسناد الثاني : رواية أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٢٦٠ — وتوفي سنة ٣٦٠) عن القاضي أبي خليفة أيضاً ، والطبرانيُّ نزل أصفهان واستوطنها

ستين سنة إلى أن توفي ، وذلك في سنة ٣٠٠ . وإذن ، فهو قد قرأها على القاضي أبي خليفة ما بين سنة ٢٩٣ وسنة ٣٠٠ .

والإسناد الثالث : رواية أبي طاهر محمد بن أحمد بن عبدالله بن نصر بن بجير الذهلي ، عن أبي خليفة . وأبو طاهر ولد سنة ٢٧٩ وتوفيّ سنة ٣٦٧ بمصر ، وانتقل إلى بغداد خلال ذلك وولي قضاء سنة ٣٢٩ . وظاهر من تأخر ميلاده إلى سنة ٢٧٩ ، يدلُّ على أنه قرأ على أبي خليفة هو أيضاً قبل سنة ٣٠٠ بقليل ، أي في نفس الوقت الذي قرأها على الناس أبو خليفة ، وسمعها منه ابن أسيد والطبرانيُّ .

وفُقدانُنا روايةً عن كتاب الطبقات أو نقلاً عنه ، إلاّ عن طريق أبي خليفة وحده ، ودلالة الأسانيد الثلاثة السالفة الدالة على أن القاضي أبا خليفة قرأ الكتاب على الناس بالبصرة ما بين سنة ٢٩٥ وسنة ٣٠٠ ، يوقفنا على مثل اليقين بأن كتب ابن سلام الثلاثة ، وكتاب الطبقات خاصة ، لم يذع ذكرُه في الناسِ إلا بعد وفاة ابن سلام سنة ٢٣١ ، بأكثر من خمس وستين سنة . ويزيدني ثقةً بهذا الاستظهار أن أبَا الفرج الأصفهاني المولود بأصبهان سنة ٢٨٤ (وتوفي سنة ٣٥٦) والذي نشأ فيها ، ثم هاجر بعد إلى بغداد سمع بكتب ابن سلامٍ ، فأرسل إلى القاضي أبي خليفة يستجيزُه ويسأله أن يرسلَ إليه نسخة من كُلِّ كتابٍ من كتب ابن سلام ، فكتب إليه بها وأجازَهُ ، كما هو ظاهر من أسانيده في كتاب الأغاني إلى كتاب الطبقات ، التي جمعتها في مقدمة الكتاب . وشبه باليقين أن يكون ذلك كانَ ، وأبو الفرج بأصبهان في حدود السادسة عشرة من عمره سنة ٣٠٠ أيضاً ، أي قبل أن يعودَ ابن أسيد إلى أصبهان بعد وفاة والده سنة ٣١٠هـ ، وقبل أن يستوطن الطبراني أصبهان في سنة ٣٠٠هـ . وإلا لكان في غنىً عن الكتابة إلى أبي خليفة يستجيزه ، أو لأخذ الكتاب عن أحدهما ، بلا مؤونة عليه في ذلك .

وأنا أظنُّ ظناً ، أن أبا خليفة كان قد لحق بخاله حين رحل إلى بغداد سنة ٢٢٢ ، وبقي معه قليلاً وهو يؤلف هذه الكتب ، وقرأها عليه ، ثم رحل عنها بعد وفاته ٢٣١ ، وشغِل بطلب العلم وروايته ، ثم عاد إلى البصرة لا يحمل معه شيئاً من

الكتب ، إلاّ ما حفظ ، لأنه كان ضريراً كما قلت ، ولكني لا أحقق هذا الظن ، لأسباب كثيرة . وبقيت كتب ابن سلام خالِه عند أهله ببغداد ، ثم مضى دهرٌ طويلٌ جداً ، فنقلت هذه الكتب إلى البصرةِ بعد ولاية أبي خليفة القضاء سنة ٢٩٣ ، وعندئذ قعد أبو خليفة للإقراء ، وأجلس قارئاً يقرأ كتب ابن سلام ، ولذلك جاء في إسناد ابن أسيد والطبراني كليهما : « قرىء على القاضي أبي خليفة ، وأنا أسمعُ » ، فهذا أوّل ذيوع خبر كتاب « طبقات فحول الشعراء » وغيره من كتب ابن سلام ما بين سنة ٢٩٥ ، إلى سنة ٣٠٠ ، حين نقلت كتبه من بغداد إلى البصرة ، والله أعلم ولكني أستظهر .

أما متى ألّفَ ابن سلام كتبه هذه ؟ فنحن على يقين أنه لم يؤلفها في صَدْر حياته ، ولا في أوسطها . ولكنه ألّفها بأخرة . ودليلُ ذلك أنّ أبا الطيب علي بن عبد الواحد الحلبي اللغوي (المتوفي ٣٥١) حدثنا في كتابه « مراتب النحويين » عن الحسين بن صالح ، عن أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحيّ قال : كان الرِّياشي (وهو العباس بن الفرج ، المتوفي سنة ٢٥٧) يختلف إلى أبي عبدالله (يعني ابن سلام) ، ليستعير منه كتابه في الطبقاتِ ، فكنت أخرج له منه جزءاً جزءاً . فقيل للرياشي في ذلك فقال : لو عاشَ يومين لسمعته منه » . والرياشيُّ بصريٌّ ، وابن سلام بَصْري رحل عن البصرة سنة ٢٢٢هـ ، إلى بغداد ، وكانت وفاتُه بها — فلو كان ابن سلام ألف هذا الكتاب وإخوتَه ، وهو بالبصرة ، لعرف ذلك الرياشيّ ، ولم يؤجل ذلك إلى أن يصيرَ ابن سلام في بغداد سنة ٢٣١ ، فيزوره ليأخذه منه « جزءاً جزءاً » . ونستظهر من هذا الخبر أيضاً أن ابن سلام كان قد فرغَ قبل قليل جداً من وفاته ، من تأليف هذه الكتب ، وأنه كان قد عزم على إقرائها للناس ، ولكن المنية فاتتهم به ، فلم يسمعوا منه شيئاً ، ولم يسمعها منه سوى ابن أخته أبي خليفة وحده ، لأنه كان يومئذ معه ببغداد .

وبين أيدينا خبرٌ آخر يدلُّ على أن ابن سلامٍ كان في آخر حياته ، قد أهمّه أمرُ شعر العرب وشعرائها وأخبارها وأنّه رأى أنّه قد قضى عُمُرُهُ كُلّه في السماع من العلماء على اختلاف علومهم ، من نحو ولغة وشعر وحديث وأخبار ، حتّى

بلغ إمامة العلم في بعض ذلك ، وأخذ الناس عنه فأكثروا وأكثروا ، حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره ، وبدا لَهُ أن يرحَل إلى بغداد ، كما رحل كثير من علماء البصرة ، فيحدثنا الخطيب البغدادي ، عن الحسين بن فهم ، (وهو صاحب محمد بن سعد كاتب الواقدي ، صاحب الطبقات الكبير) (وولد الحسين بن فهم سنة ٢١١ ، وتوفي سنة ٢٨٩ ، وهو أيضاً أحد أصحاب ابن سلام والرواة عنه) ، فيقول الحسين بن فهم : « قدم علينا (أي قدم عليهم ببغداد سنة اثنتين وعشرين ومئتين ، فاعتَل علةً شديدةً ، فما تخلّف عنه أحدٌ ، وأهدى إليه الأجلاء أطباءهم ، وكان ابن ماسَوَيْه الطبيب ممّن أهدى إليه (يوحنا بن ماسويه طبيب الخلفاء ، وكان يومئذ طبيب المعتصم ، توفي سنة ٢٤٣) ، فلما جسّهُ ونظر إليه قال : ما أرى من العلّة — كما أرى من الجزع ! ! فقال ابن سلام : والله ما ذاك لحرصٍ على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة ، ولكنّ الإنسان في غَفْلَةٍ حتى يُوقظَ بعلّةٍ . ولو وقفت بعرفاتٍ وقفة ، وزرتُ قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم زورةً ، وقَضَيتُ أشياء في نَفْسِي ، لرأيتَ ما اشتدَّ عليَّ من هذا قد سَهُل . فقال له ابن ماسويه : فلا تجزع ، فقد رأيتُ في عِرْقك من الحرارة الغريزيّة وقُوّتِها ، ما إن سلّمك الله من العوارض ، بلغك عشر سنين أخرى — قال الحسين بن فهم : فوافق كلامُه قدَراً : فعاش محمد بن سلام عشر سنين بعد ذلك ، مات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين».

فقول ابن سلام رحمه الله : « ولكن الإنسان في غفلةٍ حتى يُوقَظُ بعلة » ، وقوله : « لو وقفت بعرفات وقفة ، وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم زورةً ، وقضيت أشياء في نفسي ، لرأيتَ ما اشتَدَّ عليَّ من هذا قد سَهُل » ، يدلُّ على أنّ هذه العلة الشديدة قد أهبّتْهُ من غفلة عن أشياء كانت في نفسه ، وتمنّى أن يكتب اللهُ له لو أن يقف حيث يُستَجاب الدعاء ، فيسأل ربّه أن ييسّر الله قضاءها والفُرُوغَ منها وتقرُّ عينُه ، فلا يأخذُه من أمر هذه الدنيا جزَع . وأكبر ظنّي أن هذه الأشياء التي كان يتمنّى قضاءها هي تأليف كُتُب جامعة ، كان يحبُّ أن يتعجّل كتابتها ، بعد أن قضى أثنتين وثمانين سنة لم يؤلفْ كتاباً ، ولا ببقى من علمه عند الناس إلاّ الشيء بعد الشيء من الأحاديث التي أثرت عنه

والأخبار سماعاً ورواية . والكتابة قيد العلم ووعاؤه . فلمّا أبَلّ من علته قليلاً أجمع رأيَه أن يعدّ منهجه لكتبه التي كان يحبُّ أن يؤلفها ، بعد دهر طويلٍ جدّاً من انتيابِ خواطر تُلِمُّ به ساعات ثم تذهبُ غير محقّقةٍ ولا مثبتةٍ في كتابٍ . ففي المدّة التي قضاها بين سنة ٢٢٢هـ وسنة ٢٣١ ، بدأ كتابه في الشعر ، وهو كتاب الطبقات ، ثم كتاب شعراء الفرسان ، ثم كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوا من شعر ، ثم كتاب أيام العرب ، وغير ذلك مما وصل إلينا خبرٌ عنه أو لم يصل . ثم اخترمتهُ المنيّة هو وأخوه المحدّث المشهور « عبد الرحمن بن سلاّم الجمحيّ » سنة ٢٣١ ، وبقي كُلّ ما كتبه من كتبٍ عند أهله ببغداد ، حتى رحلوا إلى البصرة عائدين ، أو حتى حملوها إلى ابن أخته أبي خليفة قاضي البصرة ، فآلت إليه وصارت في حوزته ، فيما أرجح ، بعد توليه قضاء البصرة في سنة ٢٩٣ . والله أعلم أيّ ذلك كان ؟ وعرفها النّاس من يومئذٍ .

* * *

بَقِي أبو عبدالله محمد بن سلام الجمحي بالبصرة ، عُمُراً طويلاً حتى بلغ الثمانية والثمانين من عمره ، وصارت إليه إمامة الأدب والرواية والعلم بالشعر وأخبار العرب ، إلى فنون أخرى كان يُحْسِنها ويَرْويها ويأخذها الناسُ عنه ، أجيالاً بعد أجيال من العلماء والأدباء ، لأنه كان من قدماء أهل العلم والرواية ، وطارت شهرتُه في الآفاق ، ثم بدا له أن يرحل من البصرة إلى بغداد ، كما رحل كثيرٌ من علماء البصرة من قبله ، فرحل في سنة ٢٢٢ هـ ، فلمّا نزل بغداد لقي الحفاوة كُلَّها من الخليفة المعتصم ، ومن علماء الناسِ صغيرهم وكبيرهم ، ومن الأشراف والسادات ، وقصَده طُلاّب العلم والرواية في كُلّ فنٍّ ، وداروا به وسألوه وسمعوا منه . ولقد ألفَ ابن سلام الشيخُ مثل هذه الحفاوةِ وهو بدار نشأته في البصرة ، أما في بغداد ، وهو حديث عَهْدٍ ، باغترابٍ عن وطنه ودار نشأته ، فإن هذه الحفاوة قد هزّته وأسْعَدَتْه وأشعرتْ قلبه لذّة الفَرَح بما لَقِي من إكرامٍ وإلطافٍ ، ولما يَكَدْ حتى بَطَشَتْ به علةٌ شديدةٌ شرّدت ما وجده في نفسه من السعادة بهذه الحفاوة، وجزعَ من حوله من أهله ومن طلبة العلم مخافة

عليه لعلوّ سنه ، وجزعَ هو ، ورأى أن ما انفسَح له من الأمَلِ الذي أمَّله بالرّحلة إلى بغداد، دار العلم يومئذ ، قد ضاقَ ، فلمّا مضَتْ عنه شدة العلّة واطمأن قلبُه قليلاً ، وعاده أهل العلم والرواية يحفُّون به ويسألونه ، وعاوده أملٌ تقادَمَ عهدُه أن يؤلِّف للناس كتباً تبقى في أيديهم من بعده . وأوّل كتاب « طبقات فحول الشعراء » ، دالٌّ على أن الذي وصفت ، أو قريباً منه ، قد كان كما وصفتُ ، فإنه بدأ الكتابَ هكذا : « ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها . . . » ، فكأن أهل العلم يومئذ قد ذاكروه وذاكرهم ، ولعلّه أفضى إليهم بما في نفسه كما قال في حديثه مع ابن ماسويه الطبيب « وقضيت أشياء في نفسي » ، يعني تأليف كتب تبقى في أيدي الناس ، فسأله أصحابه من أهل العلم أن يفعلَ ، فاستجابَ لهُمْ . وكانت العلة الموقظة بعدَ الثانية والثمانين ، حافزاً له علىَّ العجلة في قضاء ما في نفسه ، وفي الوفاء بما وَعَد . ولكن يظهر أن العلّة قد تراخت به تنتابه زمناً بعد زمنٍ ، توشك أن تقطعَه عن قضاء ذلك ، وبدأ يكتب كتبه بأخَرةٍ ، وهو يسابقُ الأيام مخافةَ أن تسبقه ، غير مُغْتَرٍ بمقالة ابن ماسويه الطبيب : « قد رأيتُ في عرقلك من الحرارة الغريزية وقُوَّتها ، ما إن سلّمك الله من العوارض ، بلّغك عشر سنين أخرى ، وكيف يغترُّ ، وأخواتُ الثمانين أشدُّ إيقاظاً من الغفلة من بطش هذه العلة ؟ ولكن يظهر أن العلة كانت تنتابُه وتقطعُه ، فلم يستطع أن يفرغَ من تأليف كتبه ، إلاّ وقد دنا الأجلُ من وراء الحجب يشقُّها إليه ، ففرغَ ولما يكد ، ولما دلنا على ذلك خبر أبي خليفة عن الرياشيِّ حيث قال : « لو عاش يومين لسمعتُه منه » ، يعني كتاب الطبقات ، كما سلف .

وهذه العجلة التي استظهرتها ووصفتُها بيِّنَةٌ في مواضع من كتابه « طبقات فحول الشعراء » التي سلمت وبقيت بين أيدينا من كتبه، فقد وجدتُ فيه أشياء قد سقطت عَنْه أو منه ، وهو في هذه العجلة من أمره ، وأنه في هذه العجلة من أمره زاد أشياء لا ذكر لها في عرض كتابه ومثال ذلك : أن ابنَ سلاّم في رسالة كتابه قال : « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً ، فألفنا من تشابه

شعرهُ منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهطٍ كلٌّ طبقة متكافئين معتدلين » ، يعني عشر طبقات من أهل الجاهلية ، وعشر طبقاتٍ من أهل الإسلام . فهؤلاء ثمانُون شاعراً . هذا ما قصده ابن سلام حين بدأ كتابَه ، ولكنه لم يَكَدْ يفرُغ من أمر شعراء الجاهلية ، حتى بدا له أن يقحم بين الأربعين من شعراء الجاهلية ، والأربعين من شعراء الإسلام ، طبقات أخرى لم يذكرها في عرض كتابه . كما حدّده حين بدأ تأليف كتابه فقال في آخر طبقات الجاهلية : « انقضي خبر الطبقات العشر » . وكان حق ما حدّده أن يقول بعده :

« طبقات الإسلام ! كُلٌّ طبقة أربعة رهط متكافئين معتدلين ـــ الطبقة الأولى » . كما هو نص عنوانه في أوّل طبقات الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك . فإنه حين فرغ من الجاهلية فقال : « انقضى خبر الطبقات العشر » ، اخترم سياق كتابه كما عرضه فابتدأ قائلاً :

« وصيّرنا أصحاب المراثي طبقةً بعد العشر الطبقات » .

فأتى بجديد ، ثم مضى غير مبالٍ باقتحام هذا الموضع فيما حدّده في أول كتابه ، فابتدأ في ذكر « شعراء القرى العربية » . فذكر شعراء المدينة ، ثم شعراء مكة ، ثم شعراء الطائف ، ثم شعراء البحرين ، ثم شعراء يهود ، وانتهى هذا الاقتحام وبدأ في تمام ما كان حدّده في رسالة كتابه . وهذا في ترقيم نسختنا من رقم : ٢٦٧ إلى آخر رقم : ٣٨٦ (ص ٢٠٣–٢٩٦) ، وهو استطرادٌ طويل كما ترى ، وسار فيه على غير نهجه في جعل كلّ طبقة أربعة شعراء ، فجعل « طبقة أصحاب المراثي» ، أُربعة ، وشعراء المدينة خمسة ، وشعراء مكة تسعة ، وشعراء الطائف خمسة ، وشعراء البحرين ثلاثة ، وشعراء يهود ثمانية ، فهؤلاء أربعة وثلاثون شاعراً ، زادهم على الثمانين ، على ما رسمه وبيّنه في أول كتابه .

ومع ذلك ، ففي هذا الاستطراد المقحم على نهج الكتاب ، إخلالٌ شديدٌ بطريقته التي سار عليها في ذكر طبقات شعراء الجاهلية الأربعين ، وطبقات شعراء الإسلام الأربعين ، من وجوه كثيرة سوى عدد الشعراء الأربعة في كل طبقة ذكرها .

وهذا عندي دالٌ على أنّ ابن سلام رحمه الله قد أقحم هذا القدر كُلّه من الشعراء ، بعد أن فرغَ من النسخة الأولى من كتابه ، والّتي كانت مقصورة على ما نهجه في رسالة كتابه ، من ذكر طبقات عشر لفحول الجاهلية ، وطبقات عشر لفحول الإسلام . فلما عادَ إلى كتابة الكتاب على الوجه الذي بيّنه أقحمَ هؤلاء الشعراء إقحاماً في النسخة الآخِرة (وهي التي في أيدينا اليوم) ونسيَ أن يغيِّر ما كتبه في رسالة كتابه ، وكان قد أسنّ وقارب التسعين أو جاوزها ، وأقحم أشياء أخرى سنعود إلى ذكرها بعد قليلٍ . وممّا يدلُّ على أنه كان ينسَى ، وأن المرض كانَ يقطع عليه ما يكتب أنّه في هذا الجزء الذي أقحمه ، لم يقتصر على تغيير منهجه في ذكر أربعة شعراء في كُلّ طبقة ، فزاد العدد أو نقصه . ليس هذا فحسب ، بل إنه وقع في شيء آخرٍ يدلُّ على أثر المرضِ في تقديره وضبطه . كان ملتزماً بأن يذكر في أول كُلّ طبقة أسماء شعراء هذه الطبقة الأربعة ، فكان هنا في هذا الجزء المقحم ملتزماً أيضاً بذكر أسماء شعراء كُلّ قسم في أوّل كلامه ، فذكر في شعراء مكة تسعةً ، فنسي أن يذكر الاثنين منهما بعد ذلك خبراً أو شعراً . وهما مسافر بن أبي عمرو ، والممزق عبدالله بن حذافة السهمي مع خطأ غريب فيه اسمه ، ذكرته في تعليقي على الكتاب — ثم في شعراء الطائف ذكر خمسة شعراء ، ولكنه سقط عنه كنانة بن عبد ياليل ، فلم يذكر له بعد ذلك أيضاً خبراً ولا شعراً . هذا مع قلة الأخبار عن كل شاعر منهم ذكره ، وقلة ما ذكر له من الشعر ، فإنه كان خليقاً أن لا ينسى إذنْ ، فمن أجل ذلك كله رأيت أن ابن سلام كان يومئذ قد بلغ منه السن ، وعوّقه المرضُ وأنساهُ ، وأنه أدخل هذا القسم وأقحمه في موضعه بين الجاهليين والإسلاميين ، لأنه كان في عجلةٍ من أمره ، وهو يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه هذا .

فمن أجل ذلك أستطيع الآنَ أن أقول ، وأنا مطمئنٌ كل الاطمئنان : أنّ صنيع ابن سلامٍ حين انتهى من الفقرة الثانية من كتابه في أصله الأول من نسخته الأولى ، فقال « فبدأنا بالشعر » كان كلامه متّصلاً بالفقرة الحادية والثلاثين حيث يقول : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في

الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهُم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حُجّةٍ ، وما قال فيه العلمـــاء . . . » . فلما أعاد كتابته هذا في النسخة الثانية ، بدا له على عجلٍ أن يقحم في كلامه هنا خاطراً جديداً في الحديث عن « المصنوع المفتعل الموضوع » ، ففصل بين الكلامين المتعانقين تعانقاً تامّاً بما أثبته من أوّل الفقرة الثالثة ، إلى آخر الفقرة الثلاثين ، وجعل هذا الاستطراد المقحم قسمين : أولهما عن « المصنوع » ، من الفقرة الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشرة ، وثانيهما عن أهل العلم والرواية الصحيحة من العلماء ، من الفقرة الرابعة عشرة إلى آخر الفقرة الثلاثين . وهذا الإقحام الجديدُ على رُقْعة الكتاب ، والإقحام الذي قبله ، ربما زادَاه بهاء وحُسْناً ، ولكنّهما على كُلِّ حال أحْدَثا في نَسْجِه بعض الاضطرابِ ، ولكنه اضطرابٌ غير مَعيبٍ ، إلاّ في مطلع الفقرة الثالثة ، الذي قذف بنا في حَيْرَة غريبة جدّاً ، كما رأيت آنفاً من قريبٍ .

والآن ، وقد فرغنا من إعادة النظر في بناء كتاب ابن سلام « طبقات فحول الشعراء » ، يكاد يكون من المقطوع به عندي أنّ ابن سلامٍ حين عاد إلى كتابة نسخته الأخيرة ، وهي التي بين أيدينا اليوم ، قد أقحم على أصلها الأوّل زياداتٍ لم تكن في سياق منهج الكتاب ، وأنه كتب هذه الزيادات بأخَرَةٍ قبيل وفاته ، وأنّ بلوغه التسعينَ مع نوبَة العِلّة مرة بعد مرّة ، قد جعلاهُ على عجلٍ من أمره في إقحامها إقحاماً يفصِلُ فصْلاً ظاهراً بيِّناً بين كلامين كانا في أصله الأوّل متتابعين متصلين . وإذنْ ، فلا غرابة في أن يكون هذا الإقحامُ العجِلُ عند إعادة الكتابة ، ممّا يحدثُ اضطراباً وخلَلاً في سياق حديثه على وجهه الذي كان أثبته أوّلاً . وكان ينبغي أن يَظَلّ عليه ، لولا أنْ عَجِل مع الخاطِر الملحّ عليه إلحاحاً حمله على إثباته ، ومع العجلة الزلل ومع الزلَل تفلُّت الروابط واضطرابها ، ومع التفلُّت الخطأ ، وإذا نحنُ في تيه متراكبة ظُلُماته نقول : « سواء بصيرات العيون وعورها » من شدة الحيرة ومخافة الضلال ! وإذا كُنْتُ قد اتّهمت ابن سلام بالخطأ في عبارته ، فلم أتّهمه إلاّ ومعي حجّتي ، ولم أقدمْ على ذلك إلاّ ومعي عُذْرُه ، ولا أواجهُه به إلا ومعي اعتذاري إليه ، فإنّه إمَامٌ من أئِمّتنا ، ونحنُ عيالٌ عليه ، مقرُّون

بفضله وعلمه وتقدمه وجلالته وسناء مرتبته . ويعجبني حديث أبي بكر بن دريد قال : « أخبرنا عمروٌ أخو هلال الرأي قال : جاء رجُلٌ إلى أبي زيد الأنصاريّ ، فسأله عن مسألة من النحو فأجابه ، فقال الرجل : إن سيبويه لا يرضى بهذا ! فقال أبو زيد : اسكت ، يا صبيُّ ، لقد جلستُ هذا المجلس قبل أن يُولَد سيبويه بثلاثين سنة ! » ، فعلّق على هذا الخبر أبو أحمد العسكري (الحسن بن عبدالله بن سعيد / ٢٩٣–٣٨٢هـ) فقال : « وهذا جوابٌ غير مرضيٍّ ، وكان ينبغي أن يتصرَّف مع الحجة لا مع كبر السنّ » ، وصدق أبو أحمد ، ونعم ما قال . ونحن بحمد الله ، نتصرَّفُ مع الحجة ، لا مع هَيْبة أبي عبدالله بن سلام وجلالة قَدْره ، معترفين له بالسبْق والإمامة والإحسان كُلِّ الإحسان فيما بقي لنا من علمه ، وليس يعيبُه أن يستدرك عليه من لا يلهثُ بغباره ، رحمه الله ، وغفر لنا وله .

* * *

بقي بعد هذا أن نلتمس السبب الذي من أجله استحسن ابن سلامٍ أن يقحم بين قوله : « فبدأنا بالشعر » وبين صلة كلامه في أصله الأول : « ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ... » إلى آخر كلامه ، فهتك من أجل ذلك حَبْل الفاء العاطفة المعقبة في « ففصَّلنا . . . » ، وبتكه بتْكاً ، ثم وضعه بعد الفقرة الثلاثين غريباً عنها ، وبقيت الفاء بلا معنىً ، لأن قبلها مباشرة : « وكان الأصمعي وأبو عبيدة من أهل العلم . وأعلمُ من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفيّ . ففصلنا الشعراء . . . » . فأيّ خاطرٍ كان يجولُ في نَفْسِه ، فأثارَه وهَاجَه وأغراه بأن لا يبالي بسياق كلامه، وحمله ، وهو يكتب النسخة الثانية ، أن يقحم بين الفقرة الثانية والفقرة الحادية والثلاثين ، ثمانية وعشرين فقرة ، إقحامَ متعجل لا يكادُ يصبر ؟

والإجابة على هذا السؤال تتطلّب بياناً لا بُدَّ منه ، وأخشى أن يكون ترك الإبانة عنه ، ممّا يجعلُ الحديثَ عنه غير مقنع ولا واضح ، لأنّ هذا أمرٌ يتعلّقُ بالسرائر المضمرة في النفس ، لا بالكلام المسطور في الصحف . وقد وجدتُه ، بعد الفحص ، محالاً أن ألتمسه في صحف هذا الكتاب . وسأوجزه إيجازاً شديداً .

والذي لا أشُكُّ فيه ، ولا يشُكُّ فيه أحد ممّن تقدّمنا ، أن أبا عبدالله بن سلاّم كان حفيّاً كلَّ الحفاوة بشعر العرب وأخبارها وأيامها في الجاهلية والإسلام . وكان أبوه « سلاّم بن عبدالله بن سالم الجمحي ، مولى قدامة بن مظعُون الجمحي » ، هو أيضاً حفيّاً بالشعر والشعراء وأخبارهم ، كما يدلُّ على ذلك ما رواه منه ابنه « محمد بن سلام » في كتاب الطبقات ، فقد لقي سلاّم ذا الرمة (رقم : ٧٦٤) ، فحرص بعد ذلك على أن يلقي « خرقاء » في ديار « بني عامر بن ربيعة » وهي التي كان يشبّب بها ذو الرمة . وقال سلام : « دخلتُ خرقاء ، فقالت : اخرجي يا فاطمة — تعني ابنتها ، فخرجتِ امرأة جميلة ، وليست كأمّها . و « خرقاء » هي التي كانت تقول : « أنا من مناسك » لقول ذى الرمة :

تَمَامُ الحجّ أن تقف المَطَايَا   على خرقاء واضعة اللثام

ونشأ ابن سلام مع أبيه ، فأخذ عنه ، وغُرِي بالشعر والشعراء وأخبارهم ، وكان ابن سلام يكثّر سؤاله عمّا يَسْمع من أخبارهم ، كما تدلُّ على ذلك رواية عنه في كتابه . (ولم أجد لابيه سلام ، ذكراً ولا خبراً ولا رواية في غير كتاب الطبقات) . فمنذ عقل محمد بن سلام في نحو سنة ١٥٠ من الهجرة ، إلى أن بلغ أقصى العُمُر وطعن في الثانية والتسعين . ظَلَّ متقصّياً للشعر والشعراء ، فلقي الأئمة الكبار من علماء الأمّة ، من أهل العلم والرواية الصحيحة ، وصحبهم دهراً طويلاً ، حتى انتهت إليه الإمامة بعد ذهاب الأئمة القدامى ، فقصده الناسُ من الأقطار ، يأخذون عنه ، ويعرضون عليه ، ويسألونه عما أشكل عليهم من الشعر والأخبار وعلم العربية والحديث ، وغيرها مما كان عنده في وعائه . ويدلُّ كتابُه هذا ، على أنه لم يقض عمره باطلاً ، ولم يقطعْه غفلةٌ عمّا كان يدورُ في مجالس العلم والعلماء في زمانه ، ولا قصّر في الاطّلاع على ما كتب العلماء والرواة قبل مولده ، وفي مدة حياته .

والعصر الذي عاش فيه ابن سلاّم كان عَصْراً زاخراً يعبُّ عبابُه ، لا في دار الخلافة وحدَها . بغداد ، ولا في سائر مدنها الكبار كالكوفة والبصرة التي عاش

فيها اثنتين وثمانين سنة ، بل في كلِّ أرجاء الأرض التي أظلتها كلمة « لا إله إلاَّ الله ، محمد رسول الله » صلى الله عليه وسلم ، من أقصى الأندلس والمغرب ، إلى تخوم الصين ، في كل مدينة ورَبَضٍ وبادية . ولو ذهبتُ أصف ما كان كيف كانَ ، لما وسعته الأسفار الكبار ، فكيف السبيل إلى ذلك في سطورٍ لا تزيد في سِفْر صغيرٍ ولا تنقُص . إنه أروعُ عَصْرٍ مرَّ في تاريخ حضارات هذا العالم ، منذ ترك الإنسان وسَمْه على الأرض في حضارة متكاملة . وحسبُك أن تعلم أنها الحضارة الأولى في تاريخ البشر ، التي ما كادت تعرف صناعة الورق ، حتى أخذتها بقُوَّة ، وأحدثت بها فتحاً جديداً للإنسان ، ونقلتها من صناعة مقصورة على المهارق والصكوك والسجلاَّت والطوامير ، التي كانت تراد الأعمال الدولة ودواوينها أكثر ما تُراد ، وأقلُّه كتابة الكتب الكبار والأسفار المتعددة الجلود ، بل كان أكثره يلفُّ في الأضابير — نقلتْ هذه الصناعة إلى صناعة أخرى جديدة استحدثتها ، هي صناعة ورق الصحف التي تطوي كراريس كراريس ، وتجمع في جلدٍ واحدٍ يصونها . جدّد أسلافنا يومئذ أساليب هذه الصناعة ، حتى صارت قادرة على كثرة الإنتاج ، وحتى صارت كُل مدينة فما دونها لا تكادُ تخلو من صناعته ، ولا من صناعة المداد ، وصار الورق من يومئذ مبذولاً للصغار والكبار ، وفي أيدي الرجال والنساء . ولم يسمَع الزمنُ من صرير الأقلام على وجوه الصُّحف ، وفي نواحي الأرض المتباعدة المتقاذفة ، وعلى تطاول الدهور — ما سمع من صريرها منذ خرج الورق على يد العرب من أسر الدواوين وكُتّابها ، إلى أيدي الصغار والكبار من جماهير الناس وطلبة العلم . ولم ير الزمن أيضاً مداداً يراقُ على الطروس ، كما رآه في زمانهم هذا . ويقيني أنه لولا نزول القرآن على رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولولاَ ما أوتيه صلى الله عليه وسلم من الحكمة وجوامع الكلم ، وأنه كان كما قال صلى الله عليه وسلم « أوتيتُ القرآن ومِثْلَهُ معه » ، وهو حديثه صلى الله عليه وسلم ، ثم لولا فتوى أبي بكرٍ رضي الله عنه بكتابة المصحف — لبقي عالمنا هذا إلى يومنا هذا محبوساً أكثر ورقه في المهارق المطوية في الأضابير بين جدران الدواوين وبيوت الدولة ، وأقلُّه في كتابة الكتب . فهذا فضلٌ واحدٌ لا غير ، من فضل

أمةٍ كانت في سابق علمه سبحانه وتعالى ، كما قال لهم في كتابه « كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس » .

لم أملك أن أكبح جِماحَ هذا القلم ، فإنّه عصْرٌ يذهلني كُلما جاء ذكرُه في نفسي ، عما كنت فيه . والذي كنت فيه : هو الفحصُ عن الخاطِر الذي استولى على ابن سلامٍ ، فأثاره وهاجه وأغراه أن لا يبالي بسياقِ كلامه ، وهو يكتب النسخة الثانية من كتابه ، فأقحم ما أقحم متعجِّلاً قليل الصبر ، كيف جاء ؟ وكيف استولى عليه ؟

وأعود مرة أخرى أقول : إن الإجابة عن هذا السؤال تكاد تكون ضرباً من استشفافِ السرائر المطوية المستقرة في أغوار الضمائر ، بلا دليل يهدي ، وما هو إلاّ كتابٌ مكتوبٌ ؟ أمّا ابن سلاّمٍ فقد مَضَى لطيّته ، وطوتْهُ الدهور الطِوّال في متظاهراً أكفانها، ولا علم لأحدٍ بسرائر الماضين على حقيقتها ، فإنّ علمها عند علاّم الغيوب. وكُلُّ مافي أيدينا أَن نستدِلّ بالخبر الشاهدِ على خبرٍ غائب . ولكن ربّ استدلالٍ وافق صواباً خفيّاً ، ولولا هذا لبطل علمٌ كثير . بل إن كل بحث في الأدب والتاريخ وغيرهما من علومنا ، لا يكادُ يقوم إلاّ على هذا الاستدلالِ وحدَه ، وإن كان السبيلُ إليه محفوفاً بالعواثير المهلكة ، والمتالفِ المرهوبة . ولكن ينبغي أن نحذر كل الحذر ، فإن الخطأ فيه أكثرُ من الصوابِ ، لمن لم يملك حسّاً مرهفاً نافذاً يتلَقّى نبض اللغة وألفاظها بالجَسِّ والتقليب ، جسّ الطبيب مواطِنَ البَدَن الدّالة على مكامن العلّة من العليل . والبحث في مأثور الآداب ، وفي أخبار التاريخ ، وفي مسطور الكُتُب ورسائل الكتاب ، وفي روائع الشعر ، لم يكن قطُّ إلاّ بحثاً حثيثاً متواصلاً في سرائر أغلقت عليها صدور أصحابها وقائليها أو كاتبيها ، أو طويت معهم طيًّا وذهبت حيث ذهبوا ، بلا أمَل لأحد بعد ذهاب أشباحِهم في لقاء أو سماع أو سؤال .

ومذهبي أنّ هذا الاستدلالَ قائمٌ أساسُه على « التذوّق » ، وقد قلتُ قديماً في بعض ما كتبتُ : كُلّ حضارةٍ بالغة تفقدُ دقّة التذوُّق ، تفقد معها أسبابَ

بقائها . والتذوّق ليس قواماً للآداب والفنون وحدها ، بل هو قوامٌ لكل علمٍ وصناعة ، على اختلاف بابات ذلك كُلِّه وتبايُن أنواعه وضروبه . وكُلّ حضارة نامية تريدُ أن تفرضَ وجُودها ، وتبلُغ تمامَ تكوينها ، إذا لم تستقِلّ بتذوّقٍ حسّاسٍ نافذٍ تختَصُّ به وتنفردُ ، لم يكن لإرادتها في فرض وجودها معنىً يعقل ، بل تكادُ هذه الإرادة أن تكون ضرباً من التوهُّم والأحلام لا خير فيه . فحسَنُ التذوّق ، يعني سلامة العقل والنفس والقلب من الآفات ، فهو لبُّ الحضارة وقِوامُها ، لأنه أيضاً قِوامُ الإنسان العاقل المدرك الذي تقومُ به الحضارة » .

ونحنُ ، أصحابَ هذا اللسان العربيِّ المُبين ، قد قامت أصلُ حضارتنا على التذوُّق ، في الجاهلية الغابرة ، وفي الإسلام الباقي بحمد الله وحده ، وبلغ التذوّقُ بنا مبلغاً سنيّاً فريداً ، وحين بَدَأ تشتُّته وتبعثُرهُ ، بدأ معهما التّدهوُر والإدبار . فواجبنا اليوم أن نُعيد بناء أنفسنا على مَا بُنِيتْ عليه حضارتنا من أدقة « التذوق » ، وأن يكون التذوقُ أساسَ عملنا الأدبيّ في آثار أسلافنا ، وأن نُلاقي كلمات أخبارهم التي أثرت عَنْهم بالفحصِ النافذ ، وأن ننفُضَ غَيْبَ كلماتهم بالتذوُّق ، ونتوسّم بالتفرُّس في معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرُها عن هذه السرائر المغيّبة المحجوبة في طواياها . وإلا يكن هذا حقّاً محضاً ، فحدثني إذن ، كيف يمكن أن يقع التمييز بين شعر امرىء القيس ، وشعر طرفة ، وشعر زهير ، وشعر النابغة ، وشعر أبي تمام ، وشعر البحتريّ ، ومن شئت من الشعراء ؟ كيف كان ممكناً ذلك التمييز في مدّة حياتهم ، وكيف يكون ممكناً بعد مماتهم ، إلاّ بهذا العمل الدائب في ممارسة الكلمات ، واستنباطِ الخفيِّ من أسرارها ، وتذوُّقِ أساليبها ، وتسمُّعِ الركز الخفيّ في جَرْسها ونبرِها . ثم تولُّجُ الحسّ إلى كُنْهِ كُلّ حرفٍ في بنائها وتركيبها ، بلمحٍ متيقظٍ مُتَلَقّط بصير ، حتى تنشأ في النفس صورةٌ واضحةٌ لكُلٍّ منهم يبين بها من سواه . وحتى يتردّدَ في السّمع صَدًى متميّزٌ يُعْرَفُ به صوت أحَدِهم من صوتِ صاحبه ؟ وإذا بلغ التذوّق هذا المبلغ ، لم يكد المرء بعد ذلك يخطىء الصورة البينة الملامح ، ولا يكاد يستنكر الصوت المتفرِّد بترجيعه ونَغمته .

وإذا قرأتَ شعر أحدهم وجدت صاحبه بعد ذلك حيّاً يروح ويَغدو في جميع

أحواله ، على ضروبٍ من الهيئة تعرفها النفسُ معرفة التبيُّن والتمييز . وكُلّ بحث أدبيٍّ أو تاريخي ، سوف يكون عندئذٍ استحياء لأشباح مضتْ ، من رسوم كلمات بقيت . وسرّ هذا كامن في التذوّق ، وفي تذوّق الكلمات خاصة .

وسأضربَ مَثَلين من أمثلة كثيرة ، يدلاّن على أنّ هذا كان كائناً عند أسلافنا ، أحدهُما جليل القدر ، والآخر أجلُّ وأعظم . أما الأوّل فإن ذا الرمة الشاعر ، كان قد نشِب الهجاء بينه وبين هشامٍ المرَئي ، وكاد هشامٌ يُغَلّبُ عليه ، حتى لقي يوماً جريراً ، فانشده هجاءهُ هشاماً ، فأنشده رائيته في هجائه ، فلما فرغ من إنشاده قال له جرير : ما صنعتَ شيئاً ! أأرْفِدك ؟ قال ذو الرمة : نعم . فأرفدهُ ثلاثة أبيات ختم بها قصيدته ، وهي :

يعُدُّ الناسبون إلى تميمٍ	بيُوتَ المَجْد أربعةً كِبارًا
يعدُّون الرِّبَابَ وآل سعد	وعمراً ، ثم حنظلة الخيارًا
ويَهْلِكُ بينها المَرَئيُّ لَغْواً	كما ألغَيْتَ في الدِّيَةِ الحُوَارًا

فغلبه يومئذ ذو الرمة بهذه الثلاثة الأبيات . . ثم مرَّ ذو الرُّمة بعدُ بالفرزدقِ فقال له : أنشدني أحدثَ ما قلتَ في المرئيِّ ، فأنشدهُ هذه القصيدة ، فلمّا بلغ آخر الأبيات الثلاثة في ختامها ، أطرق الفرزدق ساعةً ، ثم قال له : أعدْ ! فأعاد ، فقال له : كذبتَ وَايْمُ الله ! ما هذا لك ! ولقد قالها أشدُّ لَحْيَيْن منك ! ما هذا إلا شعرُ ابن الأتانِ ! (يعني جريراً) .

فبهذا التذوّق النافذِ وحده ، استطاع الفرزدقُ أن يلمَح جريراً بهيئته وصورته وصوته من وراء هذه الكلمات القلائل .

أما ثاني المثلين ، فهو أروعُ وأنفذ ، فإن الله سبُحانه حين ابتعث نبيه صلى الله عليه وسلم ، لم يجعل للناس دليلاً على صدقِ نبوّته يطالبُهم بالإيمان به ، سوى ما نُزِّل عليه من القرآن منَجماً على ثلاث وعشرين سنة . وطالب عبادَهُ من عرب الجاهلية أن يتبيّنوا أنّ ما نُزِّل إليه هو كلامُ الله المفارق لكلام البَشر على اختلاف ألسنتهم ، وذلك بمجرّدِ سماعه يُتْلى عليهم في آياتٍ قلائل في أوّل العهد بالإسلام ،

وفوّض إليهم أن يحكـمُوا على قليله منذ بُعِث ، بأنه وحْيٌ أوحاه الله لا يطيق أن يأتي بمثله لا محمّد صلى الله عليه وسلم ، ولا غيرُه من البشر . ولا سبيل إلى ذلك لأحدٍ إلاّ عن طريق « التذوّق » الذي وصفناه لا غيرَ . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من نبيٍّ إلا وأوتي من الآياتِ ما مثلُهُ آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحيَ إليَّ ، فأنا أرجُو أن أكون أكثرهُمْ تابعاً يوم القيامة » ، أي أنّ الآية التي يفوَّضُ أمرها إلى التذوّق القائم في طبيعة البشَر ، أبقى من الآية التي تنقضي بانقضاء حدوثها ، ولا يبقى للبشر بعدها إلا التسليم بحدوثها لا غير ، كعصى موسى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . ولكن ليس هذا موضع المثل الذي أردتهُ ، ورأيي في معنى قولنا « إعجاز القرآن » معروف فيما أظنّ . أمّا المثل الذي أردتُه ، فهو أبلغ وأنفذُ في عمل « التذوّق » ، لا في تمييز كلام رب العالمين من كلام البشر ، بل في تمييز كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من كلامِه هو نفسه قبل البعثة ، ومن كلام سائر العربِ في زمانه وبعد زمانه .

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم صديقٌ يعرفه في الجاهلية ، كما يعرف الناسُ بعضهم بعضاً ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم على رأس الأربعين من عمره ، ناوأه قومه من قريش وسفّهوه وآذوْه . فقدم هذا الصديق القديم مكّةَ يوماً ، فسمع الناس يتحدّثون أن محمداً : شاعر وكاهنٌ ومجنونٌ ، يقول ابن عباس في حديثه الذي رواه مسلمٌ في صحيحه ، وأحمدُ في مسنده والنسائي في سننه ، وابن سعد في الطبقات ، وغيرهم ، وهذا لفظ مسلم: « عن ابن عباس : أنّ ضماداً قدم مكّةَ ، وكان من أزد شَنُوءة ، وكانَ يرقي من هذه الريح (أي من الجنون ومسّ الجن) ، فسمع سفهاء مكة يقولون : إنّ محمّداً مجنون! فقال : لو أنّي رأيت هذا الرجل لعل اللهَ يشفيه على يديّ ! قال : فلقيه ، فقال : يا محمد ، إنّي أرقي من هذه الرِّيح ، وإنّ الله يشفي على يديَّ من شاء ، فهَلْ لك ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ الحمدَ لله ، نحمدُه ونستعينُه ، من يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، أما بعدُ . » قال فقال (ضماد) : أعِدْ عليَّ

كلماتِكَ هؤلاء ، فأعادهنَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ مرَّاتٍ . قال فقال : لقد سمعتُ قول الكَهَنة ، وقول السحرةِ ، وقول الشعراء ، فما سمعتُ مِثْلَ كلماتِك هؤلاء ، ولقد بلغنَ نَاعُوس البحر ! قال فقال : هات يَدَكَ أبايِعْك على الإسلام ، قال : فبايعه . . .

كلمات قلائل تذوَّقها ضمادٌ رضي الله عنه ، ولم يصبرْ حتى يُتْلى عليه بعض ما نُزِّل من القرآن يومئذ بمكة ، وقطع الحديثَ ليستعيد ما سمع ، ونحن اليوم نسمَعُها من كُلِّ منبرٍ في كُلِّ يوم جمعةٍ ، ونحنُ في غفلةٍ عن تذوُّقها تذوّق ضمادَ . كانت هذه الكلمات التي سمعها ضِمادٌ يومئذٍ هي وحدها دليلَه على نبوّة صديقه الذي كان يعرفه ويعرف كلامه بالأمس في الجاهلية . لأنه وصل بتذوّقها إلى صميم الفرق بين كلام صاحبه بالأمسِ ، وكلامه في هذا اليوم، وأسرعت به إلى البيعة على الإسلام قبل أن يسمعَ كلام الله ! فأيُّ دقّةٍ في التذوُّق ! ! وأيُّ كان هؤلاء الذين فُوِّض إليهم التفريق بين كلام ربّ العالمين، وكلام عبيده من البَشر ؟ !

لقد أطلتُ الاستطراد ، ولكني رأيته شيئاً لا بُدَّ منه ، لأن مذهبي في دراسة الأدب قائم عليه فيما كتبته قديماً ، وفيما أكتبه اليوم . ولأنّه هو الفيصلُ الفارق بين مناهج الدراسة المتلقّاةِ عن غير أهل هذا اللسان ، ومن المناهج التي تنبغي أن تنبعَ من الأصل الذي قامت عليه حضارة هذا اللسان ، ثم ضُلِّلْنا عنه وطال الضلال . وهذا حين عودتنا إلى شيخنا محمد بن سلام ، وما كان من خبره في تأليف « طبقات فحول الشعراء » .

* * *

نشأ أبو عبدالله محمد بن سلام واكتهل وبلغ من السنّ ما بلغَ ، في سُرَّة عصرٍ فريد في تاريخ البشر ، على تطاوُل القرون من قبله ومن بعده . وكان عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم قد انقضى ، وتدفّق علمهم في صدور وَرَثتهم متلاطماً ، فانشقّ القرن الثاني من الهجرة عن بحور العلم الزاخرة وجباله الشوامخ . وكانت قوّاعد العِلْم الكبرى قائمة في الكوفة ، وفي البصرة التي نشأ فيها ابن سلام ، وهما المدينتان

العتيقتان اللتان تم تمصيرهما على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ما بين سنة ١٤ ، ١٧ من الهجرة . وظلّت أجيالٌ من علماء الأمّة تتوارث العلم وتتكاثر في هاتين المدينتين العظيمتين ، فجاء منتصف القرن الثاني من الهجرة ، وفيهما وَفْرةٌ وافرة من جبال العِلْم . وبحاره المتدفقة . أدرك محمد بن سلاّم منتصف هذا القرنِ ، وهو بالغٌ يتعلّمُ ، فشهد تلاقِيَ هذا التدفُّق من صدور العلماء إلى آذان تلامذتهم ، ثم تلقّي هذا الجيل من حفاظ العلم وطلبته تلقّياً يزخَرُ بالهمة والفهم والتوسُّع . كان علم هؤلاء العلماء بحراً يجيش في صُدُورهم ، أقلّه ما قيدُوه كتابةً ، وأكثرهُ ما كانوا يتحدثون به ، ويُبينون عنه بألسنتهم حين يُسْألون عن بيانِ ما يتحدثون به . فقلَّ اهتمامُهم بتأليف الكُتُب الكبارِ المفصَّلة المفسّرة ، وأكثرهُمْ لم يؤلّفْ كتاباً قَطُّ ، وإنما سارَ علمه في الناسِ بكثرة من أخذ عَنْه وسألَهُ وأجابه . فكأنَّ جُلُّ تلامذتهم يسيرون على سنتهم ، ويتلقّون عنهم ، ويحفظون مايتلقّونه وما يكتبونه مما سمعوه منهم . بيد أن بعض تلامذتهم خالفوا سُنّتهم في ترك تأليف الكتب . وفي الاقتصار على تأليف الكتب الصغار .

ولكي تكون هذه الصورة واضحة ، ينبغي أن نضرب مثلاً يبينُ عنها . فالخليل بن أحمد الفراهيدي ، كانَ أحد ورثة العلم الكبار ، وكان بحراً لا يكادُ يدرك مداهُ ، ومع ذلك فإنّه لم يؤلّف إلا كتباً صغاراً جداً ضاعَ أكثرها ، أو جميعها على الأصحّ ، ولكنّه كان لطلبة العِلْم يَنْبُوعاً متفجِّراً يصدرُ عنه الورّاد رواء ، حتى قال أحد تلامذته النضر بن شميل : « أكلت الدُّنيا بعلم الخليل وكتبه ، وهو في خُصٍّ لا يُشْعَرُ به » . هذا مع أنّه أوّل رجل في الأرض ، وضَع الأساس الكاملَ لتأليف معاجم اللغة ، لم يَسْبِقْهُ أحدٌ إلى مثله ، والبشر قاطبة عيالٌ عليه في معرفة الطريق إلى تأليف المعاجم . فهو الذي حدّد أصول المعجم المنسوب إليه ، وهو « كتاب العين » . قال ثعلب : « إنما وقع الغَلَطُ في كتاب العينِ ، لأنّ الخليل رَسَمَهُ ولم يَحْشُه ، لو كان حشاهُ ما بقي فيه شيء ، لأنّ الخليل رجُلٌ لم يُرَ مثله . وقد حشا الكتاب قوم علماء ، إلاّ أنه لم يؤخذ عنهم رواية ، وإنّما وُجِد منقل الورّاقين ، فاختلَّ الكتاب لهذه الجهة » . وطريقة رسم الكتاب التي

ذكرها ثعلب ، أنّ الخليل حين فكّر في وضع ِ معجم يجمع لغة العرب ِ ، لجأ إلى حَصْر رؤوس مادة اللغة أوّلاً ، وذلك بأن عمد إلى أصعبِ طريق ، ولكنّه أوثقُه حتى لا يسقط من مادة اللغة شيء ، فأخذ حروف المعجم التسعة والعشرين (ا.ب.ت. ث . . .) ، ولجأ إلى ما نسمّيه اليوم « قانون التباديل والتوافيق » ، فاستخرج عدّة الأبنية التي يمكن أن تتركب من حروف المعجم ، فبلغت عدّة ملايين ، في الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من الأبنية . ثم عرضَ هذه الملايين على ما في صدره من كلام العرب ، فاستخرج المهمل والمستعمل ، حتى حصر اللغة حصراً دقيقاً بلا رجوع إلى كتاب مقيّد ، فوضع هذا الأصل لمادة اللغة ، ولكنه لم يزد على الحصر . ثم تبعه الناسُ ، فألفوا معجم اللغة ، وإن خالفوا فيما بعدُ طريقته .

وهو أيضاً أوّلُ رجُلٍ ضبط حدودَ الحركات والسكنات على نِسَبٍ لاتختَلُّ ، إذا بنى عليها كلامٌ من كلام العرب كان نغماً مَوْزُوناً ، وأراد بذلك أن يضبط ما يسمّى في كلام العرب « شعراً » ، وهو علم العروض الذي نعرفُه . وعن طريق اهتدائه إلى هذا الضبط ، اهتدى أيضاً إلى ضبط نغم الموسيقى ، فكان أوّل رجل في الأرض وضعَ هذا الضبط ، وأخذه عنه إمام الموسيقى في عصره ، (والخليل لم تكن له معرفة بالموسيقى) ، إسحق بن إبراهيم الموصلي (١٥٠ــ٢٣٥هـ) ، فأتمّ عمل الخليل بعلمه ــ وحين ألف إسحق كتابه « الإيقاع والنغم » ، عرضه على ضريعه ومنافسه ومخالفه في الطريقة ، إبراهيم بن المهديّ (١٦٣ــ٢٢٤هـ) ، فقال له إبراهيم : « أحسنت يا أبا محمد ، وكثيراً ما تُحْسِنُ ! » فقال إسحق : « بل أحسنَ الخليلُ ، لأنّه هو الذي جعل السبيل إلى الإحسان » . وأسّس إسحق علم الموسيقى وضبطه ، وكل عَمَلُ الخليل هو الذي هداه ، وهدى الناس من بعده إلى ضبط الموسيقى وحصرها ، وهو الذي نعرفه اليوم باسم « النوتة الموسيقية » .

وكان الخليل يوشك أن يأتي بأعجب من ذلك . أراد أن يضبط علم الحساب ويحصره حتى يكون له ميزان يُرَجَع إليه ، كالذي فعله في « العروض » و « النغم » ، وقال يومئذ : « أريدُ أن أقرِّبَ نوعاً من الحساب ، تمضي به الجارية إلى البقّال ،

فلا يمكنه أن يظلمها » ، أي أن يغالطها في الحساب ، وهي جاهلة بالحساب . فدخل المسجد يوماً وهو مشغول بوضع هذا الميزان الحاضر للحساب ، فصدمته سارية من سواري المسجد ، وهو غافل مُستغرق في حسابه ، فانقلب على ظهره ، فكان ذلك سبب موته بعد قليل .

فلننظر الآن كيف صار أمرُ علم الخليل ، الذي نستطيع أنْ نقولُ إنه لم يؤلف في عمره الطويل كتاباً يُذكر ، والذي قال فيه تلميذه النضر بن شميل (—٢٠٣) : « ما رأي الراؤون مثل الخليل ، ولا رأى الخليلُ مثل نفسه » . أما علم « النغم » ، فقد ذهب به إسحقُ كما قلنا . وأمّا « علم العروض » ، فأخذه عنه أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (٠٠٠—٢١٥) ، فبسط هذا العلم ومدّه واستوعبه ، وتبعه الناس ، وبقيت كتب الأخفش من بعده أصلاً واسعاً لهذا العلم ، وضاع قليلٌ ما كتب الخليل . وأمّا مادّةُ حَصْر اللغة التي أسسها ووضعها في أصل كتاب العين ، فأخذه عن الليث بن نصر بن سيار ، وحشاهُ وتبعه الناسُ . أما علم النحو والعربية ، وهو أوثقُ علوم الخليل وأجلّها ، فلم نسمع قطُّ أنه ألف فيه كتاباً ، وقد تلقّاهُ عنه عشراتٌ من كبار العلماء من شيوخه وأسنانه وتلامذته ، ولكن بانَ من بينهم شابٌّ آثره الخليلُ بما ضنَّ به على غيره ، وحمّله علمه وأسراره الخفية ، وكان شاباً ملء ثيابه عقلاً وإدراكاً وبياناً وذكاء ومقدرةً ، وهو سيبويه (٠٠٠—١٨٠) . وقد بلغ من إيثار الخليل سيبويه بعلمه ، أن الأخفش ، حدث عن نفسه فقال : « حضرت مجلس الخليل ، فجاء سيبويه فسأله مسألةً وفسّرها له الخليل ، فلم أفهم ما قالا ، فقمتُ وجلستُ له في الطريق ، فقلت : جعلني الله فداءك ! سألتَ الخليل عن مسألةٍ ، فلم أفهم ما ردّ عليك ، ففهمنيه ! فأخبرني بها ، فلم تقع لي ولا فهمتُها . فقلتُ له : لا تتوهّم أني أسألُك إعناتاً ، فإني لم أفهمها ولم تقع لي ! فقال لي : ويلك ! ومتى توهّمْتَ أني أتوهّمُ أنك تعنِتُني ، ثم زجرني وتركني ومضى » . وظلّ هذا الشاب يأخذ عن الخليل من ينبوعه المتفجّر ، وبذل له سرّ العربيّة الذي كان في صدره ، وعقد لَهُ بناء النحو عقداً كاملاً وآثرهُ به ، ولم يكتب هو شيئاً ، وبقي مع الخليل حتى مات ، يحدثنا القاضي إسمعيل بن إسحق

الأزدي (۰۰۰—۲۸۲) ، عن نصر بن علي بن نصر الجهضمي (۰۰۰—۲٥۰) ، عن أبيه علي بن نصر الجهضمي (۰۰۰—۱۸۷) . وكان قرين سيبوية ، وكانا معاً من أصحاب الخليل في علم العربية ، قال علي بن نصر : « قال لي سيبويه حين رآني (يعني بعد موت الخليل) : تعالَ نتعاوَنْ على إحياء علم الخليل » ، ولكن عليّاً لم يعاون سيبويه ، فانطلق سيبويه وحدَه يؤلف هذا الكتاب البَحْر ، الذي لم ير الناس مثله قبله ولا بعدهُ ، وهو « الكتاب » ، وقد قلت منذ أربعين سنة إن قراءة كتاب سيبويه ، وتتبُّع مصطلحاته ، تدلُّ دلالة قاطعة على أن الخليل هو الذي وضع لسيبويه بناء هذا الكتاب ، وأنه هو الذي عقدَ لَهُ عَقْدَهُ الذي نراهُ عليه اليوم . ولولا الخليل لما كانَ « الكتاب » . !

هذه صورة تلاقي جبال العلم الشوامخ الذين كان علمُهم في صدورهم وقل تأليفهم ، وبحارُ العلم من تلامذتهم الذين تدفّق إليهم علمُ شيوخهم ، فألّفوا وكتبوا ووضعوا أصول العلم المختلفة ، انتزعتها من رجُلٍ واحدٍ ، ورثه تلامذته . وأشباهُ هذا الرجل الفذّ كثيرٌ في عصره ، وأشباهُ تلامذته كثيرة من بعد شيوخهم . وقد شَهِدَ محمد بن سلام هذا التلاقي وما كان من أثره ، منذ كان يحضُرُ مجالس أبي عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، والأصمعي ، وأبي عبيدة والخليل بن أحمد وسيبويه ، والأخفش ، فنازعته نفسُه منذ ذلك الوقت أن يفعل في شأن الأدب والشعر وأخبار العرب ، ما فعل هؤلاء بعلم « العروض » أو « علم النغم » . و « علم النحو والعربية » ، ومضت الأيام به سراعاً حتى كانت سنة ۲۲۲ ، وهو في الثانية والثمانين من عمره ورأى العلماء من قَبْله ترحلُ إلى بغداد ، المدينة الحديثة العهد التي أنشأها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٦ ، وصارت دار الخلافَة ، واحتشد فيها مهاجرة العلم والعلماء ، وعزمَ على أن يلحق بمن سبقَهُ ممن هاجر من البصرة إلى بغدادِ ، وفي نفسه ذلك الأمل الذي لم يحققه ، لأنه بقي على إلفهِ القديم من سنة العلماء الماضين ، ممن كان علمهم في صدورهم . فلما دخل بغداد ، ولقيته الحفاوةُ كُلُّ الحفاوة ، ورأى أفواج العلماء والأشراف وطلبة العلم ، تطيفُ به من نواحيه ، ويسأله السائلون ويستفسرونه ويستخبرونه ، وهو الإمام

المشهور في الأدب واللغة والعربية والشعر ، وبقيةُ الماضين من جبال العلم الشوامخ ، عاد ما كان يجيش قديماً في صدره من تأسيس علم الأدب وعلم الشعر وعلم أخبار العرب . بكتبٍ يؤلِّفُها . ولكنه لم يكدْ حتى مرض وزاره الطبيب ابن ماسويه ، فقال له فيما قال : « الإنسانُ في غفلةٍ حتّى يُوقَظَ بعلة ، ولو وقفت على عرفاتٍ وقفة ، وزرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم زورة ، وقضيتُ أشياء في نفسي ، لرأيتَ ما اشتَدَّ عليَّ من هذا قد سَهُل » . فبدأ بعد أن استبلَّ في وضع منهج كتابه الأول « طبقات فحول الشعراء » ، وكتب هذا المنهج في صدر كتابه ، ومضى يؤلِّفُ ، ليؤسس بهذا الكتاب « علم الأدب والشعر » ، كما فعل الأخفش وسيبويه وغيرهما ، ومضى عجلاً وألَّف ، وفرغَ فيما أرجِّحُ ، من نسخته الأولى » ولكنه فُوجيء برجُلٍ كان واحدَ الدُّنْيَا في زمانه ، فذكَّرَهُ بأشياء كان ينبغي أن تكون أساسَ منهجه ، ولكنه غَفَلَ عنها ، أو نسيَها ، أو لم تخطُر له في أول التأليف على بالٍ ، مع تقدُّم السنِّ ، ومع العجلة ، ومع غموضِ تأسيس منهج شاملٍ لعلم الأدب والشعر . هذا الرجل ، هو يحيى بن معين بن عون ، أبو زكريا المريّ ، مولى مُرّة غطفان ، المولود سنة ١٥٨ والمتوفي سنة ٢٣٣هـ ، من هو ابن معين ؟ وماذا فعل بابن سلامٍ ؟

* * *

كان يحيى معين فتىً من أبناء الأغنياء ، وكان أبوه معين بن عون عاملاً على خراج الريّ ، وهي قصبة الجبال ، ومن أمهات البلاد وأعلام المدن يومئذ . فلمّا مات أبوه خلّف له ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفق ذلك كُلّه على طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لم يبقَ له نعلٌ يلبسَهُ ، ولكنّه صار واحد الدُّنيا في علم الحديث، وآلت إليه إمامة علم الرجال والجرح والتعديل. وقد حفظ لنا قرينه وضريعهُ علي بن عبدالله بن جعفر السعديّ المعروف بابن المدينيّ (١٦١–٢٣٤) صورة رائعة جداً لتدفُّق العلم من مطلع القرن الأول للهجرة . إلى منتهى القرن الثاني . وهي صورة تزيدُ ما قلناه في شأن الخليل وتلامذته وضوحاً .

قال ابن المديني : « انتهى العلم بالبَصْرةِ إلى يحيي بن أبي كثير وقتادة — وانتهى

علم الكوفة إلى أبي إسحق والأعمش ـــ وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار ـــ وصار علمُ هؤلاء الستة إلى إثني عشر رجلاً ، منهم بالبصرة : سعيد بن أبي عروبة ، وشعبة ، ومعمر ، وحمّاد بن سلمة ، وأبو عوانة ـــ ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ومن أهل الحجاز إلى مالك بن أنس — ومن أهل الشام إلى الأوزاعيّ ـــ وانتهى علم هؤلاء إلى محمد بن إسحق ، وهشام ، ويحيى بن سعيد بن أبي زائدة ، ووكيع ، وابن المبارك ، وهو أوسع هؤلاء علماً ، وابن مهديّ ، وبحيى بن آدم ـــ فصار علم هؤلاء جميعاً إلى يحيى بن معين » . وهذه صورة في غاية الوضوح ، فلمّا صار هذا كلّه إلى ابن معين ، فتح به فتحاً كبيراً في علمين جليلين علم الأحاديثِ وما يكون فيها من الخطأ ، وما يكشفُ عن وضع الوضاعين الذين كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلم الرجال والجرح والتعديل ، وتوفي ابن معين ، فترك مئة قمطرٍ وأربعة عشر قمطراً ، وأربع حِبَاب كبارٍ مملوءةً كتباً .

وعلى تطاوُل الأيّام ، بلغ ابن معين الغاية وفاق أقرانه وشيوخه في معرفة الحديث ، وفي الجرح والتعديل ومعرفة الرجال ، وكان قضى دهره في الرحلة في الآفاقِ ، لا يفتُر في تتبُّع علم ذلك عند العلماء والرواة ، وعند كُلٍّ من نزل بغداد منهم . فصارت له بذلك خبرةٌ لا تدانيها خبرة أحدٍ من قبله ولا من بعده . وقد حدثنا عبدالله بن محمد اليمامي المحدّث ، المعروف بابن الرومي (٠٠٠ـ٢٣٦) قال : « كنت عند أحمد بن حنبل ، فجاء رجُلٌ فقال : يا أبا عبدالله ، أنظر في هذه الأحاديث ، فإن فيها خطأً ! فقال أحمد : عليك بأبي زكريا ، فإنه يعرف الخطأ » . فهذه شهادة أحمد . أما أبو سعيد الحدّاد فإنه قال : « إنّا لنذهب إلى المحدّث فننظرُ في كتبه ، فلا نرى فيها إلا كُلَّ حديث صحيح ، حتى يجيء أبو زكريا ، فأول شيء يقع في يده الخطأ ، ولولا أنه عرّفناه لم نعرفْه » وهذا الاستيعابُ البحرُ الذي أوتيه أبو زكريا ابن معين ، قذفَ هيبته في قلوب كُلٍّ من حدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحدث هرون بن معروف المروزي (١٥٧ـ٢٣١هـ) ، وهو من أقران ابن معين قال : « قدم علينا (يعني ببغداد)

بعضُ الشيوخ من الشام ، وكنت أوّل من نكّر عليه ، فدخلت عليه فسألته أن يملي عليّ شيئاً ، فأخذ الكتاب يملي عليّ . فإذا بإنسان يدق الباب ، فقال الشيخ : من هذا ؟ قال : أحمد بن حنبل ! فأذنَ له ، والشيخ على حاله والكتابُ في يده لا يتحرّكُ . فإذا بآخر يدق الباب ، فقال الشيخ : من هذا ؟ قال : أحمد الدورقيُّ ! (أحمد بن إبراهيم الدورقي : ١٦٨–٢٤٦) ، فأذن له ، والشيخ على حالته ، والكتاب في يده لا يتحرك . فإذا بآخر يدقُّ الباب ع فقال الشيخ : من هذا ؟ قال : أبو خيثمة زهير بن حرب (١٦٠–٢٣٤) ، فأذنَ له ، والشيخ على حالته ، والكتاب في يده لا يتحركُ . فإذا آخرُ يدقُّ الباب ، قال الشيخ : من هذا ؟ قال : يحيى بن معين — فرأيتُ الشيخ ارتعدتْ يدُهُ ، وسقط الكتاب من يده ! ! » . وهذا خبرٌ رائعٌ يمثّل حقيقة الهيبة التي ذهبت في الآفاق من مخافة علم ابن معين بالحديث ، وهذا هو ابن معينٍ .

* * *

لمّا قَدم محمد بن سلام بغداد ، وهو إمامٌ ذائع الصيت ، وشيخٌ قديمُ البلاد ، سمعَ قُدَماء الشيوخ ، وتكاثر عليه العلماء وطلبة العلم ، يسألونه ، كانَ فيهم كثيرٌ من أهل الحديثِ ، حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . جاءه عبدالله بن أحمد بن حنبل يسأله ، ويعرض حديثه على أبيه أحمد ، وينكر أحمد بعض حديثه . وجاءه الإمام الحافظ أبو خيثمة زهير بن حرب ، وقال : « لا يكتب عن محمد بن سلام الحديث ، رجلٌ يرمي بالقدر ، إنما يكتب عنه الشعر ، فأما الحديث فلا » ، أمّا يحيى بن معين ، فإنه كان يكثر الاختلاف إليه وإلى أخيه المحدِّث عبد الرحمن بن سلام . فكان يذاكر ابن سلام الشعر والأخبار والنسب ، بلا ريبٍ ، لأنه إمامٌ في هذا كله . وقد ذكر الحافظ بن الحافظ أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب ، محمّد بن سلام فقال : « كان يحيى بن معين قد ذهبت كتب عنه . كتبتُ أنا ليحيى بن معين النسب عنه بخطّي » . والذي لا ريب فيه أيضاً أن ابنَ معين لا يترك سؤال مثل ابن سلامٍ عمّا عنده من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما رواه عن قدماء الشيوخ بالبصرة . كان ابن سلام في سنة ٢٢٢ يوم قدم

بغداد قد جاوز الثانية والثمانين ، وكان يحيى بن معين يومئذٍ قد بلغ الخامسة والستين ، فهو لا يسأله سؤال طلبة العلم الصغار شيوخهم ، بل سؤال العلماء الكبار للعلماء الكبار ، بلا شك . وإن كان ليس في أيدينا أخبارٌ تدلُّ على ما كان يجري بينَهُما . وكُلُّ ما عندنا من حديث أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال : « حدثنا محمد بن سلام ، عن زائدة بن أبي الرقادِ ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأمّ عطية : يا أمّ عطية ، إذا خفضْتِ فأشِمِّي ولا تَنهكِي ، فإنه أضوأ (أنضَرُ) للوجه ، وأحظَى عند الزوج » قال أبو العباس : رأيت يحيى بن معين بين يدي محمد بن سَلام يسألُه عن هذا الحديث » . سببُ سؤال يحيى عن هذا الحديث محمد بن سلام ، أن ثابتاً البناني صحب أنساً أربعين سنة ، فكان من أثبت الناس في أنس ، أمّا زائدة بن أبي الرقاد الباهلي ، الذي روي عنه محمد بن سلام ، فإن البخاري قال فيه : « منكر الحديث » وقال ابن حبّان : « روى المناكير عن المشاهير ، لا يحتج به ، ولا يكتب إلاّ للاعتبار » . وقال البزّاز : « لا بأس به ، وإنما نكتب من حديثه ما لم نجد عند غيره » . وقد حاولت أن أتتبّع هذا الحديث في حديث أنس ، فلم أجد له ذكراً ، وحديث أم عطية رواهُ بغير هذا اللفظ أبو داود في السنن ، في كتاب الأدب ، من طريق محمد بن مروان ، عن محمد بن حسان ، عن عبد الوهاب عن عبد الملك بن عمير ، عن أم عطية ، وقال أبو داود : « روي عن عبدالله بن عمرو ، عن عبد الملك ، بمعناهُ وإسناده ، وليس بالقوى . وقد روى مرسلاً . وقال أبو داود : محمد بن حسان مجهول ، وهذا الحديث ضعيف » . والذي لا أكاد أشكُّ فيه أن ابنَ معين قد بيّن لابن سلامٍ هذا وأكثر منه ، في هذا الحديث ، وفي غيره من الأحاديث التي سألَهُ عنها ، وطالت المفاوضة بينهما على طول اختلاف ابن معين إلى ابن سلاّم » .

والذي لا أكادُ أشكُّ فيه أيضاً أنّ ابنَ سلاّم ، قبل نزوله بغداد وهو بالبصرة ، كان قد سَمِع بعض ذكر ابن معينٍ ، إذ كان صيته قد طار في الآفاق . فلمّا رآه وفاوضه العلم ، رأى منه ما كانَ يرَى الناس منه حتى كان يقول بعضُ من يحدث عنه : « حدّثني من لم تطلع الشمسُ على أكبر منه » ، يعني يحيى بن معين . والذي

لا أكادُ أشكّ فيه أيضاً أن ماسمعه ابن سلام من ابن معينٍ. قد دلّه أعظم الدلالة على ما يبذُلُه هذا الإمامُ من جُهْد في تخليص حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم من كلّ ما يشوب متونه وأسانيده ، لينفي عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . ولا أظنّ أن ابن سلاّم حين سمع ابن معين ، لم يذكُرْ ضريعَه البصريّ ، وهو بلديّه ، رحل عن البصرة إلى بغداد أيضاً ، وهو « علي بن عبدالله بن جعفر السعديّ ، المعروف بابن المديني (١٦١-٢٣٤هـ) ، وكان إماماً من الجهابذة النقاد للحديث كصاحبه ابن معين ومن قبلهما صاحبه البصري أيضاً « يحيى بن سعيد القطان » (١٢٠-١٨٩) ، وكان من سادات أهل زمانه ورعاً وحفظاً وفضلاً وديناً وعلماً ، وهو الذي مهّد لأهل العراق رسم الحديث ، وأمعن في البحث عن الثقات ، وترك الضعفاء . وهؤلاء الرجال هم الذين أسّسُوا علم معرفة الرجال والجرح والتعديل ، وعلم الموضوع من الحديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأنا أتوهّم أن هذا الذي عرفه ابن سلاّم يومئذ ، قد أثارَه إلى أن يؤسِّس هو أيضاً أساساً لمثل هذين العلمين في ناقلة الآداب والأخبار والشعر ، لينفي عن الشعر خبَثَ ناقلته ورواته ، وخبث الموضوع على ألسنة شعراء الجاهلية وغيرهم في كتبٍ كان قد آذاهُ رؤيتُها وقراءتُها من قبل . ولكنه ، فيما اتوهّم ، كان قد فرغَ من تأليف كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، الذي بيّن منهجه فيه في رسالة الكتابِ ، وأغفل الحديث عن هذين العلمين ، وراودته نَفْسُه أن يَضَعَ كتاباً آخر ، غير الكتب الأربعة : « الطبقات » ، و « كتاب فرسان الشعراء » ، و « كتاب سادات العرب وأشرافها وما قالوه من شعر » . و « كتاب أيام العرب » ، ويجعل هذا الكتاب الخامس مقدّمة لعلم الأدب والشعر ، يذكرُ فيه الموضوع على شعراء العرب ، ثم يبيِّن طبقات علماء الشعر وجَهابذته ونُقّاده ، ويذكر الكذابين والوضّاعين من الرواة والمؤلفين للكتب في زمانه ، على الوجه الذي ذكره به يحيى بن معين وابن المدينيّ في تأسيس علوم الحديث .

ولكن ابن سلاّم كان قد أسنّ وطعن في التسعين ، فصارَ على عجلٍ من أمره ، وهو بين حاديين حثيثين حادي العُمُر الذي لا ينقطِعُ حُداؤه . وحادي العِلّة

المدنية إلى العجز عن إتمام نيته . فلمّا عادَ إلى كتابة النسخة الثانية من « كتاب طبقات فحول الشعراء » ، وهو كما ذكرت آنفاً ، قد فرغَ منها قبيل وفاته بأيام ، خافَ أن يسبقه الأجَلُ وهو يسمع حُداء الحاديين الحثيثين . فلم يكد يشرع في كتابة الطبقات ، ويبلغ آخر الفقرة الثانية : « فبدأنا بالشعر » وكاد يكتب « ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية » ، جَزِعَ ووضع القَلَم يؤامر نَفْسَه : أيمضي في الكتابة حتى يفرغ من كتاب الطبقات ثم يكتب هذا الكتاب الذي لا غنى عنه في علم الشعر والشعراء ، أم يكفّ ، ويضَعَ شيئاً موجزاً لا غنى عنه في شأن الموضوع على الشعراء ، وفي شأن طبقات العلماء أهل الرواية الصحيحة ، وتفصيل شأن الوضاعين والكذابين من رواة الشعر والأخبار ؟ وحَارَ وبلغت منه العلة ، فعزمَ عزماً قاطعاً على أن لا يُخْلِي الكتابَ ، فإنّه لا يضمن السعة في الأجل ، ولا إفاقة العِلّة مع علوِّ السنّ وضعفِ البدن ، وتقطُّع الهمة . فعزم عزماً ، وهجم على الأمر هجوماً ، ولم يبال أن يُقْحِم ما يريدُ بين الكلامين المتصلين المترابطين إقحاماً ، فبدأ الفقرة الثالثة ، يقول : « وفي الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع لا خير فيه . . . » ، وعَجِلَ عجلاً شديداً فيما كتب حتى كاد يضطرب الأمر في هذه الفقرات ، من الثالثة إلى الفقرة الثالثة عشر . ثم عجل أيضاً فاتبع ذكر الموضوع ، بذكر طبقات علماء البصرة من أهل العلم والرواية الصحيحة ، فذكر من ذكر ، ثم ضعف بأخرةٍ في آخر فقرة بعد أن مضى على سننه من الفقرة الرابعة عشر إلى الفقرة الثلاثين ، فاختصر الكلام اختصاراً شديداً ، فقال : « وكان الأصمعيُّ وأبو عبيدة من أهل العلم ، وأعلم من وردَ علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي » . فانظر إلى هذا الإيجاز في ذكر الأصمعي وأبي عبيدة ، وهما شيخاه وصاحباه ! ثم انظر إلى عجلته وخوفه من تفلُّت الأمر ، فاقتصر من كُلِّ علماء الكوفة على رجل واحدٍ من كثير ممن وردَ عليه بالبصرة من علماء الكوفة ! رأى الأمرَ قد طالَ ، فعاد ليصل الفقرة الثانية بأختها في الفقرة الحادية والثلاثين ، بلا رابط وبلا دلالة على الانتقال من كلامٍ إلى كلام فكتب : « ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية . . . » .
ورأى ابن سلام أنه قد أبْلى وبلغَ بهذه الفقر المقحمة . غايةً تقصرُ عما في نفسه ،

ولكنها على كُلّ حالٍ دليلٌ ماكان يحبُّ أن يستوعبه ويفيض فيه ، ليؤسِّس لعلم الأدب والشعر والأخبار ، أساساً صحيحاً ، بتفصيل الوضع على الشعراء ، والتمييز بين رواة الشعراء والأخبار ، ليُعْرف بذلك سقيمها من صحيحها ، كالذي فعله يحيى بن معين ، وعلي بن المديني وأحمد بن حنبل ، والأئمة الجبال الشوامخُ الذي ضبطوا عِلْم الأمّة بعد أن تَلَقَّوه من بحور العلم ، منذ أول عهد الإسلام ، إلى أن صار إليهم في مطلع هذا القرن الثالث من الهجرة . وقد أحسن ابن سلامٍ ولم يُسيء ، ولكن الذي أرادَه ، لم يحقّقه أحدٌ من بعده ، في تأسيس هذين العلمين ، وإن كانوا قد بلغوا الغَايَة بعد ذلك في تمحيص الشعر والأخبار فيما كتبوا ورَوَوْا . أما تأسيس علمٍ للموضوع ، وعلم لرواة الأخبار والشعر ، فقد ذهب ، كما ذهبَ ما كان في صدر محمد بن سلام رحمه الله مما لم يكتب .

* * *

أظنُّ أنّي قد بلغتُ بعضَ الصواب في الاستدلال على أن هذه الفقر ، من (٣–٣٠) من كتاب الطبقات ، مقحمة إقحاماً مفاجئاً غريباً على سياق رسالة كتابه ، التي أراد أن يبيِّن فيها منهجه . وأظنُّ أيضاً أني بيّنتُ بعض البيان بعض ما أثارهُ إلى العجلة وترك المبالاة بما يحدثُه هذا الإقحام . ولكن هذا وحده لا يكادُ يكفي ، فيما أرَجِّح ، في فهم الفقرة الثالثة ، وهو غير كافٍ بلا ريب في تصحيح عبارة ابن سلام التي زعمتُ أنه جارٍ فيها بالعَجَلَةِ عن الصوابِ . وإذا كان نزوله بغداد ، ولقاؤه ابن معين يفاوضه الحديثَ والعلم والشعر أيضاً ، قد كشفا له عمّا فعل أهل الحديث في تأسيس علل الحديث وعلم موضوع الأحاديث ، وعلم نقلة الأخبار وتعديلهم وتجريحهم — فإن ذلك أيضاً قد ذكره بقديم ما في نفسه ، مما كان يحبُّ أن يقضيه فتطاول عليه العُمُر ولم يفعل . وقديم ما في نفسه ، كان ، بلا شك ، خُلاصة لقائه الشيوخ العلماء القدماء ، وما سمعه منهم في تمحيص أخبار العرب وأخبار شعرائها وفرسانها وساداتها وأيامها . وما وقف عليه هو بالتتبُّع والحوار والمقارنة ، حتى صارت له بذلك خبرةٌ وثقافة . بيد أن هذا وحدَه لم يكن هو كُلّ الذي هاجه بعد لقاءِ ابن معين ، حتى يعزم على تصنيف كتاب أو كتب

يؤسس بها قواعد علم الأدب وعلم الشعر وعلم الأخبار ، وتبين مراتب العلماء ونقلة الأخبار والشعر ، وتميّز ثقاتهم وعدُولهم وأهل الحفظ والتثبت والإتقان واليقظة منهم ، من أهل الغفلة ، وسوء الحفظ ، والكذابين والوضّاعين الذين يخترعون الأخبار ، وحملةِ الغثاء المصنوع المفتعل الذي ينسبونه إلى الشعراء وأصحاب البيان من الفرسان والساداتِ .

وابن سلاّم رحمه الله لم يُخْلِنا من الدلالة على بعض ما هاجه ، فإنه حين قال : « وفي الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع » ، قال بعد ذلك : « وقد تداوله قوم من كتابٍ إلى كتاب ... » ، فهؤلاء « القوم » هم الذين هاجوه ، وهاجه تدوالهم هذا الغثاء ، ولعلّه رأى ذلك قد ذاع وتداوله ناس أيضاً في أحاديثهم ممّن ليسوا من جهابذة الشعر . ولم يذكر ابن سلام من هم هؤلاء القوم ، بيد أنه دلنا بعد قليل على واحدٍ منْهم ، وكان مع ذلك إماماً من أئمة العلم الكبار ، وفي السِّير خاصة ، حين قال في أول الفقرة السابعة : « وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كُلَّ غثاء منه ، محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخرمة ، وكان من علماء الناس بالسير » . فهل نستطيع أن نعرفَ سائر هؤلاء القوم الذين عناهم ؟ وما هي كُتُبهم ؟ وما كان فيها من الغثاء المصنوع الذي أفسدَ الشعر وهجنه ؟ وعلى أي صورة كان تصنيف ما في هذه الكتب ، وما تحتويه من شعر وغثاء مصنوع ؟ نعم ، بعض ذلك ممكن .

فمن الذين كانت لهم كُتُبٌ ، عرفها ابن سلام وغيره من أهل زمانه ، نَفَر لا نستقصيهم ، ولكن نعُدُّ منهم : (١) عُبَيْد بن شَرِيّة الجرهميّ ، الذي استقدمه معاوية رضي الله عنه من صنعاء ، فسأله عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وتوفي سنة ٦٧ ، وله من الكتب « كتاب الأمثال » ، و « كتاب الملوك وأخبار الماضين » ، وكأنه هو المطبوع مع كتاب « التيجان » باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمي ، في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » .

(٢) ووَهْب بن مُنَبِّه الأبناوي الصنعاني ، ولد سنة ٣٤ وتوفي سنة ١١٤ ،

وله كتب ، منها « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم » . وكان تابعياً لقي أبا هريرة وأبا سعيد الخدريّ وابن عبــاس ، وكان ثقة ، ولكنه كان يقرأ الكتب وكان حفياً بأخبار الماضين ، وسنذكره أيضاً عند ذكر حفيده بعدُ .

(٣) ومحمد بن إسحق ، صاحب السِّير ، وقد ذكره ابن سلام ، ولد في نحو سنة ٨٥ ، وتوفي سنة ١٥١ ، وكان ثقة مشهوراً ، انتهى إليه العلم ، ولكن وضع منه أنه كان رجلاً يشتهي الحديث والأخبارَ ، ويأخذ كتب الناس ويضعها في كتبه ، قال النديم في الفهرست : « كان يعمل له الأسفار ويؤتى بها ، ويُسألُ أن يدخلها في كتابه في السيرة ، فيفعل ، فضمّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشعر » . وله من الكتب أيضاً « كتاب المبتدأ » .

(٤) والشَرقي بن القُطاميّ (الوليد بن الحصين) الكلبيّ ، المتوفي سنة ١٥٥ ، ولم أعرف له كتاباً ، إلاّ أنه كان صاحب سَمَرٍ وحديث ، وأخذ عنه الناس في كتبهم أخباراً جمّة . وقد روى الأصمعي قال : « حدثني بعض الرواة قال : قلت للشرقي بن القطاميّ : ما كانت العربُ تقرأ في صَلاتِها على موتاها ؟ (يعني في الجاهلية) فقال : لا أدري ! قلت : كانوا يقرأون :

وما كُنْتَ وَكْوَاكاً ولا بِزَوَنّــكٍ رُوَيْدك حتى يَبْعَثَ الخلــقَ باعثُهْ

قال : فإذا هو يوم الجمعة يحدّث به في المقصورة » . وهذا البيت لامرأة ترثي زوجها . و « الوكواك » الجبان ، و « الزّوَنّك » ، القصير الدميم .

(٥،٦) ومحمد بن السائب الكلبيّ المتوفي سنة ١٤٦ ، وله كتبٌ وولدهُ « هشام بن محمد بن السائب الكلبي » ، المتوفي سنة ٢٠٤ ، والذي أكثر الرواية عن أبيه . وكتُبُ هشامٍ كثيرة جداً في أخبار العرب وأيامهم ، وفي أخبار الشعر ، وفي الأخبار والأسمار ، وفي الأنساب . وكانت في هشام غفلة شديدة . من ذلك ما رواهُ الخطيب عن أحمد بن إبراهيم قال : « دعاني ابن الكلبيّ يوماً فأقعدني في بيت خيش فَرْشُه ميسانيّ ، وأطعمني في يوم حارّ فجلية ، ثم قال لي : لما

مات أبي ندمَ المأمون أشدَّ ندامةٍ في الدنيا ! قلت : أكان عذبّه حتى مات ؟ قال : لا . قلت : فحبسَهُ في ضيّقٍ ؟ قالَ : لا . قلت : فإنّما مات حتف أنفه ! قال : نعم . قلت : فما سبب ندامته ؟ قال : لا والله لا أدري ، هكذا حدّثني سعدٌ غُلامُنَا !

(٧) علانٌ الشعوبيّ ، وكان على عهد الرشيد ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ، وكانت له كتب في المثالب مثالب العرب .

(٨، ٩) وإدريس بن سنان ، وولده عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، وجدُّه لأمّه وهب بن منبه ، وكان يروي أيضاً كتب جدّه ، وكتب أبيه ، وله هو كتب ، منها « كتاب المبتدأ » له ، ولأبيه . وكان عبد المنعم يتلقّط كتب السير ، يشتريها من السوق ويرويها ، ما سمعها قطُّ ، ولا سمع من أبيه ولا من غيره ممن يروى عنهم كتبهم . ومات عبد المنعم سنة ٢٢٨ . وقد قارب المئة .

وغير هؤلاء القوم كثيرٌ قبل ابن سلام وبعده ، ولست أشكُّ أنهم هم الذين عناهم بقوله في الكلام المصنوع : « قد تداوله قوم من كتابٍ إلى كتاب » . ولم يبق في أيدينا ، فيما أعلمُ ، من هذه الكتب وأشباهها إلا ثلاثة كتب : الأول كتاب عبيد بن شرية الجرهميّ والثاني : كتاب وهب بن منبه في الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم ، وهو المطبوع في الهند باسم « كتاب التجان » . وهو برواية عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، نزيل مصر المتوفي سنة ٢١٨ مهذب سيرة ابن اسحق — من أسد بن موسى الأموي (المعروف بأسد السنة) ، المولود بالبصرة سنة ١٣٢ ، والمتوفي بمصر سنة ٢١٢ — عن عبد المنعم بن إدريس ، عن جدّ لأمه وهب بن منبّه — والثالث كتاب السيرة لابن إسحق ، بعد أن هذّبه وحذف منه شيئاً كثيراً ، مهذبه عبد الملك بن هشام . وهذه الثلاثة على قلتها كافية في معرفة ما نحنُ في حاجة اليه لفهم ما أراده ابن سلام في حديثه عن الكلام المصنوع المفتعل الموضوع على الشعراء .

أما الكتاب المنسوب إلى عبيد بن شرية الجرهميّ ، فإنا نجد أكثر ما فيه من

الكلام الغث المصنوع المفتعل ، الذي وصفه ابن سلاّم فأجاد صفته . قدراً كبيراً منسوباً إلى عاد وثمود المعرقين في القدم في ملوك حمير الفانين ، ونجد معه أيضاً قليلاً جداً من غناء منسوب إلى الشعراء المعروفين ، منهم امرؤ القيس بن حجر الكنديّ (وذكره الطوسيّ في المنحول من شعره) ، وأمية ابن أبي الصلت ، وحسان بن ثابتٍ ، وأبياته من صحيح شعره .

أما كتاب وهب بن منبه المعروف اليوم بالتيجان ، فإنّ ابن هشام راويه ، لم يفعل فيه ما فعل في سيرة ابن إسحق ، حين عرضها على العلماء بالشعر ، فنفى منها ما انكروا ، وأثبت ما أكثر ما صححوه ــ بلى ساقَه بغثائه كله روايةً عن وهب . وفي كتاب التيجان غثاء كثيرٌ أيضاً منسوب إلى عادٍ وثمود وغيرهم من الأمم البائدة التي لم يبلغنا بيقين شيء من شعرهم ، كما صدق ابن سلام فيما قال : « لم يروِ قط عربيٌّ منها بيتاً واحداً ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره وقلة طلاوته » ، ولكنه في خلال هذه الأخبار التي ساقها شعر صحيح قائمٌ على حياله غير مختلط بغيره ، وشعرٌ صحيحٌ أدخِل في غثاء مصنوعٍ . فمن الصحيح القائم وحده على حياله شعرٌ لقيس بن زهير العبسي (٥٢) وشعر للبيد (٧٦) وشعر للربيع بن ضبع الفزاري (١١٨ــ١٢٢ ، ١٢٤) واللامية التي رثى بها تأبّط شرّاً (٢٤٢) ــ أما الصحيح الذي دخل في الغثاء فكثير فكأبيات في قصيدة ذكرها وهب (٢٢٣) ونسبها لشمر يرعش بن ناشر النعم ، ونسبها عبيد بن شرية (٤٦٩) مع اختلاف كثير جداً ، لتبع ملكي كرب . وهذا ليس استقصاءاً ، ولكنه اختيارٌ للدلالة على ما في هذه الكتب من الشعر الصحيح المفرد ، ومن الشعر الصحيح المقحم في الغثاء ، ومن الغثاء المحض .

أما الذي يوضح الأمر توضيحاً كاملاً فهو ما بقي عندنا من سيرة ابن إسحق ، بعد أن عرضها عبد الملك بن هشام على العلماء بالشعر ونفي أكثر خبثها . وابن سلاّمٍ حين ذكر المصنوع ، الذي تداولهُ قوم من كتاب إلى كتاب ، ضرب المثل بكُتب محمد بن إسحق . فمن الواضح أن كلامه عن المصنوع يؤولُ على الأرجح إلى مثل ما في هذه الكتب من الشعر ، ومن الغثاء المصنوع . ونحن نجد في سيرة ابن اسحق ، التي هذبها ابن هشام ، أوّلاً : شعراً صحيحاً معروفاً لأصحابه من الشعراء ،

مما رواه العلماء بالشعر ، وهو كثير . ونجد أيضاً شعراً صحيحاً قد خُلِط بغثاء ، فلما عرضه ابن هشام على العلماء ، ميّزوا له هذا الصحيح ، ونفوا الغثاء ، ومثال ذلك قصيدة أمية بن أبي الصلت ، أو أبيه أبي الصلت التي يقول فيها : (ابن هشام : ١ : ٦٧–٦٩) .

ليطلُب الوِتر أمثالُ ابن ذِي يَزَنٍ   ريّم في البحر للأعداء أحوالا

فلما فرغ قال : « هذا ما صحّ له مما روى ابن اسحق منها ، إلا آخرها بيتاً قوله : « تلك المكارم لا قعبان من لبن » فإنه للنابغة الجعدي . فهذا من الصحيح الذي خلط بالغثاء ، وهذا في التيجان أيضاً ص : ٣٠٦ ، ٢٠٧ . ومن الغثاء المصنوع ما ذكره ابن إسحق في السيرة ، فذكر منه ابن هشام هذا البيت :

حنقاً على سبطين حلا يثرباً   أولَى لهم بعقاب يوم مفْسِدِ

فقال ابن هشام : « الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوعٌ ، فذلك الذي منعنا من إثباته » ، والشعر بتمامه رواه في التيجان (١١٢–١١٤) في أبيات طويلة . والأمثلة كثيرة جدّاً في كتاب السيرة وكلها دالٌ على وجود هذه الأصناف الثلاثة في الكتب : الشعر الصحيح ، والشعر الصحيح المخلوط بالغثاء ، والغثاء المحض . وحسبنا هذا الآن .

* * *

فإذا كان هذا صحيحاً إن شاءالله ، وكانت صورة هذه الكتب عند ابن سلامٍ ، كالذي عندنا اليوم من بقايا هذه الكتب التي أشار إليها بقوله : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب » ، فقد وصلنا إلى شيء مُهِمّ جدّاً ، يجعل تفسير كلام ابن سلام في الفقرة الثالثة واضحاً كل الوضوح . ويزيل الاختلال الواقع في ضمائر هذه الفقرة . فقد صحّ عندنا أن في هذه الكتب ثلاثة أصناف :

الأول : شعرٌ « صحيح » ، يعرفه أهل العلم والرواية الصحيحة عن أهل البادية ، وهو قائم على حياله ، في هذه الكتب .

الثاني : شعرٌ صحيح ، يعرفونه أيضاً ، ولكنه خلط بغثاء مصنوع ليس بشعر ، وإنما هو كلامٌ مؤلف معقود بقوافٍ .

الثالث : غثاء مصنوع ، ليس بشعر . كثير لا خير فيه . وقد وضعه ابن سلامٍ وأجادَ صفته .

قال ابن سلام : « فبدأنا بالشعر ، وفي الشعر مصنوع مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه . . . وقد تداولَهُ قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوهُ على العلماء . وليس لأحدٍ — إذا أجمعَ أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه — أن يقبل عن صحيفة أو يروي عن صحفي » .

وقد أثبتنا بالتحليل إثباتاً لا يداخلُه شَكٌّ ، أن هذا القول محالٌ أن يكون مراداً به « المصنوع » وحده ، وأشدُّ استحالةً أن يكون مراداً به « الشعر » كما نعرفُه ببديهة اللغة . وإذنْ ، فلم يبق عندنا إلاّ الصنف الثاني وحدَهُ ، وهو : الشعر الصحيح الذي يعرفه العلماء ، ولكنّه خُلِط بمصنوع ليس بشعرٍ ، في قصيدة واحدةٍ . فلننظر الآن : هل تستقيم الفقرة ، وتصبح كلاماً غير متخالف ولا متضاربٍ ، إذا عادَت الضمائر الأربعة إلى هذا الصنف وحده ؟ فالضمير الأول : « وقد تداوله قومٌ من كتابٍ إلى كتاب » ، واضح لا يحتاج إلى بيان . والضمير الثاني : « ولم يأخذوه عن أهل البادية » ، صحيح أيضاً ، فإنهم لو كانوا أخذوه عنهم لما خالطَه هذا الغثاء ، ولكان مطابقاً لما عند العلماء بالشعر بلا زيادة ، فقد أخذوا جميعاً من مصدر واحدٍ . والضمير الثالث : « ولم يعرضوه على العلماء » ، يجعل الكلام بعودته إلى الصنف الثاني ، صحيحاً ذا فائدة ، فإنه إذا عُرِض على العلماء ، استخلصوا الصحيح المعروف عندهم ، ونفوا الغثاء الباطل الذي خلط به . والضمير الرابع في قوله : « وليس لأحدٍ — إذا أجمع أهل العلم على إبطال شيء منه — فليس لأحد أن يقبل عن صحيفة ، أو يروي عن صحفي » ، إذا هو عاد أيضاً على هذا الصنف ، استقام معنى الكلام ، وصار تماماً للكلام الأول بلا غضاضةٍ . وصار أيضاً للتبعيض في قوله « على إبطال شيء منه » ، معنىً ، لأن الذي يبطلونه

« بعضٌ » من كُلٍّ ، وهو هذه القصيدة الملفقة بالتخليط . ثم إن إجماع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطالِ هذا البعضِ ، مفهومٌ ، بل لا وجه لإجماعهم غير هذا الوجه . وإذا كان هذا الإجماع ، فإنه ليس لأحد بعد ذلك أن يَقْبل من صحيفة ولا يروي عن صحفيٍّ ، لأنّه إذا فعل ذلك ، وهو غير بصيرٍ برواية شعر العرب ، كان خليقاً أن يُفْسد الشعر الصحيح ويهجّنه برواية هذا الغُثَاء ، كأنّه جزء من الصحيح المعروف . ولذلك قال ابن سلام في الفقرة ٧٣ بعد ذلك بكثير : « وقد وجدنا رواة العِلْمِ يغلطون في الشعر ، ولا يضبطُ الشّعر إلا أهله » .

وإذن ، فمعنى قوله : « وفي الشعر مصنوع مفتعل . . . » ، هو في الحقيقة : « وقد دخل بعض هذا الشعر في مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه » ، ويبقى إذن لفظ « الشعر » على بديهته المعروفة ، ويبقى أيضاً أنه لا يجعل هذا المصنوع « شعراً » ، لأنه بيّن بعدُ أنه « ليس بشعر ، بل هو كلامٌ مؤلف معقود بقواف » ، وهو ليس قِسْماً من « الشعر » ، ولا يقع عليه هذا اللفظُ وقوعاً صحيحاً عند ابن سلامٍ . وسببُ هذا الخلَلِ في العبارة ، هو ما أفضتُ في بيانه عن الحالة التي كان عليها ابن سلامٍ ، وهي يعيد كتابة النسخة الثانية من كتابه ، فأقحم هذا الفَصْل عن الموضوع ، والفصل الذي يليه عن العلماء بالشعر والعربية ، إقحاماً أخَلَّ بالكلام ، وحيّرنا في فهمه . ولكن أشدُّ من هذا أنّ كلام ابن سَلاّم في رسالة كتابِه قد كان سَبَباً في فَسَادٍ كبيرٍ أصاب شعر العرب على يد أوّل المشككين في الشعر الجاهليّ النافين لصحته ، حين غابت هذه الفقرة من طبعة الأعجمي يوسف هل ــ وحين ظهرت في نسختنا ، وفيها هذا الاضطرابُ والخلل ، لم تُعِنْ على تصحيح ما فهم من كلامِ ابن سلامٍ ، لردّ هذه الفتنة السقيمة . بل استمرَّ الأمرُ بعد ذلك على اتهام ما بأيدِينا من شعر العرب الذي نقله إلينا العلماء المحققون الجهابذة ، بأن فيه مصنوعٌ مفتعلٌ ، ثم زاد الأمرُ حتى صارَ بعضُ الباحثين ينفي من هذا الشعر ويُثبت بلا بينّة ولا دليلٍ ، إلا خواطر الاستحسان والاستهجانِ كيف اتّفَقَ . وهذا أسلوب غير مرضي ولا صالح . ولكن بقيت الجملة الأخيرة في ختام هذه الفقرة ، التي يقول فيها ابن سلام : « وقد اختلفتِ العلماء بعدُ ، في بعض

أَبَانَانِ

تحديد موقعهما ودراسة ما ورد فيهما من الشعر

(يسر مجلة « العرب » أن توالي نشر مقتطفات من كتاب « بلاد القصيم » – أحد أجزاء « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » تأليف الباحث المحقق الأستاذ الشيخ محمد بن ناصر العبودي ، وقد نشرت في سنواتها الماضية من ذلك الكتاب القيم ما نال إعجاب القراء ، ودفع بعضهم إلى طلب الاستزادة منه . وجبل أبانين شهرتهما في الأدب العربي القديم تحمل على العناية بتحديدهما ودراسة ما يتعلق بهما من النصوص القديمة ، وها هو الأستاذ العبودي يقوم بذلك) .

« أبَان » *

بفتح الهمزة فباء فألف ثم نون أخيرة . هكذا ينطق به أهل البدو ، وبعض أهل الحضر ينطقون به بكسر الهمزة ، جبل من أشهر جبال المنطقة في القديم والحديث ، وهما جبلان : أحدهما أبان الأسمر وكان يسمى قديماً أبان الأسود ، وهو الشمالي

الشعر ، كما اختلفوا في سائر الأشياء ، فأمّا ما اتفقوا عليه ، فليس لأحدٍ أن يخرجَ منه » . وبَيِّنٌ بعد هذا أن لفظ « الشعر » ، هو على حاله في بديهة اللغة ، بلا ريب في ذلك . وكانت من تمام حديثه ، لأنه حين ذكر إجماع العلماء على إبطال بعض هذا الخليط . وأنه ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن صحفي – أرادَ أنْ يعقب عليه بضرب آخر من اتفاق العلماء على بعض الشعر ، وعلى اختلافهم فيه ، وبيّن أن الذي اتفقوا عليه ليس لأحدٍ أن يخرجَ منه ، أما الذي اختلفوا فيه ، فله حُكْمٌ آخر . ولكن بَيِّنٌ أن هذا « الاتفاق » ، وهذا « الاختلاف » بمعزل عن الكلام في « المصنوع الموضوع » ، لأنه لا يقع عليه بين العلماء اختلاف البتّة ، بل يقع إجماعهم على بُطْلانه بلا نزاع منهم في ذلك . وللحديث عن هذا موضع آخر – إن شاء الله – هو به أليق . (للبحث صلة)

محمود محمد شاكر .

بالنسبة لمجرى وادي الرمة ، والثاني أبان الأحمر وكان يسمى قديماً الأبيض وهو الجنوبي من مجرى الوادي والواقع أن تسمية العامة المحدثين لهما أقرب إلى الحقيقة من تسمية الأقدمين ، اللهم إلا إذا كانت كلمة الأسود والأبيض عندهم تعني خلاف ما تعنيه عند المتأخرين أو إذا كانوا يقصدون بالأبيض مقابل الأسود لا حقيقة كونه أبيض .

ذلك بأن أبان الشمالي الذي يسمى الآن الأسمر لونه في الحقيقة أسمر وليس أسود كما كان يسميه الأقدمون وأبان الجنوبي الذي كان يسمى أبيض لونه فعلاً يميل إلى الحمرة كما يسمى الآن الأحمر .

ويقعان إلى الغرب من مدينة الرس على بعد حوالي ٥٠ كيلاً منها على تفاوت بينهما في ذلك *

ويمر الخط الاسفلتي الذي ينطلق من بريدة إلى المدينة المنورة بالقرب من أبان الأسود إلى الشمال منه بعد أن يكون قد قطع مسافة ١٦٧ كيلا .

أما مَنْ ينطلق من مدينة عنيزة فإنه بعد أن يمرّ بالبدايع والرس يسير مع الطريق الاسفلتي حتى يكون أبان الأسود عن يساره جهة القبلة حيث يمر ببلدة النبهانية التي تقع شرقاً من أبان .

وفي جبل (أبان) في الوقت الحاضر عدة هجر ، أي قرى للبادية عليها عدد من الأمراء ، وأماكن زراعية كثيرة ، ونخيل تستغني بقرب الماء في أرضها عن السقي ، وهي من أجود النخل وأقواه في منطقة ، على القصيم .

وتقطن في أبان في الوقت الحاضر أفخاذ من قبيلة بني رشيد الذين يسمون (هتيماً) بخاصة المضابرة – جمع مضيبري – كما سيأتي ذكر ذلك مفصلاً في أماكنه من هذا المعجم إن شاءالله .

وكان في أبانين عدة أمراء من المضابرة المذكورين ، فكل كبير قرية أو مكان فيه يسميه جماعته أميراً . وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات أكثر من ثلاثين . وكان يحصل بين بعضهم في بعض الأحيان شيء من الاحتكاك ، ولذلك رأت

إمارة القصيم جمعهم على أربعة أمراء كبار منهم . ثم قامت بإحداث مركز تابع لإمارة القصيم يكون مرجعاً للجميع وسمته (مركز إمارة أبانات) أي أبانين وهو في (ضليع رشيد) في أبان الحمر (الأبيض قديماً) كما سيأتي في حرف الضاد إن شاءالله ويبعد عن بريدة ٨٠ كيلا وعليه أمير من غير أهل أبان .

أقوال المتقدمين : قال البكري : أبان : بفتح أوله : جبل ، وهما أبانان : أبان الأبيض ، وأبان الأسود ، بينهما فرسخ ، ووادي الرُّمة يقطع بينهما ، . . فأبان الأبيض لبني جُرَيْد من بني فزارة خاصة ، والأسود لبني والبة من بني الحَارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد ، وقال بعضهم : ويشركهم فيه فزارة . أقول : المسافة بينهما غير متساوية في كل المواضع وهي تتراوح ما بين ٣٢ كيلاً واثني عشر كيلاً ولعل الفرسخ هو متوسط ما بينهما .

وقال لغدة الأصبهاني : أبان الأبيض لعبس ، وأبان الأسود لبني أسد ، وبه قرية يقال لها الشركة لبني أسد ، فيها عين أجراها محمد بن عبد الملك بن حبيب الفقعسي [1] .

وقال الهمداني : ثم أبانان : أبان الأسود ، وأبان الأبيض ، جبلان يمر بينهما بطن الرّمة ثم وراء ذلك القصيم [2] .

ونقل ياقوت عن الأصمعي : وادي الرمة يمر بين أبانين ، وهما جبلان ، يقال لأحدهما أبان الأبيض وهو لبني فزارة ، ثم لبني جريد منهم ، وأبان الأسود لبني أسد ، ثم لبني والبة ، ثم للحارث بن ثعلبة بن دودان بني أسد . وبينهما ثلاثة أميال [3] .

وقال ابن دريد : أبان : اسم جبل معروف ، لا ينصرف [4] .

(١) « بلاد العرب » ص ٦٧ .
(٢) صفة « جزيرة العرب » ص ١٤٤ .
(٣) رسم : « ابانان » .
(٤) « الاشتقاق » ص ٢٤٥ .

أشعارٌ في أبان : ذكر (أبان) كثيراً في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام ، قال زهير بن أبي سُلْمَى[١] :

تبيّنْ خليلي هل ترى من ظعائــــن بمُنْعَرَج الوادي فُويق (أبـــان)[٢]
مَشَـــينَ وأرْخَينَ الذُّيُولَ ورُفعَتْ أزمّـــةُ عيسٍ فوقهـــا ومثاني[٣]

ويريد بالوادي : وادي الرمة الذي يأتي من فوق أبان ويمر بين أبانين كما سبق .

وقال امرؤ القيس في معلقته :

كأنّ (أباناً) في أفانـــين وبْلـــه كبير أناسٍ في بجـــادٍ مُزَمّل

وسيأتي في رسم ضاري في حرف الضاد توجيه القول بأن المراد (أبان) لا غير ، وليس المراد ثبيراً كما رواه بعضهم ، وذلك لكون امرىء القيس قرن ذكر أبان بذكر عدة مواضع في القصيم لا تزال معروفة بأسمائها القديمة . وقال عبيدالله بن قيس الرقيّات[٤] :

زودتِنـــا رقية الأحزانـــا يوم جـــازت حمولهـــا سكرانا
إن تقلْ هُنّ من بني عبد شمسٍ فعسى ذاك أن يكـــون وكانـــا
أنا من أجلكم هجرت بني زيـــدَ ومن أجلكم أُحِـــبُّ (أبانـــا)

وقال الحطيئة : من قصيدة مدح[٥] :

رأيتُ امرأ يَسْقي سِجالاً كثـــيرةً من العُرْفِ فاستسقيْتُه فسقاني[٦]
من النّفر المرْعي عَدِيّـــاً رِماحُهُمْ عن الهول ، أكْنَافَ اللّوى ، فأبان[٧]

---

(١) ديوانه ص ٣٥٨–٣٥٩ .
(٢) الظعائن : جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج على البعير .
(٣) الأزمة : جمع زمام . والعيس : الإبل . والمثاني : الأزمة والحبال .
(٤) ديوانه ص ١٥٦–١٥٧ ، وياقوت : رسم «سكران» مع اختلاف بينهما في اللفظ .
(٥) ديوان الحطيئة ص ٥١ . والشرح منه .
(٦) السجال : جمع سجل وهو الدلو إذا كان الماء فيه . والعرف : المعروف .
(٧) أي : يدفعون عن عدي ويحمون لها المرعى . والأكناف النواحي . واللوى : ما انعطف من الرمل، والمراد به هنا رمل عريق الدسم الواقع طرفه بجانب أبان .

فقرن ذكره باللوى الذي يسمى — الآن : عريق الدسم . وسيأتي في حرف العين .

وقال لبيد بن ربيعة رضي الله عنه[1] :

درس المَنَا بمُتالعٍ فأبانِ وتَقادمتْ بالحبْس فالسُّوْبَانِ[2]

فَنِعاف صارة . فالقنانُ كأنّها زُبُرٌ يُرَجِّعُها وليدُ يمَانِ[3]

وقالِ أوْسُ بنُ حَجَر : وقرن ذكر أبان بذكر العيون[4] وضلفع[5] والقنان[6] وهي جميعاً في تلك المنطقة[7] :

تثُوبُ عليهم من (أبان) وشُرْمَة[8] وتركب من أهل القنانِ وتَفْزَعُ

لَدُنْ غُدْوَةً حتى أغاث شريدَهم طويلُ النّباتِ ، والعيونُ وضَلْفَعُ

وقال الطِّرماح بنُ حكيمٍ الطائي وهو بقزوين شمال إيران يتشوق[9] :

طَرِبْتَ وشَاقكَ البرق اليماني بِفَجٍّ الريح فَجِّ القاقِزان[10]

أضوء البَرْقِ يلمع بين سَلْمَى وبين الهضْب مِنْ جَبَلَي (أبَان)

أضوْء البرق بتَّ تشيمُ وَهْناً لقد دانيتُ — وَيْحكَ — غيرَ داني

---

(١) ديوان لبيد ص ٢٠٦ . وياقوت : أبان . . .

(٢) المنا : المنازل حذفه للضرورة وهي من أقبح الضرورات الشعرية ، وقيل ، المنى : الحذاء ، يقال : داري بمنى دار فلان ، فكأنه قال : درس المحاذي لمتالع . ومتالع : جبل قد تغير اسمه فأصبح يسمى (أم سنون) وقد حققنا ذلك في موضعه . والحبس : جبل ذكر الأقدمون أنه إلى الشرق من الفوارة (بالفاء) والذي أعتقده أنه الذي يسمي سمار بقيعا . والسوبان ويسمى الآن « السايبية » .

(٣) النعاف رءوس الأودية وصارة جبل مشهور في القديم والحديث سنذكره في حرف الصاد إن شاء الله والقنان : هو الذي يسمى الآن الموشم ، راجع هذا الأسم في حرف الميم وزبر : كتب ، يرجعها : يرددها . وليد يمان : غلام يمني لأن أهل اليمن أهل كتابة .

(٤) راجع رسم « عيون الجوا » .

(٥) راجع رسم «الضلفعة » .

(٦) راجع رسم «الموشم» وحيث قلنا أنه هو جبل القنان قديماً .

(٧) ديوان أوس بن حجر ص ٥٩ .

(٨) شرمة جبل لا يزال معروفاً بهذا الأسم قريباً من بلدة «سميرا» إلى الشرق منها . ويقع إلى الشمال الغربي من مقاطعة القصيم خارجاً منها وهو تابع لإمارة حايل ، يقع إلى الشرق من سميرا على بعد ٢٥ كيلا ولذلك لم نفرده برسم خاص به .

(٩) ديوان الطرماح ص ٥٥٠ .

(١٠) الفج : الطريق الواسع في الجبل . والقاقزان : ثغر من نواحي قزوين .

وقرن ذكر أبان بذكر جبالٍ عظيمة مشهورة وهي رضوى ويذبل وثبير لجامع العظم والشهرة بينها ، وليس لقرب المكان في هذين البتين[1] :

وعليــه السلام ما قام رضْــوى و (أبانٌ) ويَذْبُــلٌ وثبـيرُ
مَحْتِدٌ طاهِرٌ ، ومجـدٌ أثِـلٌ وفخارٌ غَمْرٌ وخلق أثـير

كما قرن ذكره باللوى ، الذي هو في الأصل ما التوى من كثيب الرمل والمراد به هنا (عريق الدسم) الآتي ذكره في حرف العين .

وأنشد الأسْود الغُنْدُجاني لبعضهم :

وإني لأشْقَى النّاسِ إنْ كنتُ غَارماً هَوامِيَ ما بين اللــوى وأبــان[2]

ومعلوم أن اللوى الذي هو عريق الدسم ينقطع بالقرب من أبانين إلى الغرب منهما بمسافة لا تتجاوز ثلاثين كيلا .

ومن الشعر في (أبان) هذان البيتان اللذان أوردهما الهجري[3] :

ألا هل إلى بَيْضاء من آل خِصْيَل أغالي بها قبــل المماتِ سبيــلُ
رأيتُ أخاها يمنــع القومَ نَهْبَهُ بشطِّ (أبانٍ) والدمــاء تسيــلُ

وبأبان ضربت العرب المثل في الشدة والصلابة والخلود على الدهر ، قال لبيد رضي الله عنه[4] :

فأيُ أوانٍ ما تَجِئْني منِيّــتي بقَصْد من المعــروف لا أتعَجّبُ
فلسْت بركنٍ من (أبانٍ) وصاحَةٍ ولا الخالدات من سُواجٍ وَغُرُّب[5]

وقال زهير بن أبي سُلْمى[6] :

---

(١) « المتنخل » للثعالبي ص ٢٣٠ .
(٢) « فرحة الأديب » الورقة ٦٧ مخطوطة حمد الجاسر والهوامي : ضوال الإبل .
(٣) مجلة « العرب » م ٥ ص ١٠٧٨-١٠٧٩.
(٤) ديوانه ص ٢٧ ، وياقوت : (غرب) .
(٥) صاحة : جبل أحمر خارج منطقة القصيم راجع مجلة «العرب» م٤ ص ٢٢٧-٢٢٨ .
(٦) ديوانه ص ٣٥٥ .

فلستُ بتارك ذكرى سُلَيْمَى وتشبيبي بأخْت بني العِدانِ[1]
طوالَ الدَّهْر ما ابْتلّتْ لهَاتي وما ثَبَتَ الحوالدُ مِنْ (أبان)
أفيقا بعضَ لومكما ، وقُولا قعيدَ كما ، بما قد تَعلمانِ[2]

وأنشد الجاحظ في تكليف ما لا يطاق[3] :

تقول : جَمّعْ من بوان ووتد وحَسَنٌ أن كلفتني ما أجد
ولم تقل جِيء (بأبان) أو أُحُدْ أو ولد السِّعلاة أو جَرْو الأسد
أَو مليك الأعجام مأسوراً بقِدٍّ

وقال محمد بن أحمد الحاجب من أبيات قالها في تمثال أسَدٍ من حجارة رآه باب مدينة هَمَذَان[4] :

ألا أيُّها اللّيْثِ الطويلُ مُقامَه على نُوبَ الأيام والحَدَثان
أقَمْتَ فما تنوي البَرَاحَ بحيلة كأنّكَ بوَّابٌ على هَمَذانِ
فلا هَرَماً تَخْشى ولا الموتَ تتقي بمَضرب سيفٍ أو شَبَاة سِنانِ
وعمّا قليلٍ سوف تتبع مَنْ مَضى وجِسْمُك أبقى من حرا وأبانَ[5]

وقال جرير من قصيدة :

إنْ رُمْتَ عَبدَ بني أسَيْدَةَ عِزَّنَا فانْقُلْ مناكب يَذْبُل و (أبان)

وإن كان المشهور رواية يذبل وذقان[6] .

كما وصف بشر بن أبي خازم قوماً محاربين بأنهم ترآوْا بين النخيل يشبهون علاها ركن أبان الأخضر ويشير إلى ركن أبان الأسود . لأن العرب تطلق الخضرة على السواد . فقال[7] :

(١) بنو العدان : من بني أسد .
(٢) قعيد كما : كما تقول العرب : عمرك .
(٣) «الحيوان» ج ١ ص ١٦٨ .
(٤) مختصر كتاب «البلدان» لابن الفقيه ص ٢٤١ .
(٥) حرا الجبل المشهور قرب مكة المكرمة .
(٦) «النقائض» ج ٢ ص ٨٩٥ .
(٧) ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩٨ .

تراءَوْا لنا بين النخيل بعارضٍ ... كركن (أبان) مَطلعَ الشمس أخضرا

وقال ابن أبي حصينة[1] :

ولو أني شكرتُكَ كُلَّ شكرٍ ... لما استقصيت ما ضِمن الجنانُ

ولو حمّلتني ركني (أبانٍ) ... لأثقلني جميلك لا (أبانُ)

وقال الأخطل من قصيدة له يذكر موازنة جرير والفرزدق[2] :

فلقد تجاريتُمْ على أحسابكم ... وبعثتُم حَكَماً منَ السُّلطان

فإذا كليبٌ لا تُوازن دارماً ... حتى يوازن حزرم بأبان

وحزرم جبل صغير فوق الهضبة في ديار بني أسد[3] . ولعله الجبل الصغير الذي يسمى الآن : القنينة . ويقع إلى الغرب فوق أبانين كما سيأتي في حرف القاف .

فهذه أمثلة على الأشعار التي ورد فيها ذكر (أبان) بلفظ الإفراد وهي — كما ترى — أشعار من عدة قرون من الجاهلية إلى عهد العباسيين .

وقد سمى العرب أبناءهم بأبان ، وربما كان بعضها قد سمي باسم (أبان) جبلنا هذا أحد أبانين ، يدل على ذلك قول الجاحظ : قال الأول :

إنَّ العرب قد تسموا أيضاً بأسماء الجبال ، فتسموا بأبان ، وسَلْمَى .

وقال آخرون : إنما هذه أسماء ناسٍ سَمَّوا بها هذه الجبال . وقد كانت لها أسماء تُرِكَتْ لثقلها أو لعلة من العلل[4] .

فأنت ترى في هذين القولين الاختلاف في اسم (أبان) هل كان علماً لشخص سمي به الجبل ، أي : كان سابقاً على تسمية الجبل ، وتركت تسمية الجبل الأولى لسبب من الأسباب ، أم أن الجبل سمي باسم شخص يقال له أبان .

---

(١) ديوانه ج ١ ص ١١٩ .

(٢) ياقوت «حزرم» .

(٣) راجع لهذه القصيدة وتفصيل سببها «النقائض» ج ١ ص ٤٩٤-٤٩٥ .

(٤) «الحيوان» ج ١ ص ٣٢٦ .

ولكن ابن دُرَيْد يذكر أن اسم (أبان) للرجل قد اشتق من أسم أبان من الجبل حيث قال :

واشتقاق (أبان) من اسم الجبل المعروف ، وهما أبانان : أبان الأبيض ، وأبان الأسود . ثم أنشد قول مهلهل بهذه الصيغة :

لو بأبانين جاء يخطبها ضُرِّجَ ما أنت خاطِبٍ بدَمِ[1]

وقد كان (أبان) لشهرته عند القدماء عَلَماً تضبط به المواقع القريبة منه أو المناوحة له . وهذه أمثلة على ذلك .

قال ياقوت : برَاعيمُ ، هي أعلام صغار قريبة من أبان الأسود .

وقال أيضاً : بَدْبَد بالفتح والتكرير : ماءٌ في طرف أبان الأبيض الشمالي .
أقول : الشمالي صفةٌ لطرف وليس للأبيض لأن أبان الأبيض الذي يسمى الآن (أبان الحمر) أي — الأحمر هو الجنوبي من أبانين بالنسبة إلى مجرى وادي الرمة .

وقد نقل ياقوت قوله ذلك من كتاب لغدة الأصبهاني فهو فيه بنصه[2] . أو قد نقلا معاً من مصدر مشترك بينهما .

وقال لغدة الأصبهاني : وأبان الأسود به قرية يقال لها الشركة لبني أسد ، وبها عين أجراها محمد بن عبد الملك بن حبيب الفقعسي[3] .

وقال الأصمعي : في بلاد بني أسد — يقصد من الجبال — الحبس والقنان وأبان الأبيض ، وأبان الأسود[4] .

أقول : الحبس يسمى الآن سمار بقيعا ، ويأتي ذكره في حرف السين والقنان أصبح اسمه « الموشم » .

---

(١) «الاشتقاق» ص ٧٧ . وسيأتي تفسير هذا البيت مع بيت آخر فيما بعد إن شاءالله .

(٢) بلاد العرب ص ٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦٧ .

(٤) ياقوت : رسم «الحبس» .

وسئلت امرأة من العرب القدماء أن تعد عشرة أجبال متواليات لا تتتعتع فيها[1] فقالت : أبان ، وأبان ، وقطن ، والظهران ، وسبعةُ الأكوام ، وطميّة ذات الأعلامُ وعليمتا رَمّان[2] .

وهذه الجبال كلها في المنطقة التابعة للقصيم ما عدا جبل رمان[3] . وسيأتي الكلام عليها في مواضعها إن شاء الله .

ويشبه قول هذه الأعرابية قول أعرابية محدثة وقد طلب منها أن تذكر أسماء اثني عشر جبلاً لا يبعد بعضها عن بعض كثيراً بدون أن تحتاج إلى كثير تفكير وشرط أن يكون كلامها مسجوعاً فقالت : أبان ، وأبانٍ ، والمقوقي ، وعمودان ، وكبشات الثمان[4] .

وقد أفردنا لكل منهما رسماً خاصاً به في هذا المعجم .

و (أبان) وما حوله من المراتع والمرابع ، بلد مريء طيب الهواء ، عذي التربة . يتغنّى به أهله ومن حل فيه ، ويذكرونه إذا ارتحلوا عنه ، ولو كانوا قد ارتحلوا إلى مكان أكثر خصباً ، وأوفر مرعى ، فمكانة (أبان) في نفوسهم لا تعادلها مكانة ، وهواه في قلوبهم لا يمحوه هوى آخر .

نقلت العامة عن أحد شيوخ عنزة من آل هذال وكانت تلك القبيلة تَحُلّ أبان وما حوله من عالية القصيم فهجرت هذه البلاد تحت ضغط الحروب والمعارك التي نشبت بينها وبين القبائل الأخرى ، وقصدت العراق ، ولما سئل أحد شيوخها من آل هذّال عما إذا كان قد نسي (أبان) بعد أن وجد البلاد الخضراء الخصبة فأجاب : والله إنني لم أنس — ولن أنسى ما حييت — وقدة رمث في أبان .

وذلك لأن الرمث من شجر الحمض رائحة دخانه طيبة ، وهو لا ينبت إلا في

---

(١) تتتعتع أي : تتلعثم .

(٢) « بلاد العرب » ص ٧٧–٧٨ وياقوت : رسم « الأكوام » .

(٣) رمان : جبل مشهور في المنطقة الجنوبية الغربية من حائل فيه مثل عامي مشهور ذكرته في كتابي « الأمثال العامية في نجد » وهو « ظبي رمان برمان راغب » .

(٤) سيأتي ذكر هذه الجبال في رسومها من الكتاب إن شاء الله .

أرض مريْئة . قال بعض العلماء القدماء : الرمث وقود وحطب حار ، ودخانه يَنفع من الزكام . وقول ابن هذال هذا في الرمث يشبه قول أعرابي قديم :

قال الأطبـــاء : ما شفيك ؟ قلت لهم دخانُ رمث من التسرير يشفيني[1] .

وقال مشعان بن هذال من قصيدة طنانة له بالعامية تسمى (الشيخة) :

لا بدّ ما حِنّا لأبانـــات زوّار بظعاين تسبق ركـــاب المعابير[2]

وكان القدماء من أهل أبان إذا بعدوا عنه اشتاقوه ، وحنُّوا إليه ، وأودعوا ذلك أشعارهم وآثارهم . كما قال المرار بن سعيد الأسدي يتشوق إلى أبان . وهو بعيد عنه في الرُّها في الجزيرة بين الموصل والشام[3] :

بُرِئتُ من المنازل غير شـــوقٍ إلى الدّارِ التي بلوى أبـــان
ومن وادي العُنانِ ، وأين منيَ بدارات الرُّها وادي العُنـــان ؟

والظاهر أن مراده بلوى أبان طرف (عريق الدسم) وبوادي العنان الفويلق وسيأتي ذكر كل منهما في موضعه إن شاءالله .

وقال أعرابي من بني كلاب وذكر اللوى أيضاً مع ذكر أبان[4] .

ألا ليتَ شِعْري ، هل تغيّرَ بعدنـــا معارفُ ما بـــين اللّـــوى وابان ؟
وهل زايـــل الرّيّان بعـــدي مكانه ؟ وغوْلٌ ، ومَنْ يبقى على الحَدَثانِ[5]

وحدث أبو العباس المبرد قال : كان بعض الأعراب يقطع الطريق ، فأخذه والي اليمامة في عمله ، فحبسه ، فحنّ إلى وطنه فقال :

---

(١) التسرير : هو وادي الرشا في الوقت الحاضر .

(٢) حنا : نحن . والمعابير : الغزاة . يقولون في لغتهم العامية : القوم عبروا أي غزوا. والظعاين في الفصحى والعامية : النساء على الإبل في الهوادج .

(٣) ياقوت : رسم «دارة الرها» وانظر «الأغاني» ج ١٠ ص ٣٢٣ .

(٤) «صفة جزيرة العرب» ص ١٤٥ .

(٥) أسم لعدة جبال ومواضع والظاهر أنه يريد به في هذا الموضع « وادي الريان » الذي أصبح يسمى الآن « مبهلا » كما سيأتي ذكره في حرف الميم . أما غول فلا يزال باقياً على تسميته القديمة ، وسيأتي في حرف الغين بإذن الله .

أقول لبوّابيَّ والسجنُ مغلقٌ   وقد لاح برقٌ : ما الذي تريان ؟
فقالا نرى برقاً يلوح ، وما الذي   يشوقك مِنْ برقٍ يلوح يمان ؟
فقُلتُ : افتحا لي البابَ انظرُ ساعةً   لعلي أرى البرق الذي تريانِ
فقالا : أمِرْنا بالوثاق ، وما لنا   بمعصية السلطان فيك يدا
فلا تحسبا سجن اليمامة دائماً   كما لم يَدُمْ عيش لنا بأبانِ[1]

وقال الجاحظ : زُوِّجَتْ من أبان في بني كلب امرأة ، فنظرت ذات يوم إلى ناقة قد حنّت ، فذكرت بلادها ، وأنشأت تقول :

ألا أيها البكر الأباني إنّني   وإياك في كَلْبٍ لمُغْتربانِ
تَحِنُّ وأبكي ذا الهوى لصبابة   وإنا على البلوى لمصطحبان[2]
وإنَّ زمانا أيُّها البكر ضمّني   وإيّاك في كلب لشَرُّ زمان[3]

وأبان مشهور في الزمن القديم والحديث بمناعته ، وصعوبة إدراك من لاذ به .

أمّا في القديم فإنَّ في هذا الشعر وتلك القصة التي نذكرها بعده ما يدل على ذلك .

قال شيبان بن دِثَار النّمَريُّ من أبيات[4] :

من يكُ سائلاً عني ، فإنني   أنَا النّمَريَّ جارُ الزِّبِرْقانِ
طرِيدُ عشيرة ، وطريد حَرْبٍ   بما اجْتَرَمَتْ يدي ، وجنى لساني
كأنني إذ نزلت به طريداً   حللتُ على الممنّع من أبان

يقول : كأنني إذا نزلت بالزبرقان نزلت في الأماكن المنيعة من جبل أبان .

وذكر أبو جعفر محمد بن حبيب قصة قران بن يسار من بني فقعس من أسد فذكر أنه عقر إبلاً ، وقتلَ غلاماً ، وقطع عرقوب امرأة يقال لها ليلى ، وهرَبَ

(١) ياقوت : « أبان» .
(٢) كذا وفي ياقوت : تحن وأبكي ، إن ذا لبلية .
(٣) « الحنين إلى الأوطان » ص ٢٦ .
(٤) « النقائض » ج ٢ ص ٧١٤-٧١٥ . « الأغاني» ج ٢ ص ١٩١ (دار الكتب) .

فاختفى ، قال ابن حبيب : وخرج قُرّان حتى سند[1] في أبان الأبيض وهو جبل بين بني أسد وقيس ، وهو كثير الأروى[2] وضروب الوحش والماء ، فجعل يتبع الوحش فيرميها . ويقتلها ، ويأكل من لحومها ، ويشرب من ذلك الماء . فبينا هو كذلكَ ذات يوم ، إذا هو بالنمر قد طلع عليه ، فتعرض له . كأنه يريده ، فانتزع نبْله فأراه إياها . فبَسط النمر أظفاره فأراه إياها ، فاستَلّ قران سيفه ، فكشّر النّمر عن أنيابه ، ثم أغمد قرّان سيفه ، فخرج النمر مُوَلّياً . ومضى قرّان ، فاتبعه النمر ، فلما نظر إليه قران رجع النمر ، فمضى قرّان فرجع النمر في أثره ، فالتفت إليه قران ، فولى النمر ، فعرف قرّان أنه يدعوه ، وقران يومئذ جائع قد أخفق من الصيد قبل ذاك . فاتبعه قرّان ، والنمر يمشي قدامه ، فوجد أروية[3] قد دقّ النمر عنقها ، فذبحها قرّان ، والنمر ينظر حوزة منه ، ثم أقدح قرّان ناراً ، فاشتوى ، وقطعها ، وجعل يلوح على النار منها ، ويرمي به إلى النمر ثم قَدّد[4] بقيتها . فكانا كذلك ، إذا اصطاد قرّان شيئاً أطعم منه النمر ، وإذا قتل النمر شيئاً أرشد إليه قرّان ، وكان لهما ردهة[5] يردانها ، فإن ورد النمر تأخر قرّان حتى يلغ من الماء ، ويتمرغ فيه ، ثم يخرج فيصدر ، ويرد قرّان ، وإن ورد قرّان قبله تأخرَ النمرَ عنه حتى يشرب قرّان ويغتسل ، فقال قرّان في ذلك ، وكان له أخ بالشأم يقال له الجون بن يسار وهو يصف النمر من أبيات :

توكّلت الأرْوى لنا بطعامنا ... كِلانا له منها شواء مُرَعْبَلُ
كِلانا عدُوٌّ لو يرى في عدوه ... مهزَاً ، وكلٌ في العداوة مجمل
إذا ما التقينا كان أدنى كلامنا ... صُمَاتٌ وطرف كالمعابل أطحل

قال ابن حبيب : واستعدى الشمردل : صاحب الإبل التي عقرها قران

(١) سند : صعد .
(٢) الأروى : أنثى الوعول .
(٣) الأروية : الأروى . وهي أنثى الوعل .
(٤) أي جعله قديداً واللحم القديد هو المعروف عند أهل نجد باسم (القفر) .
(٥) الردهة : النقرة في الصخرة يتجمع فيها ماء السماء .

على بني مقعس رَهْط قران – عثمان بن عفّان رضي الله عنه – فغلظ عليهم عثمان فغرموها للشمردل[1] .

إن هذه القصة التي وقعت في صدر الإسلام في خلافة عثمان رضي الله عنه . وسجلها ابن حبيب بعد حوالي مائتي سنة من ذلك هي هامة في الدلالة على حالة جبل أبان الأبيض (الأحمر) في أذهان الذين رووها أو وضعوها في ذلك الوقت ، وخاصّة ما ذكروه من كثرة الوحش فيه كالأروى ووجود النمر .

ثم كون أبان الأبيض (الأحمر الآن) قد منع بصوبته رجلاً قتل غلاماً وجرح امرأة وعقر إبلاً كثيرة .

وقبل هذه الحادثة وفي سياق قصة يوم الردهة التي تسمى الآن أم رديهة[2] ويوم منعج الذي يسمى الآن (ملعج) وهو دخنة وهو يوم من أيام العرب في الجاهلية وقعت حادثة شبيهة بهذه نقتبس شيئاً منها ، وسيأتي أول القصة في رسم (أم ردهة) فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قال الأصبهاني : ثم إن رياح بن الأشل – قاتل شأس بن زهير العبسي – لحق بخاله من بني الطمّاح بن أسد بن خزيمة ، فكان يكون الليل عنده ، ويظهر في (أبان) إذا أحسَّ الصُبْحَ ، يرمي الأروى إلى أن قال : وأخذ رياح رمحي شخصين أرادا قتله وسلبهما بعد أن قتلهما وخرج حتى أسند إلى أبان[3] .

وأما في الزمن الحديث فهناك مثلان عامّيان يدلان على ذلك .

أولهما ، قيل أن ابراهيم باشا لما احتل الدرعية أخذ يقبض هو وأعوانه على كبار أهل نجد ، ولم ينج منه إلا من اختفى ، وقد بلغ ذلك الشيخ قرناس قاضي مدينة الرس وشيخها ، وكان أحد زعماء الرس الذين قاوموا ابراهيم باشا وأخّروا زحفه على الدرعية أربعة شهور . فأخذ الشيخ يتخوف من أن يعتقله ابراهيم باشا ويؤذيه

---

(١) «المحبر» ص ٢١٥–٢١٧ .

(٢) سيأتي ذكرها فيما بعد .

(٣) «الأغاني» ج١١ ص ٧٧–٧٨ (دار الكتب) .

ولكنه لم يدر ماذا يفعل ، وبينما كان يصلي بالناس صلاة الفجر قرأ مصادفة الآية الكريمة : « يقول الإنسان يومئذ أين المفر » وخطر بباله ما عليه الحال فأخذ يكرّرها فإذا بأحد داخلي المسجد يسمع ذلك فقال قبل أن يدخل في صلاته : (إلى أبان الحمر) ! أي المفر إلى أبان الأحمر (الأبيض قديماً) .

قالوا : فلما سلم الشيخ من صلاته استعاد من الرجل كلمته فأعادها على مسمعه ، فالتجأ إلى مكان حصين ولم يخرج منه حتى رحل ابراهيم باشا عن نجد ، ويقال: إن المكان الذي التجأ إليه هو « النمرية » في (أبان الأسود) .

وثانيهما : يقال إن الإمام عبدالله بن سعود ــ رحمه الله ــ قبض عليه ابراهيم باشا ، وأرسلهُ وبعض حاشيته مع سرية من سراياه القوية لكي ترحله إلى مصر ثم إلى اسطمبول كما حدث فعلاً . كانوا يمرون في طريقهم إلى المدينة بأبان الأحمر في آخر سنة ١٢٣٣هـ ، وكان الوقت ليلاً وكان مع الإمام عبدالله بن سعود أحد رجال حاشيته المخلصين ، ويدعى ونيّان ، فقال كأنه يحدث الإمام عبدالله ورفقته أحاديث السفر المعتادة : يا إخواني ، إنني قبل سنوات كنت مارًّا بأبان الأحمر هذا الذي عن يسارنا فرأيت قطيعاً من الوعول فأطلقت نار بندقيّي على أحدها فجرحته جرحاً بليغاً بدليل أثر الدماء التي رأيتها على الأرض فاتبعته ولكنه لجأ إلى أبان الأحمر ، ودخلت الجبل خلفه ، فدهشت لسعته ، وصعوبة مداخله ، ومناعة من يلتجيء إليه ، إذ أنّني لم استطع الاهتداء إلى الوعل الجريح بعد أن دخل في شعاب (أبان) . وكان بذلك يوحي بفكرة الالتجاء إلى أبان الأحمر إلى الإمام عبدالله بن سعود ولكن الإمام لم ينتبه إلى ذلك ، ولا يستطيع ونيّان هذا أن يفصح عن قصده خوفاً من الحراس والجنود الذين معهما من الأعداء .

قالوا : فلمّا ابتعدد الإمام عبدالله بن سعود عن جبل أبان بحيث لا يمكنه الإلتجاء إليه . ذكر ما كان يرمي إليه ونيّان من ذكر قصة الوعل الجريح على مسامعه ، ولكنه لا يمكنه فعل ذلك ، فقال مخاطباً لرجل الحاشية الأمين : فاتت يا ونيّان . فأصبح قوله ذلك مثلاً سائراً في أهل نجد ، يقولون للأمر الذي لا يمكن تداركه : (فاتت يا ونيّان) .

مثل آخر : وهناك مثل عامي آخر يدل على عظم قدر أبان ، في نفوس من ضربوا المثل وهم العامة من أهل القصيم إذ يقولون ، (تولّد أبان وإلى سِحْبلَه)[١] يضربونه للحدث يظن به الخطر وعظم القدر فإذا به يسفر عن شيء تافه حقير وهو مماثلٌ للمثل الفصيح ، (تمخض الجبل فولد فأراً) .

مثل فصيح : وليس كل ما ورد في أبان أمثال عامية بل هناك مثل فصيح يدل على عظم قدر أبان — وهو : أرْزَنُ مِنْ أبان — ذكره الإمام حمزة الأصبهاني[٢] وأرزن من الرزانة .

أبانات : هما أبانانِ الأبيض والأسود المتقدم ذكرهما برسم أبان ، تسميهما العامة (أبانات) بصيغة الجمع وهما جبلان اثنان ، كما كان الأقدمون يقولون فيهما (أبانين) وتثنيتهما حقيقة كما سيأتي في دفْع زعم من زعم غير ذلك . وشواهد جمعهما بلفظ (أبانات) من الشعر العامي كثيرة جداً ، من ذلك هذا البيت الذي قاله بعضهم ملغزّاً في وادي الرمة :

ومشرِّع يَشْرِبْ بحوض المدينهْ　　　رجليه بالبصرة ، وصدره بأبانــات[٣]

وقال الشاعر العامي عبدالله بن سبيّل الباهلي من قصيدة غزلية[٤] :

ذكرتْ مَلْهُوفَ الحشا من عَنايَه　　　يوم الركايب عَقَّبَنْ خشم (أباناتْ)[٥]

---

(١) إلى : إذا . والسحبلة عند العامة : دويبة برية تشبه سام أبرص ولكنها لاتؤذي وقد شرحنا هذا المثل في كتابنا : « الأمثال العامية في نجد » .

(٢) الدرة الفاخرة ج ١ ص ٢٠٩ .

(٣) سيأتي شرح هذا البيت في رسم « وادي الرمة » في حرف الواو ، كما تأتي شواهد لأبانات في عدة رسوم منها رسم (سواج) .

(٤) «ديوان الشبط» ج ١ والشاعر عبدالله بن حمود بن سبيل . شاعر عامي رقيق الحاشية ، عذب الألفاظ أكثر شعره في الغزل ، من القلائل الذين بقوا في بلادهم منذ العهد الجاهلي إذ هو باهلي من أهل (نف) التي كانت لباهلة من ذلك العهد حتى العهد الأخير توفي عام ١٣٥٧هـ .

(٥) عقبن : تجاوزن . والخشم : الأنف، ويراد به هنا: ما أشرف من الجبل أو ركنه . وملهوف الحشا: ضامره . من عناية ، من عنائي ، والهاء هنا : هاء السكت .

ليته رديفٍ لي على الهِجِن هَيْهاتْ أمّا معي ، وإلاَّ رديف اخويايه[1]

بل لم يقتصر استعمال أبانين بصفة الجمع (أبانات) على العامة بل استعمل ذلك المؤرخ ابن بشر رحمه الله ، قال : دخلت سنة ١٢٣٢هـ والعساكر المصريون في الحناكية[2] مع ابراهيم باشا ، ومعه البوادي المذكورون[3] وهو يغير على بوادي نجد ، فأغار على الرحلة . . من حرب عند (أبانات) الجبلان المعروفان في نجد ، فأخذهم ، وقتلهم[4] .

قال بشر بن أبي خازم الأسدي[5] :

ألا بأن الخليـط ولم يُـزاروا وَقلبكَ في الظّعائن مستعار[6]

أسائِل صاحِبي ، ولقـد أراني بصيراً بالظعائن حيـث صـاروا

تَؤمُ بها الحُداةُ مِيـاه نخـلٍ وفيها عن (أبانين) ازورار[7]

وقال مَزَرِّد بن ضرار الذبياني من قصيدة يطلب فيها إلى رجل من غطفان اشترى إبلاً من غلام اسمه خالد كان قد جاور مع رهطه بني ثعلبة في بني عبدالله بن غطفان[8] :

فردُّوا لِقاحَ الثعلبيِّ أداؤهـا أعَفُّ وأتقى من أذى غير واحد

فإن لم ترُدُّوها فإنَّ سماعَهـا لكم أبَداً مِنْ باقيات القلائِد

(١) الهجن : النوق . وخويايه : رفقائي في السفر ، جمع خوي ، أي المؤاخي في السفر . والهاء للسكت كما في البيت الأول .

(٢) الحناكية : قرية تبعد عن المدينة ١١٩ كيلا شرقاً يمر بها طريق القصيم إلى المدينة وكانت تسمى قديماً « نخلا » وكان واديها يسمى بطن نخل ، وهو من منازل حاج العراق إلى المدينة .

(٣) ذكر في السنة التي قبلها أن البوادي الذين مع ابراهيم باشا هم حرب، ومطير وعتيبة ، والدهامشة من عنزة ، وغيرهم .

(٤) عنوان المجد ، ج ١ ص ١٩١ .

(٥) ديوانه ص ٦١-٦٢ .

(٦) الخليط : الصديق المخالط ، والظعائن : جمع ظعينة وهي المرأة في هودجها .

(٧) تؤم : تقصد ، والحداة : جمع حاد . ونخل: هي تسمى الآن «الحناكية» : وأزورار : انحراف :

(٨) «المفضليات» ص ٧٨ .

وما خالدٌ منّا وإن حلّ فيكمُ (أبانين) بالنائي ولا المُتَباعِدِ [1]

وورد ذكر أبانين مُحلّى بالألف واللام في شعر الشمّاخ[2] :

كأنّ رَحْلي على حَقْبَاء قَارِيةُ أحْمَى عليها (الأبانين) الأراجيل[3]
حامتْ ثلاثَ ليالٍ ، كلما وردَتْ زالت لهـا دونه منهم تماثيـلُ

وقال ناهضُ بن ثُومَه الكلابي من فصحاء الأعراب في الدولة العباسية[4] :

أقامَتْ نميرٌ بالحمى غير رغْبةٍ فكان الذي نالت نُمَيْرُ من النّهْبِ
رُؤوسٌ وأوْصَال يُزايل بينهـا سِباعٌ تَدَلّتْ من (أبانين) والهضب
لنا وَقَعَاتٌ في نُمَيْر تَتَابَعَتْ بِضَيْم على ضيم، ونكبٍ على نَكْبِ

وأنشد الهجري لرجل من بني نُمير يذكر ناقته من أبيات[5] :

فلن تردي ماء الطّويّ ولن تري (أبانين) ما غنّى الحمام الهواتفُ
فكم من حبيبٍ قد أزَرْتِ حبيبـه وذي كربةٍ جنّبْتِهِ وهو خائف

وقال المبرد : قال مهلهل بن ربيعة وكان نزل في آخر حربهم — حرب البسوس — في جَنْب بن عمرو بن عُلَةَ بن جلْد بن مالكٍ وهو مَذْحجٌ ، وجَنْبٌ حيٌّ من أحيائهم وضيعٌ ، فخطِبتِ ابنته ، ومُهِرَتْ أدُماً — أي جلوداً — فلم يقدر على الامتناع ، فزوجها ، وقال :

أنْكَحَها فقدُها الأراقمَ فـي جَنْبٍ وكان الحِبَاء من آدَم[6]
لو بأبانـين جـاء يخطبهـا ضُرِّجَ ما أنف خاطبٍ بـدم[7]

(١) يقول : خالد منا — بني ذبيان — وإن نزل أبانين فهو غير بعيد منا .

(٢) ديوانه ص ٢٨٠ .

(٣) الحقبا : أتان الوحش التي في بطنها بياض ، وقاربة : طالبة للماء ليلاً . والأراجيل : الرجالة من الصيادين .

(٤) « الأغاني » ج ١٣ ص ١٨٥ (دار الكتب) .

(٥) مجلة «العرب» م ٥ ص ١٠٨ .

(٦) الأراقم : رهط مهلهل من تغلب ، والحباء : العطاء . والمراد هنا : المهر . والأدم : الجلد .

(٧) ضرج : لطخ ومازاندة . والبيتان في «الكامل» ج ٣ ص ٨١٥ « والأغاني » ج ٥ ص ٥١ .

وقال الحربي : ثم ترى أبانين من يَسارك ، وهما جبلان أسودان ، محددا الرؤوس كالسنان وهما اللذان يقول فيهما مهلهل وأورد بيته الأخير ثم أنشد قول الشاعر :

أقْفَرَ من خولة ساقُ الفروين فَقَطَنٌ ، فالرُّكْن من (أبانين)[1]

وقد ورد ذكر (أبانين) في حروب الردة ، قال البلاذري : قالوا : وأتى خالد بن الوليد زمان[2] و (أبانين) وهناك فلٌ (بزاخة)[3] فلم يقاتلوه ، وبايعوه[4] .

أوهام حول أبان وأبانين : قال ياقوت : أبان : بفتح أوله وتخفيف ثانيه وألف ونون : أبانُ الأبيض ، وأبانِ الأسود ، فأبان الأبيض شرقي الحاجر ، فيه نخل وماء يقال له أكرهُ ، وهو العلم لبني فزارة وعبس : وأبَانُ الأسود : جبل لبني فزارة خاصة وبينه وبين الأبيض ميلان .

أقول : إن في هذا وهماً ظاهراً إذْ أبان الأبيض الذي يسمى الآن الأحمر ليس شرقاً من الحاجر بل بعيد عنه ، وهو جبل معروف مشهور . وإذا أخذنا بعد المسافة جانباً فإننا نجد أن أبان الأحمر يقع إلى الجنوب الشرقي من الحاجر . وعبارة ياقوت محرفة ، وهي تتحدث على العلم علم هتيم — على ما سيأتي في رسم هذا .

وقال نصر الإسكندري : أبان : جبل بين فيد والنبهانية وهما أبانان كلاهما أسود محدد الرأس كالسنان . وقيل : أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهما في ديار بني أسد وقيل هما لبني مناف بن دارم من تميم[5] .

وسيأتي ما في هذا القول فيما بعد .

ونقل ياقوت عن أبي سعيد السُّكري قولَه بعد أن أورد أبيات بشر بن أبي خازم المتقدمة التي منها قوله :

---

(١) « المناسك » ص ٦٠٩ .

(٢) رمان : جبل تقدم الكلام عليه .

(٣) بزاخة : قريبة من جبل رمان راجع بحثاً وافياً عنها للأستاذ حمد الجاسر في مجلة « العرب » .

(٤) « فتوح البلدان » ص ٣٥ .

(٥) «الأمكنة والمياه» الورقة ٤٤/ب (مخطوط) .

تــؤم بها الحــداة مياه نَخْــل وفيها عــن أبانــين ازْوِرَارُ

قال : أبان : جبل معروف . وقيل (أبانين) لأنه يليه جبل نحو منه ، يقال له شَرَوْرَى ، فغلبوا أباناً عليه ، فقالوا : أبانان ، كما قالوا : العُمران لأبي بكرٍ وعمر ، وله نظائر . انتهى كلامه .

وأعتقد أن هذا الكلام لا يحتاج إلى رَدٍ ، لسببين :

الأول : أن أبانين معروفان في القديم والحديث يسمى أحدهما في القديم أبان الأبيض والآخر : أبان الأسود . ويسميان في الحديث : أبان الأسمر وأبان الحمر أي الأحمر .

والثاني : أن شرورى جبل معروف مشهور وهو بعيد عن القصيم وعن أبانين إذ يقع في ديار بني سليم قريباً من (مهد الذهب) قال الأستاذ حمد الجاسر : يسميه بعضهم الآن : هضب الشرار ، وهضب شراراً — من قبل قلب الواو ألفاً ومثله ما نقله ياقوت عن بعضهم من قوله : أبانان : تثنية أبان ومتالع . وهما بنواحي البحرين ولا يحتاج القول إلا أن أبان في القصيم ومتالع ليس أحد أبانين بل هو يقع إلى الجنوب منهما كما قال أبو علي الهجري : متالع : جبل أحمر علم من الأعلام، حذاء إمَّرَة ، عن يسار الخارج من البصرة[1] ومن المعلوم أن إمَّرة تقع جنوباً عن أبانين ، ومتالع هذا يقع إلى الجنوب منها . فكيف يكون أحد أبانين .

وقال المحبِّي في باب المثنى تغليباً : أبانان جبلان . . . وإنما قيل : أبانان ، وأبان واحدهما والآخر متالع كما يقال العمران قال لبيد :

درس المنــا بمتالــع فأبــان

وقال أبو نصر : أبانان جبلان جبل أبيض لبني فزارة ، وجبل أسود لبني ذبيان وفيه ماء لبني أسد يقال له محيا ، وهو ماء عذب يمر بينهما واد يقال له الرُّمَّة بضم الراء وتشديد الميم والرَّمة بفتح الراء مخفف الميم[2] .

---

(١) ابو علي الهجري ص ٣١٠ .

(٢) « جني الجنتين » ص ١١٨ وعلق ناشره على ذكره لأبانين في باب التغليب بقوله : كان حق هذا ألا يذكر في باب التغليب لأن كلا من الجبلين سمي أبان على ما نقله الرضي . وهذا صواب .

أقول : الظاهر أنه جمع بين عبارات المتقدمين السابقة فأصبح في كلامه شيء من الخلط . أما الماء الذي ذكره باسم محيا فهو يعني ماءة محيّاة التي أصبح اسمها (محيوة) وسنأتي على ذكرها في حرف الميم إن شاء الله وأما بنو ذبيان فلا يعرف أن أحد أبانين كان لهما في صدر الإسلام كما سبقت عبارات المتقدمين في ذلك، إلا إذا كان ذلك في القرون اللاحقة لذلك ، ويرد عليه أن علماء البلدانيات كانوا يريدون بقولهم أن المكان الفلاني لبني فلان أنه كان ذلك في صدر الإسلام .

ثم على أن التغليب لا يرد إلا إذا كان أحد المسميين مغايراً لأسم الآخر مثل العمرين لأبي بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر. أما إذا اتحدا في الإسم واختلفا في الصفة مثل أبان الأسود وأبان الأبيض، فإن تثنيتهما تكون تثنية صحيحة لاتغليباً ، تماماً كما تقول لرجلين أحدهما أسود والآخر أبيض : الرجلين ولا يكون ذلك تغليباً .

ونقل ياقوت عن أبي بكر بن موسى قوله : أبان : جبل بين فيد والنبهانية أبيض ، وأبان جبل أسود ، وهما أبانان ، وكلاهما محدد الرأس كالسنان وهما لبني مناف بن دارم بن تميم بن مر[1] .

أقول هذا فيه عدة أوهام . أولها أن أبان ليس بين فيد والنبهانية إذ فيد يبعد عن النبهانية أكثر من ثلاثة أيام للإبل إلى الشمال الشرقي وأبان إلى الغرب من النبهانية ملاصقاً لها . وثانيهما : أنهما ليسا محددي الرأس كالسنان . وثالثها : أننا لا نعرف عن أحد من المسافرين ذكر أنهما من منازل تميم . وقد نقل ذلك عن كتاب نصر الذي سبق لنا ذكر نصه .

وعلق الدكتور غرة حسن على بيت بشر بن أبي حازم :

تؤم بهـا الحداة ميـاه نخـل ۝ وفيهـا عن أبانـين ازورار

فقال : أبانان : جبلان وهما أبان وسلمى . فغلبوا أبانا في التثنية ، كما قالوا : العمرين يعنون أبا بكر وعمر ، والقمرين يريدون الشمس والقمر[2] .

---

(١) رسم «أبان» .

(٢) ديوان بشر بن ابن حازم حاشية ص ٦٢ .

أقول : وهذا وهم لا يحتاج كبير رد لأن جبل سلمى أحد جبلي طيء يقع بعيداً من أبان بحوالي مسيرة يومين للإبل ، بالإضافة إلى ما سبق من كون أبانين ، جبلين معروفين في القديم والحديث وبأنّ وادي الرمة يجري بينهما .

ويرد على ذلك قول الطرماح من قصيدة في ديوانه الذي حققه الدكتور عزت حسن نفسه[1] :

أضَوء البرق يلمع بين سلمَى ... وبين الهَضْبِ من جبلي أبان

فأوضح أن هناك جبلين يقال لكل واحد منهما أبان ، وأنهما غيرَ سلمى .

وقد تنبه الدكتور لذلك ، فعلق على هذا البيت بقوله : سلمى : أحد جبلي طيء ، وهما سلمى وأجأ . وجبلا أبان : هما أبانان أبان الأبيض ، وأبان الأسود ، بينهما نحو فرسخ ، ووادي الرمة يقطع بينهما . انتهى . وهذا صواب كله .

وقال الأستاذ عمر رضا كحالة : وبين مكة والمدينة ، سلسلة متصلة من الجبال... وتعلو في الجنوب الشرقي من مكة إلى ارتفاع غير قليل ، فيتألف من ذلك سلسلة جبل كرا وإلى الشمال من هـذا يشرف جبل حضن على سهل ركبة إلى جهة الشرق منه ، ثم في الجهات الجنوبية جبال السعدية والأبانين والعقبة ، وجبال عسير بكاملها[2] . وهذا تخليط ظاهر . فأين أبانان من ركبة أو عسير أو العقبة ؟ ومصدره في ذلك « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة[3] .

المبحث صلة

الرياض : محمد بن ناصر العبودي

---

(١) ديوان الطرماح ص ٥٤٩ .

(٢) جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٧٢ .

(٣) ص ٤٨-٤٩ .

في رحاب الحرمين

مع ابن عبد السلام الدّرعي في رحلته

— ٨ —

في الطريق إلى المدينة :

من مكة إلى رابغ : قال في الرحلة الكبرى :

وخرج من مكة في ضحوة يوم الإثنين ٢٦ ذي الحجة (١١٩٧هـ) حين أذن الركب المصري بالرحيل ، في يوم شديد الحرّ ، مع كونه السابع في فصل الشتاء فنزل عشية مع الركب في أسفل الوادي .

وهو يُعْنَى بتسجيل ما يسمعه من التعبيرات الفصيحة ، ويقول في موضع آخر بأن عرب إفريقية أفصح من عرب الحجاز لكثرة اختلاط هاؤلاء بغير العرب ، وبعد أولئك عن الإختلاط — ومما سجل في منزله هذا قلت لعربيّ : أمْسِك الركاب لأعلوَ ظهر دابتي . فقال مفصحاً : لسْت بفارغ لك . فقالت عربية إلى جنبه منكرة من قوله ، مفصحة عن جهله : ليس كل الناس يفعل الجميل !

ثم ذكر ارتحالهم إلى عسفان، وذكر ما جرى على أحد رفقائه ويدعوه المرابط السيد بركات من ذرية الشيخ أبي محمد صالح المغربي وولده من سكان بسكرة النخيل (؟) في طائفة وافرة من حجاجهم حوله مع ذالك ، وخدم ودواب ومَحَافٌ ، فقد أخذه بنو سعد حينما تقدم ومن معه أمام الركب المصري غير بعيد ليلحق بالركب الطرابلسي ، فخرج هو ومن معه من جميع ما بأيديهم من الأموال والدواب . وقتل اللصوص اثنين من أصحابه ، وجرحوا عشرة .

ومن عسفان إلى قُديد وفيه لقي بعض أهل سُوَيس ممن تقدم مع الركاب المغربية مجرداً من ثيابه تسيل منه الدماء مسلوباً ما معه ، زعم أنه نام خلف الركب فوقع عليه بنو سعد .

ومما يلاحظ أن المؤلف يُسَمي قطاع طريق الحج منذ دخوله الحجاز بني سعْدٍ ولا يذكر من أي القبائل هاؤلاء .

في قُدَيد :

ومما سجل وهو في قديد قوله : وبه أنشدني لاشرابي المذكور لما أضَرَّ به الجوع لابن الراوندي[1] ، وقد جاع وهو بمكة أيّاماً ، فلقي غلاماً وبيده تيس من المعز ، وهو يطعمه لوزاً وبندقاً ، فأنشأ يقول :

تُؤتى التيوسُ رِزْقَهــا بسهولــة ... وذَوُوْا الفصاحة رزقهم مسجونُ
إن كانَ حرمَاني من أجل فصاحتي ... هَوِّنْ عليَّ ،من التيوسِ أكونُ ! !

في رابغ :

وبلغوا بلدةَ رابغ في الثلاثين من ذي الحجة ، وفي الليل — كما يقول المؤلف — : ذهب بنو سعد بمَرْحولٍ من الإبل وما عليه من الأحمال والبضاعة ، وسببه أن الركب رَيّضَ ، لئلا يدخل رابغ ليلاً على عادته من عدم دخول البنادر ليلاً ، مما يتضرر به من الأعراب وسراق الركب من الصعالكة في وقت اشتغال الناس بأسباب النزول ، فنام أربابها فجرى عليهم المقدور .

الخلاف مع العرب :

ثم ذكر اضطراب الآراء من الحجاج حول سلوك أيّ الطرق إلى المدينة بسبب الخلاف مع قبيلة حرب فقائل نمرُّ على الدرب السلطاني ، إلى بدر إلى الجُدَيدة إلى المدينة ، وقائل : ترجع يميناً من هنا على طريق الفروع — يقصد الفُرْع — كالشامي إذ رجع يميناً من الوادي على درب الليمون ، فراراً من شَرّ أعراب الجديدة والصفراء ، وما والاهما من أعراب حرب ، إذ عادتهم مع المصري إن وصل في الرجعة رابغاً ، أن يعطيهم عطاءهم المقرر لهم قديماً ، بعد إعطائهم الرهائن منهم ،

(١) في الهامش : أنظر ترجمته في « معاهد التنصيص على شواهد التلخيص » و (لاشرابي) كذا وردت وسيأتي باسم (أبي القاسم الشرابي) ص ٢٨٦ .

يُقيّدون ويحملون مع الركب إلى طيبة ، ثم منها إلى أن يأمَنَ ، فيطلقهم ويكسوهم ويعطيهم وِقْراً . وقد حضر هذه السنة رؤساؤهم برابغ . فلما تخيّل منهم الغدر بمَنْعهم من إعطاء الرهائن نودي بالليل في الركب – وهم يسمعون تَوْرِيَةً – : ألا إنّ السفر على القديم إلى بدر ، إلى الجُدَيدة . فادّلج الأعواب أمام الركب متحزبين ، ظانّين أن الأمر كما نُودي به – قال – : فلما أصبحنا صبيحة السبت الأول من المحرم (سنة ١١٩٨هـ) آذنوا بالرحيل على طريق الفروع – يقصد الفُرْع – وهي أضيق وأحرش وأطول وأقل ماء من السلطاني . وهي كما في تاريخ السمهودي الكبير طريق الحاج من قديم – ص ٢٨٣ – وهو يقصد كتاب : « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » ولكن الطريق الذي قصد السمهودي لا يمر بالفُرُع ، بل يمر بالأبواء – من الجُحفة . وبعد الأبواء يترك طريق الفُرْع يميناً ويتجه إلى السُّقْيا – أم البرَك الآن – ومنها إلى الرُّويثة . فالمنصرف – المسيجيد الآن – حيث يلتقي بطريق بدر والصفراء ، ثم الروحاء فالسيالة فالفرش – الفُريش الآن ، فملل فتربان فالبيداء فذي الحليفة – فآبار علي – فالمدينة .

أما طريق الفُرْع فيترك هذا الطريق بيساره فيفصل بينهما سلسلة الجبال قدس والعرج وورقان ، ولا يلتقي بهذا الطريق إلا بقرب المدينة ومن طريق الفُرْع فَرْعٌ يلتقي بهذا الطريق في الروحاء ، وقد فصلت الحديث عن هذه الطرق في موضع آخر .

بقيت كلمة حول تعدّي عربان الطريق على الحجاج وهو أمْرٌ لا يوجد عاقل يُسَوِّغُهُ ، غير أن مما تنبغي ملاحظته أن كثيراً من أمراء الحجاج يجهلون أحوال العُرْبان وعاداتهم وما هم عليه من فقر وحاجة ، وقد ألفوا منذ القِدَم أن يعيشوا بما هيأه الله لهم على أيدي الحجاج ، حتى بلغ بهم التواكل والجهل إلى درجة الاعتقاد بأن حياتهم متوقفة على ذالك فالطفل منهم ترقصه أُمُّهُ بمثل قولها :

أبو عيون لِجْلاجْ تكبر وتسرق الحاج

ومَثَلُهُم يقول : رِزْقُنا على الحاج ، ورزقُ الحاجَ على الله ، وحكام الحرمين

الشريفين يتخذون من أولئك العربان وسيلةً لنيل مآربهم من ملوك مصر والقسطنطينية ، فيرخون لهم العنان ، بل يحرضونهم في بعض الأحيان على الإضرار بالحجاج لكي تزداد مقررات أولئك الحكام عند الملوك ، بحجة حماية الحجاج ورعاية شؤونهم في الأماكن المقدسة . وكلما ازدادت المقررات ازدادوا طمعاً ، يضاف إلى هذا ما ينشأ من الخلافات في أُسَرِ أولئك الحكام حول الولاية بدرجة تبلغ من السوء إلى أن الإبن يخرج على أبيه ، والأخ على أخيه ، فيحدث من جَرَّاء ذالك من الفوضى في هذه البلاد ما يكون سبباً لاستشراء شرّ العربان وفقدان الأمن في الطرق ، ويزيد هذه الأمور سوءاً أن كثيراً من أمراء الحج من الأعاجم أو ممن لا يعرف كيف يسوس عربان الطريق بطريقة تؤمن الحجاج من شرّهم ، كما جرى من أمير الركب المصري مما أوضحه هذا الرحالة ، فبدلاً من أن يدفع لهم المقرر السنوي ويظهر من حسن النية والصدْق ما يحملهم على الثقة به والاطمئنان إليه خدعهم ، وأظهر لهم أنه سيسير بطريق ولكنه سلك غيره ، ظاناً أنه بذالك سيأمن شرّهم ، مع أنه بعمله هذا سبّبَ للحجاج من الأضرار — خوفاً ونهباً وتَعَباً وظمأ وجوعاً وطول طريق — ما يعتبر معه صَرْف المقرر السنوي لأولئك العربان من أهون الأمور وأيسرها ، حيث لا يزيد ذلك المقرر على عشرة آلاف ريال في العام . كما ذكر المؤلف في موضع آخر ، ولنعد للسير معه فقد اجتمع وهو في رابغ بعربي قال عنه : عليه أثر الصدق والخير . وهو من قبيلة حَرْب من سكان الأبواء قال : وتسمى اليوم عند أهل الحجاز بالأخـْرِبات[1] لسيل خَرَّبها وسألته عن تعيين أسماء قبائل الحجاز اليوم ، فعين بينها قبائل شتي وقال : يا سيدي لا تجد بالحجاز اليوم قبيلةً واحدة ذات شوكة إلا وقد حدث سكناها بالحجاز بعد العهد النبوي ، وأما الذين أدركوا العهد النبوي كثقيف بناحية الطائف ونحوهم فلا تجدهم إلا ضعفاء مستضعفين ، متمسكين ببعض آثار الدين والخير .

أسئلة فقهية : والرحالة يـُعنى بتدوين ما يسأل عنه من أسئلة فقهية وبجوابه فقد

---

(١) يقصد الحربية فبهذا تعرف إلى عهد قريب ، ثم رجع إلى اسمها القديم الآن وهو (الأبواء) .

كتب بعنوان : (فوائد سأل في هذا اليوم ونحن مرتحلون من رابغ مُحِبنا في الله العلامة أبو فارس عبد العزيز بن حمزة المراكشي ، وكان كرفيقه العلامة أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن القضوي الدمناتي (؟) من أهل الدين والصلاح والمحبة لنا ولأسلافنا ، وكنا نترافق ليلاً ونهاراً ، وكانا — والله — من الأفاضل الذين أبرزهم الوقت ، عن حديث : « إنّ الزمان قد استدار » يلزم من تفسيره بما تقرر من قضيّة النّسِيء المشار إليه بآية براءة ، أن الزمان الذي قبل حجة الوداع وقع فيه اشتباه ، فيسري حينئذٍ الخلل لحجة أبي بكر الصديق ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم ، وقد كانت سنة تسع على الصحيح ، وكذا يسري الخلل لحج عتاب بن أسيد ومن معه سنة ثمان ، لأن النبي (ص) خطب بمنى يوم النحر في حجة الوداع ، وكانت سنة عشر ، فقال : « إن الزمان قد استدار » أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله تعالى له يوم خلق السموات والأرض » ، بأصل المشروعية التي سبق بها علمه ونفذت حكمته — ثم ذكر جوابه مفصلاً وختمه بقوله : — والحاصل الذي ندين الله تعالى به أنه تعالى حفظ الإسلام والمسلمين من لدن فرض الحج ، بل من لدن بعث النبي (ص) من التديُّنِ بما عليه المشركون في أمر النّسِيء ، فلم يوقعوا الحج إلا في زمنه الذي فرضه الله تعالى فيه ، ولا التفات إلى اقتصار القرطبي وغيره على قول مجاهد والله أعلم .

وسأل أيضاً عن حديث الضّب وهو قوله (ص) : « ليس في أرض قومي » مع ما ثبت في السِّيَرِ من كلام الضبّ له (ص) بمكة في مبدإ البعثة . . . فظاهر ما في الحديث والسيرة التعارض ، فأجبت : بأن البحث قديم كالجواب وهو أنه « ليس بأرض قومي » أي اصطياده ، فالمنفي الإصطياد لا الوجود ، أو المراد ليس بالحرم أو بما قاربه ، وإن وجد خارجه عن بُعْدٍ منه مثلاً ونحو ذلك من الأجوبة وقد طال عهدي بها .

ثم ذكر أسئلة عن المسخ والخسف ، وعن معنى كلام لابن عربي وعن تقديم الأخ على الوالدين في آية : (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه) وعما ورد في السنة من القصاص بين البهائم مع أن العقاب مرتّبٌ على العقل ، ثم أورد أجوبته على هذه المسائل .

هرثى والأبواء :

وذكر ارتحاله من رابغ ومروره بعقبة هَرْشا ، وأن الإبل قاست منها شدّة ، وأنه بات بعد ذهاب نصف الليل بالأبواء ووصفها بقوله : قُرّى صغيرة ، وأخصاص بين جبلين ، في وادٍ ذي آبار كثيرة عذبة ، قريبة القعر ، وبه نخل فيه ذرة ودخن طويل جداً يأتي على الراكب والجمل ، وأرضه مخصبة عجيبة . وسكان هذا الدرب من حَرْب إلا أن هذا الفريق منهم سلم للحاج ، ولا يناله منهم ضرر ، أقاموا مع الركب سوقاً عظيمة من ثمار العجوة وغيرها، وبهذا الموضع وقعت في العهد النبوي سرِّية* قيل بموضع قربها يقال لها الآن المحلة، وبها ولد النبي (ص) على أحد الأقوال ، وبها قبر والدته (ص) على آخر ، وبقربه وَدّان ــ كما تقدم التنبيه عليه ، فهما موضعان لا موضع واحد خلافاً لابن اسحاق ومن تبعه . وسمي هذا المكان بالأبواء لتَبوُّىء السيول به* ، لا أنه سمي بذالك لما به من الوباء وإن قاله صاحب « المطالع » إذ لو كان كذالك لقيل الأوباء أو هو مقلوب منه والله أعلم . وبهذا المنزل أنشدني الحاج قاسم الشرابي لغيره ، وقد ذكر ما جرى بهذا الموضع في العهد النبوي :

لما علمتُ بأن القوم قد رحلوا ... وراهب الدير بالناقوس مشتغل
شبّكتُ عشري على رأسي وقلت له : ... يا راهب الدير هل مرّت بك الإبل ؟
فحنّ لي وبكى ورقّ لي وشكى ... وقال لي : يا فتى ضاقت بك الحِيَلُ ! !
أمّا الخيام التي قد جئت تطلبها ... بالأمس كانوا هنا ، واليوم قد رحلوا
يا راحلين قِفُوا مَهْلاً أوَدِّعُكُمْ ... فيكم رجائي ، ولكن فاتني الأمَلُ ! !

وبهذا المنزل أنشدني الأديب أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الدمناني (؟) وقد جرى ذكر الجواري لشيخنا أبي حفص[1] عمر الفاسي (ص) في مملوكة له اشتراها بمراكش مدة إقامته بها :

---

(١) في الهامش : (عمر الفاسي من شيوخه وهو العلامة المحقق الفاضل عمر بن عبد الله بن يوسف بن العربي بن يوسف الفاسي المتوفي سنة ١١٨٠) .

ومملوكــة أمسيْت أملك رِقّهــا[1] فما أصبحت إلا وقــد ملكت رِقّي
لِيَ اللهُ، لا أرجو الخلاص من اسْرِها وَرُبَّ فتىً يرجو التخلُّصَ بالعتق

وبه أنشدني له رحمه الله في هجْو بعض معاصريه ، وكان بيده خالٌ وكان يأنف القراءة على الشيخ متكبّراً ، ثم نزلت به مُلمّةٌ فجاء يشكوها إلى الشيخ ، فقام وقعد عند أمير البلدة حتى رقعت عنه ، قائلاً متغزلاً :

خليليَّ ما للخال حُطَّ إلى اليــد وعهدي به يعلو بخدٍّ مُــورَّدِ
أجار بفرط الكبر فانحطَّ مهنــةً وشأن ذوي الكبر الرجوع إلى اليَدِ

وبه أيضاً أنشدني لشيخنا المذكور رحمه الله ورضي عنه :

أمطر السحب ثلوجــاً وبدا منه (؟) بروجــا
كلمــا رمــت خروجــا لم تطق رجلي ولوجــاً

وأنشدني بهذا المنزل لنفسه ارتجالاً وقد أخذ مني هيدورة[2] مدبوغة من جلد تيس الجبل ، وما أدّيت بذلك حقّه وهو والله أجلُّ :

يا نخبة العلم يا صدر الأفاضل مَن تشرفــت آل ناصر بمعناه (؟)
أمسيت ممتطياً ظهر الفراش الذي منحتــني حَرَمــاً تقبــل اللهُ
ما ذاك أوّل صنْــعٍ من مكارمكم فأنت للفضل أسُّهُ ومبنــاه (؟)
يا نجــل عبدَ السلام المرتضى خلفاً لا زلتَ قبلة مَجْدٍ في مُصَّــلاه

ويحسن أن نسير معه حتى نبلغ المدينة ، لنرى ما جَرَّ تسرُّع أمير الركب وعدم حسن سياسته مع عرب رابغ على الحجاج من متاعب قال : في الرحلة الصغرى سنة ١٢١٢هـ — ما نصه :

(في قديد استهل هلال المحرم ١٢١٢هـ ومنه إلى رابغ ثم للقاع ثم لبدر وهلك بهاتين المفازتين من الآدميين الكثير بالحر والعطش والشوم (؟) وأقمنا ببدر يومين

---

(١) في الأصل : (بريقها) .
(٢) الهيدورة هي الجلد المدبوغ بصوفه يتخذ فراشاً وهو ما يعرف بنجد باسم (الجاعد) .

إلى أن قبض الأعراب من حرب ما جرت العادة بأدائه عن آخره ، فعند ذلك سلكنا طريق الصفرا والجديدة في مضايق بين الجبال ، وبعضٌ نهب ليلاً ونهاراً ولولا لطف الله ما نجا حاج من اذاية هاؤلاء الفجرة ، أراح الله منهم ومن أضرابهم البلاد والعبّاد) .

وقال فيها أيضاً : خرجنا سالكين الدرب الشامي على طريق الجرف خوفاً من مكر الأعراب في سلوك الجادة إلى ينبع ، فنزلنا الجرف ثم منه لآبار نصيف ، ثم منها لهدية ، والحذر من شرب مائها ، فقد هلك بشربه آدميون وبهائم .

ثم لبئر الزمرد ، ثم للجديد، ثم لآبار الغنم ، وبها هلك بالشُّوم الحاج بلال بن صالح عبد الزاوية كان والله رجلاً خادماً أميناً . . . وهلك فيما بين المدينة وهذا الموضع ما ينيف على ربع الحجاج بالسموم الحارة والعطش ، وأما البهائم ، إبلاً وبغالاً وحميراً فلاً تسل عما حل بها من الموت ، وأما غلاء الأسعار فما يكاد الريال الكبير يعلف البغلة حتى كدنا أن نقتطع لولا لطف الله تعالى .

وقال في الرحلة الكبرى : ثم ارتحلنا من الأبواء وقد مضى من النهار أربع ساعات في مضيق واد طويل بين جبلين ، كثير العضاه والأراك ، لا ماء به ولا كلأ ، إلا ما وقعنا عليه به من غير ماء غادرته الأمطار ، وأزمعنا السير بقية يومنا وسائر ليلتنا حتى نزلنا الفُرُع – بضم أوله وثانيه – وقد مضى من النهار خمس ساعات والفروع (؟) قرى متعددة ، ذات نخيل وعيون جارية عذبة إلى النهاية ، ونزلنا بأزاء أكبرها عمارة ، ويدعى أبا الضبع ظللنا به بقية يومنا وسائر ليلتنا ، وقد قامت بين أهله وبين الركب سوق عظيمة في الطعام من زرع وغنم وتمر ، وبه شاهدت في جماعة من الفضلاء أهل الركب طلبة (؟) وغيرهم عموداً من نور آخذاً فيما بين السماء والأرض لصوب المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وبهذا المكانِ كانت السُّقيا[1] قالوا : والفروع (؟) أول قرية مارت اسماعيل عليه السلام التمر بمكة ، وكانت وادياً عامراً . وروي أن النبي (ص) نزل في مدفع

(١) كتبها (الشقيا) .

(...)[1] وهي (...)[1] مضيق الفرع فصلّى فيه . وعن ابن عمر أنه أحرم من الفرع ، وبه مات ابن الزبير ودفن هنا في سنة أربع وتسعين . والفرع من أشرف ولاية المدينة فيها مساجد النبي صلى الله عليه وسلم نزلها مراراً ، وأقطع فيها لغفار وأسلم قطائع .

ويلاحظ (١) السقيا التي قال أنها بهذا المكان هي سُقْيَا غِفار ، وتُدْعَى سقيا الفُرُع لأنها في العهد القديم معدودة منه وليست فيه بل تقع على الطريق القديم الذي يدع الفرع يمينه للمتجه إلى المدينة ، وتعرف السقيا الآن باسم (أم البِرَك) لكثرة ما فيها من البرك المعمولة قديماً لسقاية الحاج (٢) وما ذكر عن مساجد الرسول (ص) في الفرع فهو ناشيء عن اعتقاده أن طريق الفرع هو الطريق القديم الذي كان يسلكه الرسول (ص) بين مكة والمدينة ، وقد تقدمت الإشارة إلى خطأ المؤلف وإلى بيان الطريق النبوي القديم (٣) ويخطيء في كتابة الفُرُع فيكتبها (الفروع) وذكر أن أحد أهل الفرع سأله عمن بنى بامرأة ثم طلقها في مرضه فاعتدت وتزوجت فمات زوجها الأول من مرضه ذالك أتَرِثُهُ ؟ قال : فأجبت بالميراث عملاً بقول المتن (؟) في الخلع ورثت أزواجاً . . .

ثم قال : ثم ارتحلنا من أبي الضبع وقد مضى من النهار ساعة في بقية بلاد الفرع ، وما تعديناها حتى قارب الزوال ، ونزلنا آخر الليل مكاناً يسمى أم غيلان ، لكثرة أشجارها به ، ولا ماء به ولا كلأ ، إن هي إلا الفلوات ، لا ينزلها إلا عوافي السباع والحيات ، وبها سمعت أعرابياً وقد قيل له : متى تنزل الموضع الفلاني ؟ – لموضع استقبلناه – فقال بهذا اللفظ : بعد هُدء من الليل – أي بعد مضي مدة منه – ففي « القاموس » : وأتانا بعد هُدء من الليل وهدء وهدءة وهَدِيء . ومهدأ . وهدوء أي حين هدأ الليل يعني سكن ثم قال : أو الهدء أول الليل إلى ثُلثه ، وهذا المعنى الأخير هو الذي قصد الأعرابي وأعراب هذه النواحي لا زالت معهم في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة قديمة ، وأفصح منهم أعراب برقة

---

(١) مكان النقط غير واضح في المصورة .

– كما تقدم – لقلة مرور الناس بهم ، وعدم مخالطتهم لغيرهم ، وقلة جولانهم ، وعدم دخولهم الأمْصار ، عكس الحجاز .

وبهذه البلاد نام بعض رفقائنا على جمله فجاءه بنو سعد وقطعوا حبل القطار أمامه وخلفه ، وقادوا به الجمل وهو نائمٌ . حتّى مالوا به عن الركب بقليل ، فانتبه وتفطن لهم ، فضربوه ليافوخه فخرَّ مغشيّاً عليه ، وذهبوا بالجمل وما عليه ، فكان كأمْسِ الذاهب ، وحمد عُقْبَى صاحبه (؟) فلم يتضرَّر من جرحهم[1] .

خلاف بين الركب وبين العرب :

قال في الكبري: ثم ارتحلنا من أم غيلان، وقد مضى من النهار أربع ساعات ، وأسرعنا بقية يومنا وسائر الليل والنهار بعده، لعدم الماء وعطش الركب لذالك... (؟) شديداً ، مع ما انضم المذالك من الخوف الشديد من أولئك الظلمة الفجرة حرب وسكان الجُديدة، فانحرفنا بذالك يميناً لطريق أخرى، إذ قيل: إنهم قد تحزبوا بجيوش لهم عن يسارنا في مضيق بين جبلين، فاجتمعت الركاب المغربية مع المصرية بعد أن تولى أمير مصر جمعها جبراً (؟) عليها بقدوم الطرابلسي لقوته وشدته على الأعراب(...)[2] السجلماسي والتونسي والجزائري ، وأما الركب الفاسي فقد دخل في أوسط المصري فرتبت الجيوش ، وأقرت (؟) الرماة ، وانعزل الركبان من خيل وبغالة (؟) وأخذ الناس أهبتهم للقتال على (. . .)[2] والركب مع ذالك سائر بالهوينا في إقطاره على العادة ، والجيوش دائرة عليه حتى نزلنا آبار على بعد مغيب الشمس ، فوجدنا جيشهم على الآبار يمنعون الركاب من الماء ، وعلموا شدة احتياجهم إليه ، وأنهم نحو ثلاثة أيام لم يأكلوا طبيخاً من قلته ، وحتّى (...) العلقة الواحدة مثقالاً من الذهب ، فعند ذالك حَلَّ بالناس الرعب ، واشتد الخطب ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وبركت الإبل لما عليها من الأثقال ولم تحط إلى الأرض ، فبرز أولئك

---

(١) ص ٢٨٨ .

(٢) كلمات غير واضحة .

الشجعان من الرجال ، أهل الإدبار والإقبال ، وكان الذي جاء الله بالفرج على يديه جماعة من أهل فاس لما جاءهم أمير الأعراب عامر بن جوسر الخداع الكذاب برسالة يزعم أنها من عند أولئك الأعراب ، وفيها : إن لم تؤدوا لنا جميع خراج أربع سنين الماضية من قناطير العسجد فما لخروجكم من هذه الورطة باب فتفطن أهل فاس لخداعه (...) وأخذوه على غرة ، وقيدوه ، وجعلوا في (عنقه) غلاً ، وأعلوه على جمل ولم يشاوروا بذالك أمير مصر ولا غيره ، فسمع الأعراب بما حلّ برئيسهم فانقلبوا على وجوههم ، وما بقي بالآبار إلا آثار من نيرانهم . ومع ذالك لم يتأتّ للركاب الذهاب إلى الآبار ، خوفاً من أولئك الفجار ، عدا من تمكن منهم العطش من الصعايدة ، أو برز بشجاعته من المغاربة ، وبات الناس ليلتهم يحوسون ، وفي أمرهم يدوكون ، فلما طلع الفجر آذنوا بالرحيل ، بعد أن قام الضجيج والعويل ، وأخليّت (؟) المدافع والبناديق ورتبت الجيوش فلا تسمع إلا القعقعة والصهيل ، فتقدموا للآبار ، وما تعرض عليها فاجر ولا بارٌ ، ومع ذلك لم ينل منها إلا الآدمي وما خفّ من البغال ، خوفاً مما عسى أن يفجأهم من المحاربين ، وهم أعداء الله لما استقر عندهم العلم بما حَلّ بأميرهم أشفقوا عليه ، وخافوا إن تعرضوا لواحد من الركب وقع به هو الفتك .

— وأشار إلى أنه سيعود للحديث عنهم .

آبار علي : وقال : — والآبار المذكورة كثيرة عذبة باردة تسقي بها نخيل عليها ، وخضر كثير سيّما الباذنجان الكثير والقرع بأنواعه الجيدة ، وبها تجتمع الطريق السلطاني الآتي على الجُديدة ، وهذه التي سلكناها . .

وقال عن العقيق : وبهذا الموضع آثار ورسوم داثرة ، وهذا هو وادي العقيق ، سُمّي بذالك لأن حصاه ينحو نحو الحمرة ، وهو وادي ذي الحليفة ، والعقيق خرز أحمر ، والعقيق أيضاً وادي المدينة الذي فيه أموالها ونخيلها ، وذو الحليفة وهي البيداء بطحاء ، وفيها المُعَرَّس بينها بين المدينة نحو سبعة أميال وهي بطحاء سهلة لينة ، وفيها أوحي إلى رسول الله (ص) : إنك ببطحاء مباركة وهي مهلُ أهل المدينة

من العصر النبويّ إلى الآن كأهل الشام في هذه الأزمان فعادتهم الذهاب إلى مكة على المدينة ثم يرجعون عليها ، يزورونها في سفرهم مرتين في ذهابهم وإيابهم ، هنيئاً لهم ، وبها مسجد يدعى الآن مسجد الشجرة يُعَدُّ علامة على محل إهلاله (ص) وهو على يمين الذاهب في شرف من الأرض ولم أدخله لعدم من يساعدني . ... والركاب مع ما حلّ بها من العطش والجوع والغلا والخوف لم يبالوا بذالك ، لما خامرهم من الغرام بالقرب من الحبيبة المحبة على ساكنها الصلاة والسلام — إلى أن قال : وسِرْنا فعلونا بقرب ذي الحليفة مُفرِّحاً ، سمي بذلك لأن به يتخيل (؟) الناظر أعلام المدينة ، فلم يبق لمن علاه هَمّاً مُبَرّحاً ، ولما جاوزناه بغلوة أو غلوتين ، بلغنا منتهى حرم الشجر[1] بغير مين ، فلاحت البيوت بقببها ، ونزلت للإغتسال فلم يتأت لي ، فعوضته الوضوء بقربها ، ولما نزلنا الحرة نزلنا ، وبها بأهل المدينة التقينا ، مشاة وركباناً ، نساء وصبياناً ، شيوخاً وكهولاً وشباناً ، أحراراً وعبيداً وولداناً ، لا ترى العين أجمل منهم صورة ، وأطيب كلاماً ، وأحسن أخلاقاً وأتقن نظاماً ، كيف وقد تمتعوا بجوار سيد المرسلين . . . لا تسمع منهم إلا مَرْحباً أهْلاً وسهْلاً طيباً ، آنستم ، بلغتم ، والصبيان على أرجلهم يرددون بصوت رخيم : يا حابّ النبي ركبني . والحجاج على اختلافهم منهم المُرْدِفُ لواحد واثنين ، ومنهم النازل لهم ، والقائد بهم والسائق لهم ، وكنت — مَحَبّةً فيهم — حملت صَبِيَّيْنِ على دابتي أقود بهم تارة وأسوق بهم أخرى حتى جاوزت بطحان ذات اليمين ، وسلع وهو جبل صغير ذات اليسار ، فوصلنا البيوت ضحاء يوم السبت الثامن من المحرم (١١٩٨هـ) حامدين الله تعالى على ما أولانا ، شاكرين له على ما أعطانا ، ووقفت بالصبيان (؟) وهما على الدابة ممتنعين من النزول ، فجعلت أدور معهم ريثما ينزلون عن طيب أنفسهم ، فلما نزلوا أخذت بعنان دابتي فتوجهت إلى المناخ وسط البيوت المبنية خارج أسوار المدينة المنورة ، فربطت دابتي حيث نزل رفقائي . (للبحث صلة)

---

(١) يقصد الذي يحرم قطع شجره .

فصول من :

"شمال نجد"

تأليف : ا. موزل

- ١٩ -

الفصل السابع : من لينة إلى النّجف بطريق الحج القديمة

من لينة إلى فيضة سعود : غادرنا الآبار في الساعة ٤,٥٠ ، وهدأت العاصفة في الساعة ٥,٠٨ ، وفي الساعة ٥,٤١ وصلنا إلى خيمتنا التي كانت قد عَصَفَت بها الرياح . كان كل شيء مُغَطّى بطبقة من الرمّال ، وكان نازل وخلف يجلسان في غارٍ بالقرب من صخرة الغريرية (؟) حيث وجدا ملجأ يتقيان به العاصفة . ولمان كان رفاقنا الآخرون ، الذين كانوا في طريقهم إلى سوق النّجَف ، قد ذهبوا إلى منحدر المُعدَّى إلى الشمال من لينة ، ليتجمعوا هناك ، فقد كان علينا إزالة الرمال عن أحمالنا ، وتحميلها ، واللّحاق بهم . وقد شرعنا في السير ، في في الساعة ٦,٢٠ ، وفي الساعة ١٠,٠٨ أقمنا المُخَيّم على مقربة من رفاقنا الذين بحثنا عنهم طويلاً .

وغادرنا المُعَدّى في الساعة الخامسة من صباح اليوم الثلاثين من آذار ، وتقدمنا إلى الشمال الشرقي . كانت القافلة بأكملها (الحَدْرَة) متجهة (إلى الفرات) بقيادة راشد ، وهو عبدٌ ، وزبيري بن معجل وهو زعيم من قبيلة العمارات عليه أن يحمينا من أبناء قبيلته . أما راشد فكان الوزير سعود قد بعث به في منتصف شهر شباط لإحضار جمال بعض الصُّليب ليستخدمها ضباط الجيش فترة من الزمن . وقد قام راشد وبعض العبيد الآخرين برفقة زبيري ، بالتفتيش عن (صليب) ولكن دون جدوى . إذ كانوا قد بلَغَهُم الغرَض من رحلته فأوغلوا وتفرقوا في الصحراء . وقد وقع في آخر الأمر على بيوت لقبيلة الشُّبيكي بيد أنه لم يجد جمالاً ولا رجالاً . وحين استفسر من النساء عن رجالهن أكدن له جهلهن الاتجاه الذي ذهب الرجال فيه . عند ذلك استقرّ العبيد في البيوت ، وأعلن راشد عن رغبته في جَلْد النساء ، واحدة

فواحدة ، حتى يعود الرجال . وقد نفذ شيئاً من ذلك ، وكانت صيحات النساء تسمع من مسافات بعيدة . وبعد أن جُلِدت المرأة الثامنة عاد الرجال ومعهم ٣٢ جملاً ، فصادرها راشد باسم ابن رشيد ، ولم يكتف بذلك ، بل نهب خمسين عنزاً من معزى (صليب) التعساء ، وأجبر أحد رجالهم أن يقوم بدور الدليل ، ثم عاد إلى سيده .

لم يكن العبد راشد ، يهتم كثيراً بالوزير سعود . بل كان يطري زاملاً ، عم الأمير ، الذي كان قد قُتِل . وكان حزيناً آسفاً على ابراهيم ، شقيق هذا العم ، الذي كان يقضي أيام سجنه في حايل . وكان زامل هذا قد تزوج من والدة الأمير ، وحين انجبت له ولداً أمر الوزير سعود بقتله قبل شهرين من الزّمن .

في الساعة ٧,١٠ كان وادي الحمير (؟) القليل العمق يقع إلى الشمال ، وعلى هضبة صغيرة فوقه كان يبدو رِجم بندر الواسع . استرحنا من الساعة ٨,٤٢ إلى الساعة ٩,١٢ . وعند الساعة ١٠,٣٨ عبرنا القطّار شمالاً ويُسمّى الترمزية (؟) ، وهو طريق قديم للحج يسير من قرية السّماوة في العراق عن طريق السلمان ، ولينة إلى الثعلبية . وكان الطريق من لينة إلى الثعلبيّة قد أهمل ؛ أما في لينة فإن الطريق القديمة هذه مُتّصلَة بطريق الحل وطرق الحل يربط القصيم بالعراق .

كنا في الساعة ١١,٤٢ نعبر مُنخفض الغُرابيات وبعد الخشيبي الساعة الثانية مررنا من خلال شِعْبان المترس الذي يتّحد مع شعيب الخشيبي .

وعند نهاية الوادي الأخير تقع محطة بريكة الخشيبي التي تهدم بعضها على طرف الجريبا الشمالي . وعلى مسافة أبعد إلى الجنوب الغربي تقع مياه اليحفوف . وكلا هذين الموقعين يتماسّان مع طريق القَطّار (أو الترمزية) ، التي تَنْطَلِق باتجاه الشمال الشمال الشرقي من محطة بريكة الخشيبي إلى محطات الجوخا (؟) والعاعة . في سهل فيضة الخارجية حيث يفترقان . ويستمر أحد الفروع — وهو درب الحايف — في نفس الاتجاه حتى قرية السّماوة . بينما يتجه الفرع الآخر — وهو درب سَلمان — شمالاً إلى آبار السلمان ثم يتجه إلى السماوة باسم (درب العمود) .

يسير درب السيّد من آبار السلمان إلى الرُّحبة والكوفة . وإلى الشمال من العاعَ (؟) يرتفع كل من دريب الخايف ودرب السلمان فوق حَقيّ واقصة أو لِحْقي ، ويسيران عبر الحرشا المنبسطة . وينتهي حقّيْ واقصة إلى الشرق بالقرب من قارة الكبد وقارة الصبية عند الأحواض حيث يتوفّر عند قواعدها المياه في ثُغبان المجدّر وخباري كَبْد ودَحَل زرغبي ، وعند موقع المياه القديم ومحطة الحج التّخاديد . وتقع بئر الوقبا بين عاعة (؟) وبين قارة الكبد . وترتفع إلى الشمال من الصبية (؟) ميسة قارة الزّوم التي كانت مياه الأمطار تتجمع عن طريقها في خباري القراين . وموقع مياه السَلمان في حوض يُتاخمه مُنحدر العَوْجا من الجنوب ، ومُرتفع حزيمة الوشّاش من الشمال ، وتَنكَشِف وراء هذا المرتفع فيضة الشّاويّة . وبمحاذاة الضّواحي الغربية لهذه الفيضة تقع خرائب وآبار الحناني على جانب درب السّيد .

وظهرت لنا في الساعة الثالثة أول نباتات موسمية (شجر) في هذه الأرض . وفي الساعة ٣,٤٥ اكتشفنا أخدوداً إلى الشمال الشرقي من محطة الحج التي يسمونها الشّيحيّات ، كان مكسوّاً بنبات الروثَة ، وقد أمضينا الليلة هناك .

وهناك في الشيحيات بقايا قرية صغيرة وعدد قليل من البرك نصفها مملوء بالأوساخ .

واصلنا السير مرّة أخرى عند الساعة ٤,١٨ من صباح اليوم الحادي والثلاثين من آذار . وازدادت شدة الرياح الغربية عند الساعة الخامسة . فاستَرحنا من الساعة ٥,١٥ إلى الساعة ٥,٣٨ في شعيب أبا رُوَات ، الذي ينتهي عند حوض حقيّ القْصاص وفي الساعة ٥,٤٨ دخلنا طريق الحج (درب زبيدة) (أو درب الست زُبيدة) بالقرب من بريكة العصافير ، وهي بركة محفورة ومبلطة وجدناها ممتلئة حتى منتصفها بالرّمل .

من فيضة سعود إلى جال البطن : وجدنا أنفسنا في الساعة الثامنة والنصف من ذالك النهار وسط منخفض فيضة سعود في المكان الذي يدخل إليها منه شعيب

مُنَشبيّة أم سعيرا من الجنوب الغربي . وفي الساعة ٨,٥٥ كانت مُنَشبيّة أم ثغبان تقع إلى يسارنا . واسترحنا من الساعة ٩,٠٥ حتى ٩,٣٥ .

وفي هذه النقطة أخبرنا زبيري أن بساتين الجعارة (؟) أو ، كما تُسميها الحكومة ، أبو شخير (؟) كان السّد (المزارق) المعمول لحماية الأرض المنخفضة جنوب النّجف من الفيَضانات قد تهدّم ، فغمر نهر الفرات الأراضي المنخفضة وشكّل بحيرة كبيرة يجب علينا تفاديها .

عبرنا في الساعة ١٠,٤٠ مجرى مُنَشبيّة أم شحوف (؟) الجاف ووصلنا إلى زبالة في الساعة السابعة .

تَقَعْ محطة زبالة فوق مرْتفع يعلو ما يقارب خمسة أمتار عن سطح المنطقة المجاورة . وفي ضواحي المرتفع الجنوبية الغربية تقع خرائب قلعة مربعة الشكل ذات قبة مستديرة على كل زواياها ، وقوس في وسط كل جدار . وتحيط القلعة مساحة واسعة ، حولها أسوار عالية . وتتصل القلعة من جهة الشمال بقرية كانت هناك رأينا مساكنها خربة متهدمة . وإلى الشمال من القرية في حوضٍ واسع نسبياً ، يجد المنقّب بئرين واسعين ، كان يوجد إلى الشمال الغربي منهما بركتان كبيرتان تتجمع فيهما مياه الأمطار . وكانت البركة الجنوبيّة نصف ممتلئة بالأنقاض ، أما الأخرى الشمالية فكان حجمها أكبر بكثير ، ولم تزل عميقة . وتتزوّد هذه البركة بالمياه من شعيب مُنَشبيّة أم شَحوف (؟) الذي يدخل إلى الحوض . وكانت أشجار العاقول والعكرش والعرق والرُغُل والسليلا (؟) والثغام والضمران والسدر تنمو هناك . وبالإمكان العثور على كثير من قطع الأواني الخزفية الزّرقاء بين الخرائب .

يبلغ عرض طريق الحج الزُبيدية (درب السّت زبيدة) أو (درب زبيدة) أربعة وعشرين متراً . وكانت الأحجار قد جُمِّعَت لبناء هذه الطريق وأُقيم بها جدار على الجانبين من الشرق والغرب . وكانت هذه الجدران مبنية بشكلٍ فَنّي في بعض الأماكن غير أنني لم أعثر على أي مَعْلَم في أي مكان ، مع أنني بقيت أبحث عنها بدقة .

استرحنا من الساعة ١٢,١٠ حتى الساعة ١٢,٣٦ . ثمّ اجتزنا نخيرير الحيرة (؟) وهو سهلٍ مستوٍ يعلو فوق سطحه ركام من الأحجار الكلسيّة يبلغ ارتفاعها ما يقارب أربعة أمتار . وفي الساعة ٣,٠٨ بدا للنظر من الشمال العربي قمة قارة الرّفحا ، التي تقع فيه وراءها آبار لُوْقة والرّوض ، وأم العواقيل . وفي الساعة ٣,٢٨ لَفَتَ نازل نظري إلى كومة كبيرة من الأحجار (رِجْم) على بُعد خمسة عشر كيلاً إلى الشرق ، قال إن في أسفلها بركة مبنية لمياه الأمطار تُسمى بَرْبَك جِلباح (؟) وتُطلِقُ شمر اسم (بربك) على نوع من البِرَك تُسَمّيها قبيلة الرولة (مجفور) . وفي الساعة الرابعة وصلنا إلى مُنخفضٍ واسع عند قاعدة جُرف الجريسي حيث أقمنا مخيمنا إلى جانب بركة الجُمَيّمة . وقد رأيت هذه البركة ، مُحاطَةً بجدران قوية لا تزال في حالة جيدة تماماً ، فهي ممتلئة بمياه المطر . فنشلنا منها الماء لجمالنا وملأنا القِرب . وفي المساء حدّدنا خط العرض للموقع .

بدأنا سيرنا في الساعة ٤,١٠ من صباح اليوم الأول من نيسان فاخترقت طريقنا وسط سهل تنتشر فيه حصباء صغيرة ينمو فيها نبات الشّيح ، لكنه في الأرض السبخة فقط . وفي الساعة ٤,٤٠ اشتد هبوب الريح الغربية إلى درجةٍ بات من الممكن فيها أن تنزع الريح عنا باستمرار معاطفنا . ووصلنا في الساعة ٦,٢٠ إلى جُرف حَقّي القصاص ، وكان يلزمنا أن نتسلق ثلاث مصاطب حتى نبلغه . وكان ينمو على إفريز هذه المصاطب شجر الروثة . في الساعة ٦,٢٠ أشار نازل إلى بركة الثليما (؟) على بُعد حوالي كيلين إلى الجنوب وهذه هي محطة القاع القديمة .

وصلنا في الساعة ٧,٤٠ إلى بركة الهيثم وإلى الجنوب الغربي من القلعة المهدّمة كانت تقع بركة يبلغ طولها حوالي ٢٠٠ متر ، وعرضها ١٥٠ متراً تمتد من الشمال إلى الجنوب . وأما إلى الشمال الشرقي من القلعة فهناك بئران جافان خلفهما بركتان واسعتان ، كانت أبعدهما جنوباً ممتلئة بالحجارة . وإلى الشمال الغربي من القلعة القديمة يعلو حُصْنٌ عامرٌ كان قد شَيّدَه الأمير محمد بن رشيد .

ولقد رأينا عند الساعة التاسعة جُرف جال البطن في جهة الشّمال ، وهو يمتد

مسافة أبعد إلى الجنوب الشرقي مثل جال الرّواق (؟) ويرتفع هذا الجرف في الأفق على صورة حاجز شاهق يمتد من الشمال الغربي إلى الشرق منا . وهبّت عاصفة رملية أخرى من الغرب ، فاسترحنا فيما بين الساعة ٩,١٠ والساعة ٩,٤٥ خلف صخورٍ منخفضة بالقرب من مجموعة من شجر الطلح . وبعد ذلك سرنا عبر قارة الحمرا وهي تلال مسطّحة منخفضة . ووصلنا عند الساعة ١٠,٥٥ إلى بركة العَمْيَا في قاع السّمِل (؟) . وكانت هذه البركة واسعة قديمة لمياه الأمطار وقد نظفها ورمّم جدرانها الأمير محمد بن رشيد . وكان يتم الوصول إلى الماء عن طريق ثلاث درجات توجد على الجانب الشمالي . وإلى الشمال الشرقي من العميا ترتفع تلال القَتب التي وجدنا عند قاعدتها شجر ضمران .

كان يرافقنا حوالي أربعين امرأة ، عجائز وشابّات ، من قبيلة الأسلم ، وكانت نساء هذه القبيلة تُعنى بالإبل والغنم وتشتري الحبوب وأدوات الزينة من الحضر فيما يَحصُر الرّجال عملهم في شن الغارات ، والنهب ، والتّسكّع في البيوت . وكانت كل امرأة تجلس فوق وسادة (لبيد) موضوعة خلف رَحْل التحميل (حداجة) ثم تهمز راحلتها ويتدفق من فمها سيل من الكلام البذيء تشتم به كل من يحاول شق طريقه من بينهن .

منذ الساعة ١٢,٤٠ كنا ننحدر ببطء . وفي الساعة ١,٠٦ كانت بريكة الظفيري الممتلئة إلى نصفها بالماء ، تقع يمين الطريق التي كُنّا تسير فيها . وفي الساعة الثانية وصلنا إلى منخفض البطن ؛ وكان يتاخم هذا المنخفضَ من الجنوب منحدرُ الظفيري القصير ، وفي الشّمال جرف جال البطن الشاهق ، والذي يبلغ ارتفاعه خمسين متراً تقريباً .

ويمتد جال البطن من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، وإذا ما تطلع إليه الناظر من الجنوب بدا له خطاً طويلاً من المنحدرات الصخرية الشاهقة التي تهبط تدريجياً حتى تتحول إلى سهلٍ واسع مرتفع . ويترك حقيّ واقصة الذي يمتد بمحاذاة جال البطن ، وإلى الشمال الشرقي منه ، في نفس الناظر مثل هذا الانطباع .

وصلنا في الساعة ٢,٥٠ عند قاعدة جُرف جال البطن وبدأنا في تَسَلُّقِه . كان الصعود في البدء تدريجياً ، ولكنه فيما بعد ، وبما أن الطريق كانت محفورة في الصّخر الصّلد ، أصبحت جمالنا تتحرك بصعوبة . فالطريق كانت ممتلئة بالصّخور التي كانت قد اقتُلِعَتْ من سطوح الصخور العمودية ! ولم يكن يوجد أحد هناك لإزالتها . وصلنا إلى سطح الجرف في الساعة ٣,١٧ وكان مكسوًّا بحصباء خشنة ، بحيث كان من الصعب أن يُعثر على نباتٍ أخضر فيه . وجدنا في المنخفضات منه نباتات ، شيح وقيصوم وعضّام وضمران وروثة ، وإلى يمين الممر ، في واد الشعيب الضيّق على حافة السّهل تماماً ، كان بالإمكان رؤية سَدٍّ ، لا يزال يحتفظ ببعض مياه الأمطار . وفي الساعة ٤,١٢ خيّمنا في العقبة ، وهي محطة للحج . وكان يوجد في الجانب الجنوبي الغربي من هذا المكان بركة مُرَمّمة ، اكتشفنا إلى جانبها بئراً يبلغ عمقها نحو ٢٥ باعاً، وفيها ماء . وهناك بئران أخريان على مسافة أبعد إلى الشرق ، وإلى الشمال من هاتين البئرين بئر أخرى مع بركة للمياه . وإلى الشرق من البركة تقع خرائب قرية محصنة ، يحاذيها إلى الشمال الغربي قلعة مربعة ، مع بئر تقع عند جدارها الشرقي .

إن السهل المرتفع الذي يقع بين جال البطن وحقيّ واقصة يُقال له : البَسيطة إلى الشمال من العقَبة ، والخارجية (؟) إلى مسافة أبعد إلى الجنوب الشرقي ، والحوْارة إلى مسافة أبعد إلى الشمال الغربي .

يرتفع فوق سطح الحَوارة الكبير ميسات الخلايق المنخفضة . أما مواقع مياه عَيْدَهَا وقلتة رغوة (؟) فتقعان في فيضة الخارجيّة إلى الجنوب الشرقي من العقبة ، وإلى الغرب من درب التُرْمزي (أو القطّار) .

من جال البطن إلى الشبيكة : واصلنا سيرنا في الساعة ٤,٣٠ من صباح الثاني من نيسان ، متجهين عبرَ سهل البُسيطة . وفي الساعة ٥,٢٠ كان الحوض الذي تقع فيه قليب البويبي ، والذي يبلغ عمقه خمسة وثلاثين باعاً ، يقع على بُعد حوالي ستة أكيال إلى الغرب منا . وفي الساعة السادسة والنصف رأينا نصباً عالياً من أكوام الحجارة (نصاب) يرتفع إلى الشمال الشرقي مِنّا عند قبر بندر ، وهو زعيم جماعة

الزميل ، من قبيلة التومان ، كان قد تـُوفي داخل خيمته التي كانت منصوبة في الموضع نفسه . وعند مقدّمة القبر يقع مستنقع مياهٍ صغير وموقد نارٍ عميقة حيث كان بندر يـُجـَهز قهوته . وعندما تقيم أسرة الزميل في هذا الموضع في فصل الخريف ، يقوم زيد ، شقيق بندر ، فيـُحـَمـّص القهوة عند قبره ويضيف كل من مـَرّ بهذا الموضع .

غادرنا طريق الحج في الساعة ٨,٢٠ واستدرنا إلى الشمال الغربي . كانت شَمـّر تخاف من الشوايا ، (أصحاب الغنم ورعاتها) ، ومن الفلاحين الموجودين على ضفة الفرات اليـُمنى ، الذين كانوا نازلين وقتئذٍ مع أنعامهم بالقرب من آبار شِراف وواقصة .

وبئر واقصة تقع على الطرف الجنوبي ويقع شِراف على رأس أخدودٍ يعلوه طريق الحج إلى جُرف حقيّ واقصة .

كان سهل البسيطا مستوياً تماماً ومكسواً بصُوّانٍ ذي لون بني غامق . في الساعة ٨,٥٠ كانت بركة الحمدي (؟) تقع إلى الشرق منا على طريق الحج . وإلى الشمال الشرقي من هذه البركة أطلعني الزعيم زبيري على كومة من الأحجار كانت تـَدُل على موقع بئر الجِلّ وإلى الجنوب الشرقي منها كان هناك نُصبٌ آخر يؤدي إلى بئر الشُّبرُم . وبدا للعيان بعيد الساعة التاسعة عدد من الهضاب الصغيرة مسطحة القمم يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أمتار ، وتعرف باسم العثامين في المقدمة . كانت هذه الهضاب بقايا طبقة أعلى صَمـَدت أمام التآكل . وظهرت قويرات الحويمات وهي تلال بيضاء متماثلة مُرقـّطـَة بلون أسود ، إلى الشمال الغربي . وبُعيد الساعة الحادية عشرة هبطنا ببطء إلى الشـّمال . وعند الساعة ١١,١٠ كانت هضاب العثامين (؟) تقع يميننا ، ولم تكن هذه من الصّخر الصُّلد بل كانت كومات كبيرة من الجير الأبيض الممزوج بالصُّوان ليس إلا . وفي الساعة ١١,٢٠ رأينا أبرق الفرصاد (؟) إلى الشمال الغربي . وعند هذا الأبرق ينتهي حَقـِّي واقصة ، الذي يـَتـّجه إليه سهل البسيطا بعد أن ينحدر .

بعيد الساعة الواحدة كان منحدر حَقـِّي واقصة يلازم الأفق ، وكان يكشف

عن أربع طبقات من الجير الناعم ، الذي يوجد فيه عدد من الحُفَر القليلة العمق والكهوف التي كان بالأمكان رؤيتها . وكانت الأرض المنخفضة المحاذية للقاعد الجنوبية لهذا الجُرف تسمى البَطِن أيضاً . استرحنا في الساعة الثانية حتى الثانية والنصف عند قاعدة الجُرف تماماً إلى الغرب من آبار واقصة ، وكان شِراف يقع في وادٍ صغير إلى الشمال منها . كان عمق الآبار في شِراف يتراوح بين سبعة وثمانية أبواع ، وفي واقصة يبلغ العمق سبعة عشر باعاً .

كان موقع مياه جَوّ رميث (؟) إلى الشمال الغربي من طريقنا . وكان تَسلُّق الجُرف من أخدود أم ثِنيِّة (؟) سهلاً للغاية حتى أننا وصلنا إلى القمة بدون تعب . أقمنا المخيم في الساعة ٣,٤٥ عند منخفض الروثيّة شمال غرب شِراف . وكانت الريح قد هَدَأت عند الساعة السابعة تقريباً ، وكان الليل بارداً .

واصلنا السير في الساعة الرابعة من صباح الثالث من نيسان . فاتجهنا أولاً إلى الشمال — الشمال الشرقي عبر سهل أبو خُوَيمة الأجرد المُجدِب . وفي الساعة ٥,٤٠ استدرنا قليلاً إلى الغرب لكي نتفادى مرتفع الرَّديفة ، الذي تقع بقرب قاعدته الشمالية بركة الخراب المهدّمة . وفي الساعة السادسة امتَدَّ أمامنا حوض الشبيكة الذي كان بسبب تآكله من الأخاديد ، كان يمكن العثور على المئات من الآبار التي يتراوح عمقها بين مترين وأربعة أمتار والتي كانت مياه الأمطار تتجمّع بها وهي محفورة في الأرض الليّنة . كان يحتمل أن تتقوّض هذه الأبار ويتوجّب تنظيفها مرة أو عدة مرّات في السنة . كان كل منها مطوّق بأكوامٍ من الصلصال الأحمر حيث كانت الرعيان تحفر بها حُفَراً تُشبه الأحواض . وكانت الحفر من هذا النوع تُسَمّى عُقَلة . إذ ينزل رجل إلى داخلها ويملأ الدلو بالماء ؛ ويقوم رجل ثانٍ بإخراجها وإفراغ الماء إلى أحد هذه الأحواض ، لشرب الجمال منها . لم أر في أي مكان آخر من الجزيرة العربية مثل هذه الأكوام الكبيرة من الصلصال قائمة حول الآبار . كانت هذه الآبار تمتد من الغرب حسب الترتيب الآتي : الرّبضا والشّويطن والسّكير وهذه الأخيرة تحدد انتهاء حوض جُفرة (أو جَوّ) الشبيكة . وصلنا في الساعة الثامنة إلى آبارالشّويطن وسقينا جمالنا . وكانت مياه الآبار المختلفة قليلة جداً .

من الشبيكة إلى النجف : انطلقنا من الشُّبيكة في الساعة ٩,٣٥ . يوجد شَجَر الدبغا (؟) هناك بوفرة في الأخاديد .

كان الدرب السّلطاني اليوم يؤدي من آبار شِراف إلى آبار السّكر وبعدئذٍ إلى بركة الطلحات ، وهي بركة تقع على بُعد عشرة أكيال إلى الجنوب الغربي من محطّة حجاج المسيجِد التي هي على درب زبيدة القديم في سهل البيضا إلى الجنوب من الحمّام .

كنا نجتاز سهل فيضة الجِماعيّة ذات اللون الرّمادي الغامق ، حيث ينمو شجر الشيح هنا وهناك . وبعيد الساعة الثانية عشرة والنصف اتبعنا طريق درب الحصوني (؟) الممتد من النجّف إلى السّكِر ؛ وأما محطة حجاج القرعا المهدّمة فكانت تقع باتجاه الشرق منا على درب زبيدة . وأما إلى الجنوب منها فهناك السّميعا (بئر مُشَيّدةٌ بالحجارة) وخبراء الحابيّة وبئر اللوزا ، ومحطات المفرِق وبركة الخراب المهدّمة . وفي الساعة ٢,١٠ وصلنا عند هضبتين منخفضتين تُسمى القِرَانين كما رأينا بركة الطّلحات إلى الشرق . وفي الساعة ٣,٢٥ عبرنا تلّة المجيلس المسطحة القمة ، حيث توجد خرائب بناء قديم مع ست عشرة كومة صغيرة من الحجارة . وإلى الشرق أشار نازل إلى خرائب المسيجد .

أثناء مناقشتنا لبعض المسائل (الطوبوغرافية) عبّر نازل وزبيري عن اعتقادهما بأن نَجَداً تمتد حتى النّجف؛ وبعدئذ ، قالا: إن الحدود تسير باتجاه الطُّقطُّقانة ، وبعد ذلك على محاذاة مجتمع مياه وادي الحرّ الشمالي الغربي إلى البويْتات والحدود الشمالية للنّفود ، وبمحاذاة هذه إلى واحة تيما . وتيما لم تزل في نجد ؛ وأما منطقة الحجاز فإنها تبدأ إلى الغرب من تيما . وقد أكّدا ذلك .

قُمنا في البحث عن الكلأ ، ولكن لم يكن هناك نباتات سنوية في سهل البيضا وكانت النباتات الموسمية قد حُصِدَت . وفي النهاية أقمنا المخيم في الساعة ٥,٢٠ . وكانت جمالنا جائعة .

ابتدأنا السير في الساعة الثانية من بعد منتصف ليل الرابع من نيسان واتّبعنا ضَفّة شعيب الطلحات اليُمنى . وفي الساعة الخامسة كانت أول شعيب أمّ السباع يقع إلى يميننا من ناحية الشرق وفيما وراءه ، محطة المغيطة (؟) ودخلنا بعد ذلك شعيب

أبو طَلْح لاحظنا عند الساعة ٥,٥٠ ثلاثة رجال يمتطون الخيل ، وكانوا يراقبوننا ، واختفوا بعد ذلك على الفور . كانوا من حُرّاس بني سلامة (؟) (شوايا) من أهل الغنم ، ، بدون شك ، وكانت بيوتهم تقع بين الشبيكة والفُرات . وحيث أنه لم يكن معنا أحد يحمينا ولم نكن نعلم هل كانوا يرغبون في مهجمتنا أم لا ، فإننا جهّزنا أنفسنا على الفور للقتال . فتجمع كل الرجال الذين كانوا يحملون سلاحاً مجموعة واحدة وساروا خلف القافلة وعلى جوانبها . وفي الساعة السادسة خرجنا من أبو طلح ورأينا شعيب الحِسب إلى يسارنا . وعندما كنا في فيضة الطلحات فيما بين الساعة السابعة و٧,٤٦ قام راشد بإحصاء الجمال وفرض ضريبة ربع مجيدية (٢٣ سنتاً) على كل واحد منها . وكان عدد الجمال ٥٢٨ جملاً . وكانت النقود التي جُمعت ستُدفع إلى جنود الزعيم الأعلى (رجاجيل الشيوخ) وإلى الأنصار الذين ينبغي انتقاؤهم من بني سلامة .

من فيضة الطلحات المتموجة ، التي كنا نجتازها ، بمحاذاة شعيب الحِسب تقع أخاديد ذات عمق معتدل تتجه إلى المجرى ، وكانت هضاب الجرثمي المنخفضة تبدو إلى الغرب .

عثرنا على المياه في بعض الثمايل (وهي حُفَرٌ ضحلة في مجرى الأودية) تقع في أخدودٍ عند الساعة ٩,٢٧ .

في الساعة ١٢,١٠ تصدّى لنا عدد من مقاتلي بني سلامة ولم يسمحوا لنا بالمرور في منطقتهم بدون موافقتهم . وكنا نرى الرجال ، من الشمال واليمين ، وسلاحهم في أيديهم ، يتقدمون متجمعين ، لم يكن في مقدورنا شق طريقنا بالقوة ، ودخلنا معهم في مفاوضاتٍ وواصلنا السير في الساعة الثانية ، وكان يرافقنا سراج بن معَيْدل شقيق الزعيم عِلاق (؟) ورجل آخر ، كانا سيحميانا من بني سلامة ومن قبيلة الغزالات .

وفي الساعة الثالثة انحدرنا إلى شعيب الحسب العميق الذي يبلغ اتساع قناته ٢٥ متراً ، وكان ينمو فيها شجيرات اللويزة .

يرتفع شعيب الحِسب عند الطرف الغربي لهضبة جال البَطن بين ميسة لميما من الغرب ، وتلك المُسَمّاة بالبيضَتين من الشّرق ، وسهول السّلمانية وأمّ الرجام

من الجنوب . وعند منبعه توجد آبار الليفية ، وإلى الشمال منها كهف سرّي ، ودَحْل مياه مشيقيق ، وبركة مياه الأمطار المسمّاة كسير حِسب . وإلى الغرب من الكسير آبار المْعانيّة .

ينطلق الحِسب إلى الشمال الشرقي قريباً من قويرات الكبريتيات ويتاخم هضبة حقيّ واقصة ، من الغرب . وعلى مسافة أبعد إلى الشمال يجتاز الحسبُ سهول المجامر ، وأبو خويمة والجماعية ، وفيما بين المِجامِر والجماعية تقع عَقلَةْ مِشْحِن إلى الشرق من خبرا صيقَل (؟) . وفيما وراء قارة الجرثمي وعكاش فإن شعيب الحِسِب يتجه إلى الشّرق تقريباً ويختفي في الرواسب الغِرينيّة عند القادسية .

في الساعة ٥,٢٧ بدا للنظر من خلال الضّباب سهل المتاهة المنعزل إلى الشرق ، كما بدت من الغرب تلال عكاش المُسَطّحَة . وفي الساعة السادسة خيمنا عند مجرى الحِسِب قربَ حفرة مستديرة مملوءة بمياه الأمطار . وتسمى مثل هذه الحفرة المستديرة التي تقع بمحاذاة مجرى النهر الجِفنة .

بدأنا المسير في الساعة ٤,١٥ من صباح الخامس من نيسان . وكانت الرياح الشمالية الغربية القوية التي استمرّت في الهبوب طوال الليل قد هدأت في الساعة الخامسة . وفي الساعة ٥,١٨ وصلنا إلى رأس شعيب الأميلح وتسلقنا المرتفع الذي تمكّنا منه من الحصول على منظرٍ جامع لجميع القرى الممتدة حتى النّجف . كنا نجتاز قطعة أرض مستوية في منطقة كانت مسكوة بالحصا ورأينا إلى الشمال الغربي المَصَب الواسع لشعيب أبو خمسات الذي ينبثق من ميسات عكّاش الواطئة البيضاء ، التي كانت تقع إلى الغرب عند الساعة السادسة . ورأينا فيما وراء الشعيب من الناحية الشمالية الغربية جُرف طار الصّيهدِ الشاهق الذي يفيض في شماله أسهل وادي الخِرّ . وفي الساعة ٦,٤٠ كان بالإمكان رؤية أشجار الأثل بالقرب من آبار الوشّاشات . وإلى الغرب منها مزرعة قصر الرُّهبان التي كان قد أعيد بناؤها فأصبحت مأهولة . وفي الساعة السابعة وجدنا أنفسنا قُرب منطقة الطّف . (وهي المنطقة التي تلتقي فيها الصحراء مع الطمى الوفير الذي كان يصرفه الفرات) عند حسو عُبيد ، وهو حوض مغطّى بطبقة من الطّمي يبلغ سمكها حوالي المتر والمحاطُ بصخورٍ

بيضاء يبلغ ارتفاعها ستة أمتار . وكان ماء المطر يتجمّع أسفل هذا الطّمي فوق قاعدة صخرية وكانت تُستعمل في ري الحقول المزروعة بالشعير .

استرحنا فيما بين الساعة ٧,٠٥ و ٧,٥٠ بالقرب من بيوت قبيلة خفاجة ، المتّحدين مع الغزالات . وقد استفسر راشد وزبيري عن بقية الطريق إلى النّجف وعن الأحوال السياسية والتّجارية السائدة في المنطقة المجاورة .

وفي الساعة ٨,١٠ عبرنا شعيب أبو حَميد الذي ينتهي إلى الشمال من حِسو عُبيد . وكان الأفق إلى الشمال والشمال الشرقي محاطاً بجرُف طار الصِّيهد ، الذي كانت تلمع فوق قِمته قُبّة قَبْرِ علي (الإمام علي رضي الله عنه) المُذَهّبة ، أعظم قديسٍ لدى الشيعة . ورأينا في الساعة التاسعة والنصف هضَبَة الرهيمة الصغيرة بادية إلى الشمال الغربي ، وهي تقع في الطّف وأكثر تحديداً ، في الجزء الشرقي لحوض حِسيان السّوس (؟) .

عبرنا عند الساعة ٩,٤٧ شعيب أبو خمسات العريض ، الذي يرتفع على ضفّته اليمنى نبع عين العزية (؟) ، الذي يروي الحقول المزروعة . لم تتمكن جمالنا المُتعبة ، والمحملة بالأثقال من اجتياز المستنقعات بمثل سرعة الجمال الأخرى فتخلّفنا عنها . وفي الساعة ١٠,٢٥ كان قصر العِزيّة ، يقع على بُعد كيل تقريباً إلى الجنوب الشرقي وهنـاك كان ينبوع ماء وفي الساعة ١١,٢٠ تركنا درب الحصوني وسرنا رأساً باتجاه النجف عبر الحقول المزروعة .

وصلنا في الساعة ١٢,٠٢ بركة ماء كانت تمتد شمالاً وشمالاً شرقياً حتى جرُف طار الصّيهد الأبيض وكانت تختفي عن النّظَر إلى الشّرق أسفل قمم النخيل إلى الجنوب من النجف . وبما أن رفاقنا خاضوا المياه مع جمالهم ، فإننا تتبّعنا أثرهم . ولم تكن جمالهم تحمل أي عبء ، بينما كان كل واحد من جمالنا مُحملاً بما لا يقل عن ١٣٠ كيلاً . فكانت تسير بحذرٍ شديد ، وتتعثّر ، وبعيد الساعة الثانية لم يعد بإمكانها مواصلة السّير فبركت على رُكَبها في الماء ، التي كان يبلغ في العمق ٤٠ سنتيمتراً تقريباً ، ولم تستطع الوقوف مرة أخرى على أرجلها . فساعدناها على ذلك بإزالة جزء من حمولتها وسحب أرجلها من الطّين ، ولكن لم تتمكن الحيوانات

المُتعبة كثيراً من العثور على أرض صلبة تتحمّل ثُقل أقدامها . فأخذت تغور أكثر فأكثر . فاضطررنا إلى إنزال حمولتها وضبط الحزم الثقيلة حتى يكون رفاقنا قد أتمّوا مساعدة كل جَمَلٍ على الوقوف . ولم نتمكن من إعادة وضع الأحمال فوق ظهورها إلا بعد ذالك .

كان الكثير من الأغراض قد تبَلّل بالمياه وتلف ، وكنا ملوثين بالوحل ؛ ومع ذلك ، كنا مسرورين لعدم فقدان شيء من جمالنا . وكانت الساعة ٣,١٢ بعد أن تمكنا من تخليص أنفسنا من الوحل والمياه .

في الساعة ٣,٢٩ كان هناك مُصَلّى شيعي يقع إلى شمالنا . التففنا حول طرف مدينة النّجف وتسلّقنا سهل الجرعا المنعزل عن طريق أبو كدماية ونصبنا خيامنا في الساعة ٤,٢٠ بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية لجدار الحصن .

توّجهت على الفور إلى (القائم مقام) قبل أن أغيّر ملابسي ، وهو شركسي يبلغ من العمر أربعين سنة تقريباً . وكان استقباله لي فاتراً ، عندما رآى هذا البدوي القذِر ، كان يميل كثيراً إلى أن يعتبرني أحد الجواسيس الانكليز . عرضت عليه أوراق اعتمادي، ولكن لم تَبْدُ لديه ثِقَة في صِحّتها . غير أنني تمكنت من إقناعه بعد فترة طويلة بأنني لست إنكليزياً ؛ ومع ذالك ظنني أحد الضباط الألمان المتنكّرين ، ممن كان يكرههم ، ممن يعارضونه . وفي تلك اللحظة دخل محافظ النّجف إلى المبنى الرسمي . وكان قد قام بزيارتي في سنة ١٩١٢ بصفته ممثّلاً للقائم مقام السابق عندما كنت في خيمتي بالقرب من الكوفة . وعندما تبيّنني تقدّم لتحيّتي ، وأكّد للشركسي صحّة كلامي ، وبرهن له عن استقامتي . وساعد هذا في النهاية ، فتخَلّى عندئذٍ القائم مقام عن تحفّظه وأخذ يوضح صعوبة مُهِمّتِه ، ثم التمس مني أن أستعمل نفوذي لدى الزّعيم دغيّم بن براك الذي كان يقطن بين النّجف والكوفة والذي كانت رعيته تطلق النار على كل شُرطي كان يبتعد عن الطّريق ويتوغّل داخل أرضها . وقد قام القائم مقام والمحافظ بمرافقتي إلى خيمتي ، وأهداني القائم مقام أحد الأفراس . وفي المساء هبت عاصفة رملية قوية من الشمال الغربي .

(للبحث صلة)

الحــواشي :

(١) السلمان : نقل ما جاء في «معجم البلدان» ٣/١٢١ و٤/٤٢٥ – أن السلمان بين عين صيد وواقصة والعقبة ، وأن بالقرب منه قبر نوفل بن عبد مناف ، وأن صنم محرق الذي كانت عنزة وعمرو بن غفيلة وغيرهما تتقرب إليه في الجاهلية كان هناك .

(٢) الشيحة : أورد ما جاء عن عمارة بن عقيل في «معجم ما استعجم» من أنها رملة بقرب الحزن ، حيث هضبة المليحة . وقول السكوني الذي أورده ياقوت في «معجم البلدان» ج٣/٣٤٦ – ان الشيحة موقع فيه ماء يبعد مسيرة يوم وليلة إلى الشرق من فيد ، يناوح القيصومة ، وقول نصر أن ذات الشيح في الحزن من بلاد بني يربوع . ويعقب على ما تقدم بأنه ينطبق على موقع مياه الشيحيات ، إذ الحزن يمتد منه .

(٣) وقال موزل : إن الشيحيات تطابق محطة الحجاج المعروفة باسم ذات الشقوق . ونقل أن الخليفة المنصور رحل من زبالة والرضم ولما بلغ وراء الشقوق ركب فرساً ، ورفض الركوب في محفة ، وكانت الحرارة قد بلغت ذروتها ، وأحال الخبر إلى « الأغاني » ج ٣ ص ٣٩ طبعة بولاق سنة ١٢٨٥هـ) .

ونقل ما أورده ياقوت في «المعجم» من أن الرضم بين الشقوق وزبالة على بعد ستة أميال من زبالة .

ونقل قول الأصطخري في« المسالك » أن الدهناء بين الشقوق وبين الأجفر .

(٤) صبيب : يرى موزل أن الموقع الذي تحدث عنه ياقوت في «معجم البلدان» باسم (الخوي) بالخاء المعجمة ، هو الجوي – تصغير جو بالجيم لا بالخاء – ويقول : ينبغي أن يبحث عنه في عقلة مشحن – أي أنه يرى أن هذه العقلة هي الجوي الوارد مصحفاً في «معجم البلدان» وصبيب – الوارد في «معجم البلدان» يرى موزل أن اسمه (شبيب) محرف عن (صميت) فحرف حرف (ب) فأصبح (م) وحرف (ب) الأخير تصحيف (ت) وقال : يقع الصميت إلى الشمال الغربي من واقصة ، ويستدل بكلام ياقوت في (لصف) ويضيف : لصف هو ماء اللصف المعروف الذي يقع على بعد خمسة أكيال تقريباً من الصميت ، وهي مسافة تقارب ما ذكرياقوت . ومن الممكن أن يكون الطريق المؤدي من واقصة إلى عين التمر في سورية يمر بالقرب من عقلة مشحن (الجوي) فالصميت فلصف .

(٥) المغنية : نقل ما جاء في «معجم البلدان» من أن المغنية حفرت بأمر معن بن إياس غرب المغيثة ، وقول الحازمي : أنها تبعد مرحلتين عن القادسية ، بين الكوفة والشام ، منسوبة إلى معن بن زائدة الشيباني . ويعقب بأن تلك المعلومات صحيحة على وجه التقريب .

(٦) الطف : يورد ما جاء في شعر الأخطل من أن الطف بقرب العراق بين المنطقة المأهولة منه وبين الصحراء ، ويورد خبر قتل الحسين – رضي الله عنه – في الطف ، وأخباراً أخرى ينقلها من تاريخ ابن جرير ومن «معجم البلدان» و « معجم ما استعجم» .

(٧) خفية : يقول عنها ما تعريبه : إنني أتبين خفية في حسو عبيد ، ويورد ما جاء في «معجم البلدان » عن خفية ويقول : وفي الحقيقة أن حسو عبيد يقع إلى الجنوب الشرقي من الرهيمة ، وإلى الشمال الغربي من من الرحبة

(٨) الرهيمة : يورد عنها ما في «معجم البلدان» و « معجم ما استعجم » من أنها بالقرب من الكوفة ، على بعد ثلاثة أميال من خفية .

تحفة الألباء
في تاريخ الأحساء

هذه الرسالة : لا تضيف جديداً من المعلومات عن تاريخ بلاد الأحساء ، ولكنّها تتضمّن معلومات عامة قد تفيد بعض القرّاء . ثم إنّها أثر من آثار أحد كتّاب بلادنا . وقد بقيت مجهولة لدى كثير من الباحثين المعنيين بدراسة التاريخ ما يقرب من نصف قرن ، منذ أن نشرت مطبوعة سنة ١٣٣٣ (١٩١٢م) وهذا ما دفع مجلة « العرب » إلى إعادة نشرها وإن كان فيها آراء يجب أن يقف القاري منها موقف المتثبت ، فكاتبها — والله يغفر له — لم يكن يتحرّى الدقّة في كل ما يكتب ، ونكتفي بهذه الإشارة . مع لفت النظر إلى ما كتبناه عنه في حواشي « نبذة في تاريخ نجد » لضاري بن عبيد بن رشيد ، من منشورات (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) .

المؤلف : هو سليمان بن صالح آل دَخيل— بفتح الدال وكسر الخاء المعجمة ، وآل دخيل من الأسر المعروفة في القصيم ، من قبيلة الدواسر من همدان ثم من قحطان . ولد سليمان في مدينة بريدة سنة ١٢٩٠ .

وقد رحل إلى البصرة ثم إلى الهند لطلب المعيشة فعمل كاتباً عند التاجر النجدي المعروف عبدالله بن محمد الفوزان — والد السفير الشيخ يوسف الفوزان — .

وعاد من الهند بعد أن أصبح عمه جارالله الدخيل وكيلاً للأمير ابن رشيد في بغداد .

وقد هرب من العراق سنة ١٣٣٢ لما قامت الحرب العامة إلى المدينة ، ثم عاد إلى بغداد ، وقويت صلته بعلمائها كالسيد محمود شكري الألوسي وغيره فاتجه إلى الاشتغال بالأدب والتاريخ ، وأصدر جريدة « الرياض » ثم مجلة « الحياة » وألف كتباً ورسائل أكثرها يتعلق بتاريخ نجد منها :

١ – القول السديد ، في أخبار إمارة آل رشيد .
٢ – مجموعة أشعار عامية لمشاهير شعراء من نجد .
٣ – تحفة الألباء في تاريخ الأحساء .
٤ – تاريخ إمارات العرب .
٥ – مختصر حديقة الزوراء .
٦ – مختصر منهل الأولياء .
٧ – كتاب عن الغوص للبحث عن اللؤلؤ (مطبوع) .

وقد أسس دار طبع في بغداد نشرت بعض المؤلفات .

وقد توفي الأستاذ سليمان الدخيل سنة ١٣٦٤ – عن ٧٤ سنة – في بغداد ، بعد أن قاسَى من ضروب العوز والفاقة ما دفعه إلى بيع كتبه ، ثم بيع مسودات مؤلفاته .

وللتوسع في معرفة بعض أحواله يحسن الرجوع إلى ما كتبته مجلة « العرب» عنه في سنتها الأولى[1] .

وقد صدَّر المؤلف كتابه هذا بكلام عنوانه (العرب والتاريخ) يتحدث فيه عن قلة المؤلفات التي تتعلق بالجزيرة وسكانها وذكر القبائل وأنسابها . لم نرَ كبير فائدة في إيراد ذلك التصدير ، لضعف ارتباطه بالموضوع .

وقد أوردنا الرسالة بنصها لم نغير سوى كلمات يسيرة نعتقد أنها من خطإ الطبع ، مع ورود كثير من الكلمات العاميّة إذ المؤلف ليس على درجة قوية من اللغة الفصحى ، وقد أبقينا تلك الكلمات ، مع إيضاح بعض معانيها في الهامش .

وهذا نصُّ الرسـالة :

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين وعليه نتوكل

الحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد : فإن من الواجب على كل عالم بأي شيء مهما كان

(١) من ص ٤٦٩ إلى ٤٧٦ .

مفيداً أن ينشره بين متطلعيه خصوصاً إذا كان مما يتعلق بأحوالهم وبلادهم وتاريخ أوطانهم وأسلافهم فإن الأمر إذ ذاك يتأكد وجوباً ويتحتم لزوماً ونحن وفاء بهذا الواجب وأداء لحق وجب علينا من خدمة أبناء الوطن والأمة العربية نلج هذا الموضوع « تاريخ الأحساء » معتقدين بأنه مما تهمُّ كل عربي معرفته والإطلاع عليه .

وبما أن العلم بأحوال البلاد، والإلمام بتاريخ أي بلد كان ، بين ظلام الماضي والفتن الغابرة ، والسياسات المتضاربة ، التي تغطي وجوه الحقائق عن السفور لمما لا يضمن للباحث العصمة . ولذلك نجعل هذا نصب أعيننا عذراً لما عسى أن يعترض معترض بأننا أغفلنا شيئاً من تاريخ هذه البلاد وذكرنا شيئاً لا يوافق معلوماتهم ومعارفهم فتلك وهذه الأحوال قد تقع نادرة فيما أظن ، إن أنصف العارف وتجرد عن الميل لبعض الجماعات ، مع أن الإنسان مهما كان مدققاً ومفكراً لا يضمن لنفسه العصمة التي هي ليست لأحد سوى الله .

الأحساء : واسمها وصفتها : يقال حسا الماء يحسوه إذا تناوله من الأرض شيئاً فشيئاً . والمكان أو الحفرة التي تحفر فيجمُّ بها الماء يقال لها حسي وحسو ويجمع على أحساء . هذا هو المشهور اليوم عند عربان نجد ومن والاهم ، فهم يطلقون على أمثال هذه الآبار أحساء . متى ما كان يؤخذ منها الماء يتحسى أي يتحصل عليه شيئاً بعد شيء إما بآنية غرفاً أو بما أشبه ذلك .

أما إذا كانت غزيرة الماء عميقة مطوية فآبار ، وإذا كانت واسعة أعدت لاجتماع السيل فيها فَبِرَكٌ ، وإن لم تطو فقليب ويجمع على قلبان وقلب . وتفصيل هذا في كتاب « البئر » لأبي زيد .

وعلى هذا القول يكون المراد بالأحساء هو أشبه شيء بالآبار تحفرها العرب في مجاري المياه كبطون الأودية والشعاب . وما أشبه ذلك مما إذا سال به المطر حفظه في بعض مطامنه ومنعرجاته . فإذا حفروا به حفرة وتجمع الماء بأسفلها تأخذ العرب بتحسِّيها أي استدرارها .

وإذا كانت هذه الحفر أقل من قامة فيقال لها ثميلة وثمائل ، فالحسي عندهم يراد به الحفر المذكورة إذا تجاوزت القامة وهي الثميلة إذا لم تتجاوزها .

وقال ياقوت في معجمه : إنّه الماء الذي تنشفه الأرض من الرمل فإذا صار إلى صلابة أمسكته فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه . وذكر : أنه الرمل المتراكم أسفله جبل صلد ، فإذا أُمطر الرمل نشف ماء المطر فإذا انتهى إلى الجبل الذي تحته أمسكه ومنع الرمل حرَّ الشمس أن ينشف الماء . فإذا اشتد الحر نُبِث وجه الرمل عن الماء فنبع عذباً يتبرَّض تبرُّضاً :

فمما تقدم عرف ما هو الأحساء وما يراد به ، وقد سمت العرب مياهاً كثيرة بهذا الأسم ، منها ما ذكر في المعجمات وكتب اللغة . كأحساء بني سعد بحذاء هجر ، وأحساء جديلة طيء ، وأحساء خرشاف ، وأحساء القطيف ، وأحساء بحذاء الحاجر في طريق مكة ، ونقل بعضهم عن الغطريف شعراً قاله لرجل كان لصّاً ثم أصاب سلطاناً .

جرى لك بالأحساء بعد بؤوسها ... غـداة القشيريين بالملك تغلـب
عليك بضرب الناس ما دمت والياً ... كما كنت في دهر الملصَّة تُضْرب

وأحساء بني وهب ، وأحساء لغني الذي قال فيه الحسين بن مطير الأسدي :

أين جيراننـا على الأحسـاء ؟ ... أين جيراننا على الأطـواء ؟
فارقونـا والأرض ملبسة نـو ... ر الأقاحـي بجانب الأنـواء
كل يوم بأقحـوان ونـور ... تضحك الأرض من بكاء السماء

وأحساء الأساحل ، وأحساء الثمام ، وأحساء بني جونة ، وأحساء بني حريشة ، وأحساء بني مريفق وحسيان الجزع ، قال بعضهم :

ألا أيهـا الحسيان بالجزع لاونَى ... من الغيث مدرار يجود ذراكمـا
جمومان بالماء الزلال عـلى الحصا ... قليل على نفح الرياح قذاكمـا

وحسي الغميم ، وحسي المديرة قال بعضهم :

أيا نخلتي حسي المديرة هل لنـا ... سبيل إلى ظليكمـا أو جناكما ؟
أيـا نخلتي حسي المديـرة ليتني ... أكون طوال الدهر حيث أراكما

وحسي كباب ، وحسي المطرد . قال الرماح :

أيا نخلتي حـسي المطرد إنـني ... لصبٌّ إلى القارات ممـا تراكما

سألتكمـــا بالله أن تجعلا الهـــوى لغيري وأن تنبتّ مني قواكمـــا

ومنها ما لم يذكر وقد حدث أخيراً ، وهذا لا يوقف له على حد ، ولا يستقصى له عد ، ولكن ليس مما ذكر ما صار مدينة وسميت به إلا هذه الأحساء التي نحن بصدد البحث عنها وهي المشهورة سابقاً باسم أحساء بني سعد بحذاء هجر ، وتسميها العرب اليوم « الحساء » باسكان اللام وفتح الحاء والسين وهي بحذاء هجر والبعض قال : إن هجر معنى شامل لقطعة الأحساء والبحرين وما يتبعهما كما يقال الشام ، والعراق والحجاز .

صفتها : وأما صفتها فقد ذكر صاحب « تقويم البلدان » أنها بليدة ذات نخيل كثيرة ومياه جارية ومنابعها حارة شديدة الحرارة ونخيلها بقدر غوطة دمشق مستدير عليها .

وإذا أردنا أن نصفها للقارىء فليتصور أنه في أرض ذات رمال كثيرة وبين هذه الرمال بلد واسعة كثيرة القرى والنخيل والعيون والأشجار ، وطقسها شديدة الحرارة فيحدث في أيام الصيف هواء ساخِناً فيه شيء من اللزوجة وساكنهُ يكون دائماً معرضاً للحميات والأمراض ، والبلد ليس على شيء عظيم من النظافة لأنها بلاد متأخرة وعلى كفة العرب الرحالة .

وقراها وبساتينها متفرقة وهذه البساتين قائمة على عيون وأنهار تختلف في صغرها وكبرها .

وهذه البلاد ليست بعيدة من البحر مع أن ساكنها يحس بهواء البحر ولزوجته في أيام الصيف . وأهلها في حالة البداوة وفي تمسك شديد بالدين الحنيفي وآدابه .

مؤسسها وموقعها وحدودها : لم نقف على شيء يدلنا على من أسس الأحساء إلا ما تقدم ذكره ، وعرفت به أي أحساء بني سعد . وقال بعض المؤرخين : إنها كانت قبل ألفي سنة لطائفة من المجوس لكن المشهور هنا أن الذي عمرها فجعلها مدينة هجر هو أبو طاهر الحسن بن أبي سعيد الجنّابي القرمطي .

قال في « تاج العروس » : وفي العرب أحساء كثيرة منها أحساء بني سعد بلد

بحذاء هجر بالبحرين ، وهو أحساء القرامِطة لأن أول من عمره وحصنه وجعله قصبة هجر أبو طاهر الحسن بن أبي سعيد القرمطي ، قال الأزهري: وهي اليوم دار القرامطة وبها منازلهم .

وقال غيره : إنها لم تزل بعد الفتح الإسلامي تحت عمال البحرين وعمان إلى أن استولت عليها القرامطة في القرن الثالث للهجرة .

وهنا نقول : إن أبا طاهر الحسن تولى الأمر بعد وفاة أبيه التي وقعت في سنة ٣١٠ هجرية وتوفي هو في سنة ٣٣٢ هجرية وعليه يكون (والله أعلم) أنه اتخذ الأحساء داراً بعد أن هرب من البصرة سنة ٣١١ فعلى هذا تكون قد تعمرت وتحصنت منذ عشرين سنة وألف سنة ؟ وهي إلى اليوم بلاد واسعة الأطراف ، ممتدة الأكناف ، ذات نفوس كثيرة ، وأشجار وثمار ، وعيون وأنهار ، وتجارة ، وصناعة ، وبادية وحاضرة وهي بالجملة من أهم البلاد العربية ، ومن أعظمها منابع للثروة والغنا ، ولها موقع سياسي مهم بين قطر وعمان والبحرين والقطيف والكويت ونجد .

موقعها : وأما موقعها فقد قسم العرب جزيرة العرب إلى ستة أقسام هي طبيعية أكثر منها سياسية وهي : (١) الحجاز و (٢) اليمن و (٣) نجد في أواسط شبه جزيرة العرب و (٤) وحضر موت على بحر عمان و (٥) الأحساء على الخليج الفارسي و (٦) عمان على هذا الخليج أيضاً وكائنة في الجهة الشرقية لنجد وتبعد عنها سبع مراحل.

وأما من جهة العرض والطول فتكون على الحساب العربي ٣٧ درجة ونصف درجة طولاً و٢٢ عرضاً .

وعلى حساب لندن تكون من خط الإستواء بين الدرجة ٣٠و٤٢ عرضاً و١٥ و٤٨ درجة طولاً .

طولها : وأما طول البلد فقد ذكر العلامة السيد محمود شكري الآلوسي أنها اثنتان وستون ساعة اعتباراً من (بيريه)[1] الواقعة في جنوبها إلى جزيرة العمائر الواقعة غرباً منها .

---

(١) الصواب (يبرين) .

وأما مساحتها فخمسون وثلاثمائة ميل انكليزي طولاً وأعرض محل فيها مائة ميل انكليزي .

حدودها : وأما حدودها فمن جهة الشمال يحدها الكويت وقد كانت تابعة لها . ومن جهة الجنوب يحدها قطر . ومن جهة الشرق الخليج الفارسي ومن جهة الغرب نفود الدهنا وأرض الصمّان ؛ والصمان والدهنا واقعتان بينها وبين نجد . فالصمان أرض ذات صلابة شديدة ، وأحجار كثيرة ، بعيدة المياه أقل ما فيها بعد خمسة عشر باع والدهناء كثبان رمل متطاول أولها بأرض مصر[1] وآخرها جنوباً عن الأحساء . لهذا المسافر إلى نجد يحتاج إلى حمل الماء لقطع هذه المسافة الصعبة بينها وبين نجد . على أن المسافر منها إلى تلك الديار حاجته إلى الماء أشد لأن أراضيها وشكلها متشابه في كل شيء ، وأحياناً الدليل يشتبه عليه الأمر فيقع في حيرة . وأما الرفيق أو المسيِّر فلا بد منه أيضاً لأن أعراب تيك الديار لا يردهم أحد عن القتل والسلب ، الا مسير منهم معروف من بيوتهم الكبيرة .

والذي جعل المدينة عامرة هو ورود الأعراب الكثيرة اليها للامتيار والتزود من بضائعها ومنسوجاتها التي هي رائجة بين الأعراب وأهالي نجد أكثر من غيرها .

ولحيلولة الدهناء والصمان بينها وبين نجد قد أصبحت عشائرها في أمن من غارات الأعراب ومهاجماتهم فلا يحدث عليهم من غارات العشائر الأخرى إلا شيء قليل . أو ما هو من تلك العشائر نفسها فيما بينها . أو من أمير كبير كأحد أمراء نجد فإنه يغزوهم ويؤدبهم متى ما حادوا عن الطريق وعاثوا في الأرض فساداً .

ولقد تعاقب على هذه البلاد أمراء كبار أهل إمارات واسعة وقوة وسطوة وبأس شديد ، عمروها فكانت في أيام الكثيرين منهم مدينة علم ورقيّ وتقدم في السعي والعمل وتفنن عظيم في الحروب والغزوات مما سيأتي ذكره بحول الله ومشيئته .

وأما أنها أصبحت على جانب عظيم من التأخر والانحطاط فهذا أمر حدث فيها أخيراً ولا حاجة لشرح أسباب ذلك . لكنها قد أصبحت في أيامها الأخيرة في أتعس

---

(١) طرف الدهناء الشمالي لا يتجاوز وادي السرحان شمالا (العرب) .

حال . ولطالما خسرت تجارتها قوافل كل قافلة تقدر ما بين الأربعين ألف والثمانين ألف ليرة ، وربما صادف مثل هذا الحادث في السنة مرة أو مرتين ، وذلك من كثرة غارات الأعراب عليها حينما رأوا أن الوقت مساعف لهم في ذلك . وكم من مرة استنجد أهاليها بأمراء نجد لتأديب هؤلاء المعتدين فيغزونهم ويؤدبونهم ويردون الأمنية[1] إلى مجاريها وقد نوهت على بعض ذلك غير مرة فتدبر[2] .

بناؤها ودورها وقراها : ليس للأحساء في بنائها شيء غريب عن البلاد العربية وإنما هي بالدرجة الوسطى بين البلاد العراقية والبلاد النجدية ذلك من حيث الصنعة في البناء والهندسة وما أشبههما ، وأما من حيث القوة والمتانة فهي لا تقل في بنائها عن سائر البلاد العربية قوة ورصانة ، لكن المختلف فيه هنا هو كيفية طرق استعمال البناء فأهل الشام مثلاً يستعملون الحجارة في أسس البيوت والجدر والطاقات وغير ذلك وأسبابه وجود الحجارة الكثيرة عندهم ذلك لأن أرضها جبلية وموقعها بضفاف الجبال أيضاً ، وهكذا نقول عن بلد الموصل فإن لأهلها يدٌ طولى في نحت الحجارة الصلدة ، ووضعها في البناء ولهم في ذلك تفنن جميل وصنعة لطيفة لا يكاد أن يضارعهم فيها أحد غيرهم .

وأهل العراق على خلاف ذلك فإنه لما كانت مواضع مدنه بعيدة من الجبال كانت مباني أهاليه بالآجر وهو شيء لهم فيه أقدمية عن غيرهم ولهم في قطعه وصبّه وشيّه طرق كثيرة يحسنونها مالا يحسنها غيرهم .

وبمثل هذا نقول عن البصرة أيضاً وأما الأحساء فإنها على هذا المنوال إلا أنها لما كانت بعيدة عن العراق لم تدرج عند أهلها صناعة الآجرّ ولكن طينة بلادهم قوية تساعد على البناء حتى إنها قريبة من الآجرّ في القوة والمكانة ، ولهذا فإن أهاليها قد يكتفون بها بدون شي ولا طبخ مع ذلك ترى بيوتهم ذات سعة ورصانة وتستقيم مدة طويلة تتراوح ما بين الخمسين والمائة سنة .

---

(١) (المياه) .

(٢) يقصد بما نشر في صحف عهده من مقالات وكان ينشر في «لغة العرب» للأب الكرملي وفي «الحياة» و «الرياض» اللتين كان المؤلف أصدرهما .

وأما دورها فمنها ما هو طبقة واحدة ومنها ما هو طبقتان ، وذو الثلاث طبقات فيها قليل وأكثر بيوتهم واسعة وأسباب ذلك هو قلة المزاحم لهم في أراضيهم وبلادهم من الأقوام الأخرى ، بخلاف العراق مثلاً فإنه مهبط لأقوام كثيرة مختلفة بين عرب وترك وكرد وعجم وهنود وغيرهم ، ولهذا كلما زادت الأقوام فيها زادت الأملاك والأراضي قيمة ، وأقرب شيء نستطيع أن نشبهها به من البلاد العراقية في البناء والمنازل (بَعْقوبة) فهي بلاد لم تكن متقدمة في البنا كما أنها لم تكن متقدمة في الثروة والتجارة كما يأتي بيان ذلك انشاء الله ، هذا من جهة البناء وكيفيته .

أما دورها من جهة العدد فكثيرة ويعسر عدها وإحصائها وليس هنالك معتمد رسمي إلا تقديري ، وقد ذكر بعضهم إن الهفوف التي هي عاصمة الإمارة ومركز الحكومة وأكبر بلد في الإحساء أو التي يطلق عليها الأسم يوجد بها ثلاثة آلاف دار تقريباً مع هذا لا نستطيع أن نفرض زيادة عما ذكر لأنا لم نر منها تقدماً عن حالتها الأولى إن لم نقل إنا رأينا منها تأخراً ومثل هـــذا ذكر في تقويم الحكومة القديم للبصرة وذكر مثل ذلك العلامة السيد محمود أفندي شـــكري الآلوسي في تاريخه وأما مجموع دور خطة الأحساء في قراها كلها فتقدر بأكثر من عشرين ألف دار وهذا في نظرنا ليس بالشيء القليل على خطة كثيرة القرى .

وأما قراها فهي كثيرة القرى وقد اختلف في عددها فمنهم من قدرها بأزيد من مئتي قرية ونقل لنا بعضهم أنها تزيد عن أربع مئة قرية ولكن الصحيح المعروف أنها تقرب من ثلاث مئة قرية المعروف منها ما يقدر بالمئتين والباقي صغار ، عدد وأسم بلا مسمّى ، وقد ذكر الألوسي في تاريخه أن فيها أكثر من مئتي قرية كبيرة لكننا لم نقف على شيء من هذه القرى الكبار إلا قليلاً كالهفوف والمبرز والجشة والجبيل والكوت والنعاثل والقرن والرفعة والجفر واصديه وشبه وام اربيع وأكبر ما فيها الهفهوف فهو مركز الإمارة في زمن أمراء نجد ، وفيه مقام الحكومة أيام كانت بيد العثمانيين . والهفهوف لها

---

(١) يقصد التقويم الذي تصوره الدولة التركية .

(٢) يقصد «تاريخ نجد» .

سوران سور داخلي وسور خارجي محيط بالبلد ، ومن ورائها خندق وللسور الخارجي خمسة أبواب على كل باب قطعة ، والسوران في وصفهما يشبهان دائرتان واحدة في أخرى فأما أبواب السور الخارجي فهي كما ترى حسب هذا الترتيب :

باب الفتح	من جهة القطيف
باب الخميس	من طريق المبرز
باب القرن	جهة القطيف
باب الرياض	جهة الرياض
باب الوقف	جهة القصيم
باب الفتح	في داخل الكوت

هذا على سبيل المعروف عند بعض أهل نجد أما عند أهل الإحساء :

باب الفتح	من جهة المبرز شمالاً
باب الرقيقه	جهة قطر غرباً
باب البساتين	إلى جهة البساتين
باب العجير	إلى العقير
باب الخميس	من جهة المبرز أيضاً لأن فيه (سوق الخميس)

كما يأتي وتراه في رسمها الذين وضعناه لها[1] .

طقسها وأراضيها وزراعتها : حالة الطقس في هذه الخطة تختلف عن غيرها فهي بالنظر إلى البحرين وقطر قليلة الحرّ ، وبالنظر إلى العراق شديدة الحر في أيام القيظ . وقد تبلغ درجة الحرارة فيها إلى قرب الخمسين درجة وهي كثيرة الأهوية والزوابع وفيها ما بين كل محل وآخر كثبان رمل متطاولة تنتقل أثناء هبوب الرياح والعواصف من مكان إلى آخر ، فتدمر كل شيء تمرّ عليه والذي يفرقها عن البحرين هو أن الأحساء بعيدة عن أهوية البحر اللزجة في أيام الصيف ، فإن أهالي البحرين يلاقون العناء في ذلك الوقت ، وأكثرهم ينفرون إلى خارج البلد في البساتين البعيدة ،

(١) لم يثبت الرسم في المطبوعة .

حيث يكون الهواء ناشفاً عذياً طيباً . وهي – الأحساء – في أيام الربيع طيبة المقام لذيذة المنام ، وأما في الشتاء فهي تماثل نجد – اليمامة – العروض في حالة البرد وشدته ، والأهالي يوقدون النخل والشوك وأغصان الشجر والغضاء والطرفاء وما أشبه ذلك .

وأما أراضيها فأكثرها صحاري وقفار خالية عن المياه وحسب التقويم الرسمي القديم تقدر أراضيها في سبع وعشرين ألف فدان والقابل منها للزرع مقدار ٩٠٠٠ فدان لكن إذا أمنت تجارتها وأهاليها لاريب أنها تزيد تقدماً في الزراعة فتصبح تزرع ما يقدر بخمسة عشر ألف فدان ، لأن أهاليها ميالون إلى الحرث والزراعة أكثر من غيرهم .

وأما زراعتها فيزرع فيها القمح والشعير والشلب[١] والدخن والاذرة[٢] غالباً ، وأهلها لا يقلون عن غيرهم مهارة في الزراعة ، فإنهم ممن اشتهروا في ذلك خصوصاً في غرس الأشجار والنخل ولهم في تربيتها وتلقيحها مهارة لا يضارعهم فيها أحد غيرهم .

وفيها ما يقرب من أربعة آلاف مزرعة للشلب وألف ومئتا مزرعة للحنطة ومن مزارع الشلب (وهو الأرز !) ما يزيد على أربع مئة مزرعة بعدحصاد الشلب تزرع حنطة وفي حين كثرة الأمطار تزيدالمزروعات فيها زيادة عظيمة فتستجلبه منها البلاد الأخرى كالبحرين وعمان وبلاد نجد . وكل البلاد القريبة منها وهنالك عربان كثيرة ميرتها من الأحساء دائماً .

عيونها وثمارها وأنهارها : في الأحساء عيون كثيرة وأكثر بساتينها قائمة على عيون وهي تختلف بكثرة مائها وعلويته لكن منها عين نجم وعين خريسان .

فأما عين نجم فعليها مدار أهل الهفهوف وهي عين كبيرة حلوة عذبة صافية الماء منها يستقي أهل البلد وأكثرهم يغتسلون ويطبخون من مائها وهو حار في الصيف والشتاء وقد وجدوا فيه منافع لهم .

---

(١) الرز قبل أن ينزع عن حبه القشر .
(٢) الصواب (الذرة) .

وعمرت هذه العين في قرب سنة ١١٥٥ فكان حولها شيئاً كثيراً[1] من النخيل والأشجار وقد فاقت آبار الإحساء كلها ؟ وفي وصفها قال أحد الفضلاء وهو الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد الملا رحمه الله :

يا عين نجم فقت آبار الحسا ... بحرارة وبخار ماء يصعد
إذا كان حمامات أصحاب القرى ... يحتاج قاصدها لنار توقد
ودخان مائك ليس فيه مدخل ... للخلق بل تقدير مولى يوجد
لولا الموانع قد عرتك ترادفت ... منا إليك زيارة وتردد
منها اجتماع رجالنا ونسائنا ... من حول عرصتك التي هي تقصد
وكذا اختلاط الضدّ من لا يشتهي ... مرآهم قلبي ولا يتورد
وكذا موانع لا أذيع بذكرها ... جهراً ويفهمها (...)[2]

وقال سلالة العلماء الأماثل الأعيان الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عثمان الأحسائي مذيلاً للبيت الأول :

يا عين نجم فقت آبار الحسا ... بحرارة وبخار ماء يصعد
وعجيب حالك كم دَهَا ذا فطنة ... حتى تحير فيه وهو الأرشد
ومن العجائب أن يعدّ فضيلة ... شيء سواك وحسن ذاتك يوجد
وإليك قد سمت العزائم للورى ... متفرّجين فدأب خدرك يقصد
والناس طرّاً أظهروا حبّ الثناء ... والقيظ عندهم بغيض مكمد
ولساغ وسلك بالشتاء ببرده ... ولأنه بلظى الهجير منكد
وإلى منيع جنابك المحروس كم ... من سيّد أضحى هوى يتردد
لمنافع قد شوهدت وتفرج ... يدع القلوب بأنسها متقلد
قد كنت طبّاً نافعاً للريح إن ... مكنت بجسم برؤه مستبعد
ولكم رآى بك من عليل برءه ... مما عراه ونحن جزماً نشهد

---

(١) الصواب (شيء كثير) .

(٢) أنظر هذه المنظومة وتذييلها في «تاريخ نجد» للألومي، استدل بهما الدكتور طه حسين على ضعف الشعر في الجزيرة في بحثه «الحياة الأدبية في جزيرة العرب» .

وإذا تضيفت الهموم قلوبنا فعلاجها أن تنتحيك فتبعد
وبذا شغفت قلوبنا حبّاً فكم تلك عنك منّاً ساوة وتجلد
ما زال قلبي جانحاً لوصالكم أبداً ونسير ان المحبة توقد
هذا ولما منّ ربي باللقا زال العنا وأتى الهنا والمقصد
لولا موانع دهرنا لترادفت منّا إليك زيارة وتردد
دم سالماً في خفض عيش مخضل محروس ذات سوحها لا يفقد
ثم الصلاة مع السلام على النبي والآل ما ناح الحمام يغرد

وقد قيل فيها شيئاً كثيراً وكان العوام لهم فيها اعتقادات كان من فيه عاهة إذا اغتسل في هذه العين يبرأ . إلى غير ذلك مما يعتقد به العوام به كثيراً ولا طائل تحته فلما تولاها أمراء السعود الأولين دفنوها أياماً وذلك سدّاً للذريعة وخوفاً من فساد عقائد الأمة . لأن هذه الأمور مما لم يأت بها الشرع الشريف لا في الكتاب ولا في السنة بل إنها تجعل الناس في الإتكال على شيء لا ينفعهم ولا يضرهم. وهذا مما يفضي بالإنسان إلى الكسل والجبن والفشل في السعي وهو من جملة الأسباب التي حطت بالمسلمين وأخرتهم . وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في بحثنا عن عقائد أهل الإحساء فراجعه .

وأما عين خراسان (1) فهي أقل من عين نجم فلا حاجة إلى إطالة القول فيها وهنالك عيون كثيرة لم نذكرها لقلة الفائدة من ذكرها .

ثمارها : وأما ثمارها فهي كثيرة الأثمار ويوجد فيها النخيل وتمر الإحساء مشهور ضرب به المثل لكثرته فيقولون لمن جاء بشيء يريد أن يبيعه ببلاد وذلك الشيء كثير فيها : فلان كناقل التمر إلى هجر . ومن تمورها الطيبة الخلاصُ الشبيبي والأرزيز وغيره وتمرها يرسل إلى جميع الأقطار في الدنيا والخلاص من أحسن تمرها فإنه رقيق النوى ، غليظ الجلد . رقيق الغشاء طيب الطعم ، لذيذ المأكل . وعلى ذلك قول الإعرابي من أهل عمان لما سئل في جملة أسئلة عن خير التمر فقال : خير التمر ماغلظ لحاه .

---

(1) الصواب (خريسان) .

ودق نواه . ورق سحاه . وبالجملة لايوجد في الدنيا أحسن من تمر الإحساء إلا تمر نجد فإنه الفريد الذي ليس له مثيل .

وفيه الفواكه الكثيرة وأحسنها الخوخ وفيه الأترج وهو يوجد في البحرين ونجد وفيه من الفواكه والنخيل والبساتين العظيمة شيئاً كثيراً[1] فإن فيها من البساتين فقط ما يزيد على أربعة عشر ألف بستان . ويوجد فيه النبق الذي ليس له مثيل وقيل إن منه نوعاً معدوم النوى[2] إلى غير ذلك من جميع الفواكه المختلفة الطعم واللون .

أنهارها : وأما أنهارها فيوجد في عموم أراضيها ما يقرب من ثمانمائة نهر ما بين صغير وكبير . والأكثر منها ينبع من الرفعة الواقعة من الهفهوف[3] شرقاً وبعضها ينبع من شرقي المبرز البعيد عن الهفهوف ، نحو نصف ساعة وأما أعظمها فمن أرض الإحساء. وهذه الأنهر منها ما يزرع ومنها ما لا يزرع ، وعلى قول البعض : إن بعضها لا يصلح ماؤه للزرع لكن الغالب هو ما عليه بساتينها ونخيلها ومزروعاتها وغالب أهل البلد في أيام الصيف يسكنون بساتينهم وفي نخيلهم لحراستها وللتنزه فيها . ذلك إلى حين استواء الثمر وجنيه وأكثر العشائر التي ترد للإمتيار في ذلك الوقت تنزل قرب البساتين والنخيل فتمتار وتذهب من مكانها .

وأما معادنها فيوجد فيها معادن كثيرة لم نعرف حتى الآن ما هي . وفيها سبعة محال يتكون فيها الملح . وثلاث معادن للجص ومعدن طين قال السيد محمود شكري الآلوسي في « تاريخ نجد » ما مآله : أن هذا الطين يستعمله السكنة هناك للتنضيف بدل الصابون ، وأما معادن الملح فلم يستعمل منها سوى أربعة والثلاثة الباقية مهملة وهي في الصحراء مكشوفة الأطراف يأخذ منها الصادر والوارد ، وذلك مقتضى الشريعة

---

(١) الصواب (شيء كثير) .

(٢) رأيته في بستان للأخ الشيخ عبدالله بن الشيخ عبد العزيز آل مبارك سنة ١٣٥٨هـ ويدعى شجره (أم صليم) .

(١) كذا ولعل هذا أصح من (الهفوف) فقد ورد لأحد الشعراء قبل مائة عام قوله :

مهلا مهفهفة (الهفهوف) من هجر   أدقة العود ذي ، أم رنة الوتر ؟

الغراء فقد ورد « الناس شركاء في ثلاث الماء والملح والكلأ » وهكذا الحال عند أمراء العرب في نجد فإن هذه الثلاثة لا يقول عليها أحد لا صغير ولا كبير ولا أمير بل هي مشتركة بين الناس كلهم بلا فرق .

بحث في حيواناتها وما يتعلق بذلك : اشتهرت الأحساء في الجزيرة بجودة حيواناتها وتفوقها على الغير في ذلك ، والذي فيها من الحيوانات الأهلية لا يقل عن غيرها ، فمن حيواناتها الخيل والإبل والبقر والحُمُر فأما إبل الأحساء فهي أعظم إبل الجزيرة طولاً وجبراً ونتوءاً وهي مشهورة بالسبق إلا أنها أقل من غيرها صبراً على الكدّ والتعب ، وإبلها تعيش في بلادها طويلاً لكنّها لا تستقيم في البلاد الأخرى الباردة . وكثيراً من التجار يأخذونها ويجلبونها إلى مصر وسوريا حيث سوق الإبل هناك رائج جداً ، وأكثر ما تكون ألوان إبلها صُهْبٌ اللون وصفر وسود وحمر ، والأبيض والأسود اللون فيها قليل . وهي لا تعيش بالعراق بالمرة ولكنّها تستقيم في بلاد مصر وسوريا أكثر من غيرها . وهي بخلاف إبل عُمَان فإن تلك لا تكون طوالاً وتكون تَرِفَةً لكنها أسبق إبل توجد في الأرض ، ولا نبالغ وقد رأينا بالعين أنها تسبق الخيل حينما وضعوها في السبق فإنهم يقيمون معرض سباق عام للحيوانات كلها في عيد كل سنة وهكذا كانوا يقيمونه في بلاد نجد . والبلاد العربية كلها .

وللإبل عندهم نسب وحسب ويقسمونها إلى أربعة أقسام عُمَاني وهو ما يوجد في برِّ عُمان وقيل إن هذه النسبة إلى النعمان بن المنذر والأصل فيه النعماني فحرف [1] أو أنه نسبة إلى بلاده كما قيل في الأحسائي وذاك في نظرنا أقرب والله أعلم .

وأحسائي أو حساوي نسبة إلى الأحساء وهو ما تقدم ذكره .

وجودي ، وهو ما يوجد في بلاد المنتفك [2] ويستعمل غالباً في العراق .

وحُرٌّ وهو ما يوجد في بلاد نجد وهو أشدُّ وأقوى وأمتن وأصبر من غيره على

(١) هذه النسبة غير صحيحة وأصل العماني هو ما كان يعرف قديماً بالمهري نسبته إلى مهرة من حضرموت وإبلها أنجب الإبل عند العرب .

(٢) الصواب : المنتفق بالقاف .

الكدّ والجوع والعطش ، لطال ما تستقيم في أيام الصيف الخمسة والستة والسبعة أيام بدون أن تشرب ولا يكون عندها في ذلك قيد .

وأما خيلها فعالية حسنة المنظر ، مشهودة بالجودة والسبق ، لكنها ليست ذات متانة وأكثر خيلها من العشائر الوالية لها وسيأتي ذكرهم .

والخيل تقسم عند عربان نجد إلى ثلاثة أقسام : أصيل وهو ما عرف رَسَنُه وأصالته ، وهذا القسم لا يوجد إلا عند الأمير ابن الرشيد والأمير ابن السعود وبعض رؤساء العشائر النجدية .

وفصيل : وهو الذي انفصل عن أمه أي كانت أمه أصيلة وأبوه ليس بأصيل .

ووَصِيل : وهو الذي اتصل بأبيه وانفصل عن أمه كأن كان أبوه أصيلاً وأمه ليست بأصيلة والخيل في جهة الإحساء في هذه الأيام أكثر من غيرها ، والسبب في ذلك أنها كانت بصدد في هذه الحروب الأخيرة في نجد لأن الخيل أفنتها (الموزر والمارتين)[1] في هذه الحرب التي طالت نحواً من خمسة[2] عشر سنة .

وأما حمرها فهي أعلا حُمُرٍ توجد في نجد ومن أسبقها وأصبرها على الكد والتعب .

وأما بقرها فهي من أحسن بقر جزيرة العرب ومن أكثرها .

وغير ذلك يوجد فيها أنواع الحيوانات الوحشية كالذئب ، والضبع ، والأرنب وابن آوى ، والثعلب ، والسنور البري ، والحمر الوحشية وفيها أنواع الطيور كالحمام والغراب وما أشبه ذلك . وينبت فيها ما ينبت بجزيرة العرب كالغضا والطرفاء والأرطا وغيره . وخيلها وإبلها وحمرها من أسرع حيوانات الجزيرة الأهلية تعلماً وأسرعها انقياداً وانعسافاً وأعظم إلفاً .

بنادرها — وحصونها — وما يتعلق بذلك : الأحساء لها ثلاثة بنادر . وهي العقير والقطيف . وقطر . وقد كانت في أيام ابن السعود تشبه المتصرفية في وضعيتها وملحقاتها

(١) الموزر والمارتين نوعان من البنادق .

(٢) الصواب خمس عشرة سنة .

وهذه البنادر الثلاثة تابعة لها من حيث الإدارة بل جميع شؤونها وأحوالها السياسية والملكية وغيرها .وقد كانت في أيام تصرف ابن السعود على هذا الشكل. لكنه يوظف في كل واحدة منهن أميراً من قبله . وعزل الأمير إذا صدر منه شيء مخالف يكون بكتابة من أمير الأحساء ، أو يكف يده أمير الأحساء ويفيد ابن السعود في ذلك مع بيان الذنب الذي أوجب كف يده وعزله . لكنه إذا تبين طهارته أو أن عزله جرى عن غرض بينه وبين أمير الأحساء الذي هو من فوقه يرد إلى وظيفته ويعزل أمير الأحساء وتكف يده . ولا هناك ما يوجب العزل إلا التماهن[1] بإقامة الشرع الشريف أو عدم الاكتراث بما فيه راحة الرعية الأمنية[2] العامة أو عدم القيام بالعدل بين الناس — أما السرقة أو الاحتيال وما أشبه ذلك م الأمور الشرعية تجري على كل أحد بلا فرق بين الصغير والكبير كقطع اليد للسارق والتأديب بالآداب الشرعية وما يخالف أحكام الشرع الشريف وآدابه .

فأما العقير فلكونها أقرب هذه البنادر الثلاثة إلى الأحساء فقد اتخذت هي الميناء والمرسى لها . وهي تبعد عن الأحساء اثنتي عشرة ساعة وقد عمر في سابق أيامه . وجعل به قصر منيع تحفظ به التجار أموالها ريثما ترد القوافل فتحمل الأموال إلى الأحساء والبلاد الأخرى في نجد . وقد كان عبارة عن باب نجد بحيث ترده الأموال التجارية من الهند وبر فارس وبلاد العراق . ومنه تتوزع على بلاد نجد . ولو أن تلك البلاد توفقت لشيء من التقدم لكان العقير اليوم يضاهي بلدة الكويت تجارة وعماراً ونفوساً وإدارة .

القطيف : وأما القطيف — فيبعد عن الأحساء خمسين ساعة أو ثلاث مراحل للإبل . وهو كائن في الجهة الشرقية للأحساء . على ساحل البحر وبينه وبين نجد الصّمّان والدهناء وقد تقدم ذكرهما وفيه نخيل كثيرة وبساتين تقارب اليوم نخيل الأحساء والمياه موجودة فيه بكثرة .

---

(١) يقصد التهاون .

(٢) يقصد الأمن .

قال في « تقويم البلدان » : والقطيف بلدة بناحية الأحساء وهي على شط بحر فارس ولها مغاص ، وهي في شرقي الأحساء بشمال على نحو مرحلتين منها ولها نخيل دون نخيل الأحساء . وعن بعض أهلها قال : وللقطيف خور من البحر يدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المدّ والجزر وبين القطيف والأحساء مسير يومين . وبينها وبين البصرة مسيرة ستة أيام . وبينها وبين كاظمة (وهي قرب الكويت) أربعة أيام . وبينها وبين عمان مسيرة شهر : قال : والقطيف قريب سلمية[1] في القدر إذ هى أكبر من الأحساء .

والقطيف هي أرض الخط . والرماح الخطية التي كانت مشهورة بين العرب منسوبة إليه . وأهاليها أغنى من أهالي الأحساء وأكثر منهم ثروة وذلك بسبب قرب مغاص اللؤلؤ فيها . وقرب وتوسطها في البحر بين البنادر التي على ساحله . وأهلها كلهم شيعة سمر الألوان . وهواؤها رديء بالمرة . والحميات فيها كثيرة . وكثيراً ما يحدث في أهلها العمى والعور في العين وذلك بأسباب عدم الاعتناء بالنظافة والأمور الصحية فإنك إذا دخلت البلد لا تطيق بها صبراً ولو ساعة واحدة لقذارة أسواقها وأوساخها وعفونة المساكن والبيوت والدور . وليس هناك (بلدية) تعتني في ذلك ، ومن طبيعة أهلها الوساخة وعدم النظافة[2] . هذا مع أن طقسها حار شديد الحرارة وأرضها سبخة وقريبة من هواء البحر وما حولها من القرى قليل إلا جزيرة دارين فإنها على مقربة منها وهي بالجملة أحسن منها نظافة ومسكناً وهواء وماء وهي مسكن المترفهين منهم . وفيها كبار أغنياء اللؤلؤ وتُجّارهِ ويجتمع فيها كثير من التجار في أيام الغوص من الأحساء والبحرين وغيرهما ونفوسها تقرب من ثلاثين ألف نسمة . وليس فيها مدارس ومكاتب إلا قليل (؟) .

هذا ما نقوله عن القطيف في وصفها وليس لها تاريخ معلوم ولم يتعاقب عليها

---

(١) سلمية إحدى مدن الشام .

(٢) هذا خطأ والصواب أن أهلها يحبون النظافة ولكن طبيعة البلدة في ذلك العهد لكثرة المياه والتمر مما يسبب كثرة الحشرات ، أما الآن فهي من أنظف مدن المملكة .

أمراء إلا الشيخ محمد بن عبد الوهاب باشا[1] وقد توفي منذ ثلاث سنوات وهو أكبر من في دارين وكان من المحبين للدولة وصاحب جود وكرم ومال كثير .

أما عرضها وطولها فتبلغ ٧٣ درجة و٥٥ دقيقة طولاً و٣٢ درجة و٣٥ دقيقة عرضاً على الحساب الغربي .

والعشائر التي ترد إليها هي من عشائر الأحساء وقطر وسيأتي ذكر ذلك وتجارتها في نمو وازدياد . وقد أخذت الرعايا الانكليزية من الهند تتسرب إليها في السنين الأخيرة . من هندوس ومسلمين ومجوس وغيرهم فهم يبتاعون اللؤلؤ والصدف والغراء ونوع من السمك ويجلبون إليها البضائع المطلوبة من ملبوس ومفروش وآنية وغير ذلك .

وقد كانت في الأيام الأول إحدى مدينتي البحرين والأخرى هجر . وإلى القطيف انحاز الجارود بعبد القيس حين ارتدت بنو بكر واشتد حصار بكر للقطيف .

قطر : وأما قطر فهي واقعة شرقي العقير وتبعد عنه سبع ساعات ، في سير السفن مع الريح المعتدل وتبعد عن البحرين أربع ساعات ، وهي شديدة الحر أشد من البحرين وعُمان لكنها ألطف هواء ومراحاً وهي منزل العرب قديماً وفيها من العرب اليوم عربان كثيرة منهم من قحطان ومنهم من وائل وبني خالد وبعضها من بني هاجر والمناصير وغيرهم .

وقال صاحب « التقويم » : إن قطر موضع بالبحرين وعمان . تنسب إليه الإبل الجياد . قال جرير :

لدى قطريات إذا ما تغولت ... بنا البيد غاولن الحزوم القياقيا

وكانت قطر في الجاهلية أكثر بلاد البحرين خمراً : قال عبدة بن الطبيب :

تذكر ساداتنا أهلهم ... وخافوا عمان وخافوا قطر

وخافوا الرواطي إذا عرضت ... ملاحس أولاهن المقر

---

(١) كان من كبار تجار دارين .

يقولها في غزوة بني سعد عمان وقال المثقّب :

كل يوم كـــان عنــا جلــلاً   غير يوم الحنو في جنــب قطر
ضربت دَوْسَرُ فينــا ضربــة   أثبتت أوتاد ملــك فاستقــر

وما زالت موطن العرب ومسكنهم إلى يومنا هذا . وهي مدينة متوجهة إلى التقدم بفضل شيخها الشيخ قاسم بن ثاني وأهلها كلهم على مذهب السلف وأحكامهم شرعية ولا يوجد عندهم الأشياء المضرة بالدين المخالفة لآدابه الشريفة ولهذا تجد الصفات العربية والأخلاق الدينية (من تقوى وشجاعة وكرم وإقدام وجود) متحكمة فيهم بكمال معانيها . وتجارتها بتقدم مع أنها بلاد برية فهي من البلاد المتقدمة في تجارة اللؤلؤ هن خمس البحرين وقطر وعمان والقطيف والكويت ، ويتبعها دارين وحولها قرى قليلة وهواؤها حار عليهي وعشائرها كثيرة وسفن الغوص فيها تبلغ ٢٥٠٠ سفينة ما بين صغيرة وكبيرة وأهلها يقنون الرقيق كثيراً وذلك من أجل الغوص فإنهم يستفيدون منه فائدة عظيمة . والرقيق هناك في راحة ونعمة فإنه لا شغل له إلا الغوص وذلك في أيام معلومة في السنة وبعد ذلك لا يبقى للرقيق عمل إلا القنص معهم أو ما أشبه ذلك . ومن هذا السبب ترى مساعي (الإنكليز) في تحرير الرقيق في تلك الأقطار غير مؤثرة وإليك ما يوجد في قطر من المماليك عند الخاصة فقط :

الاسم	مماليك	أحرار	البلد
خليفة	٤٠٠	١٥٠٠	الرميلة والدوحة والبدع
ثاني	٠٧٠	٠٠٠	والحله والسلطه
عبد الرحمن	٠٧٠	٢٢٠٠	الوكرة
عبدالله	١٢٠	٠٠	٠٠
محمد	٠١٢	٠٠	٠٠
يكون	٧٨٠	٣٧٠٠	

وقطر تقسم إلى ثلاثة أقسام هي : الرويس . والدوحة . والوكرة وكل واحدة من هذه البلاد إلى قرى وتوابع وقد فصلنا ذلك في الجداول الآتية حسب تقرير أحد الخصيصين هناك .

الرويس :

البلد	النفوس	سفن الغوص	التبعية
الوسيل	٥٠٠	٥٠	الشيخ قاسم
الرويس	٥٠٠	٥٠	السيد
الخور	٣٠٠٠	٨٠٠	قاسم
العويرط	٢٠٠٠	٦٠٠	«
اسميسمه[1]	٠٥٠٠	٠٨٠	«
الضعائن	١٠٠٠	٥٠٠	«
	٧٥٠٠	٠٢٨٠	يكون

نفوس الدوحة :

الدوحة	١٠٠٠	أحمد بن ثاني
الرميلة	٠٦٠٠	خليفة
البدع	١٠٠٠	السودان
الحلة	٠٠٠	العساكر العثمانية
السلطة	٠٥٠٠	عبدالله بن قاسم
	٣١٠٠	
الوكرة	٢٥٠٠	عبد الرحمن الثاني

فعلى ما تقدم يكون المجموع كما ترى :

الرويس	٧٥٠٠
الدوحة	٣١٠٠
الوكرة	٤٥٠٠
غرباء	١٩٠٠
	١٥٠٠٠

(١) الصواب : (سميسمة) ولكن المؤلف جارى العامة في النطق والكتابة .

وكل بلد من هذه البلاد فيها جامع جمعة تقام فيه صلاة الجمعة وسائر الأوقات ، وأهل قطر اليوم من أحسن البلاد العربية تمسكاً بالدين الحنيفي وآدابه فإنه لا توجد عندهم خرافات القبوريين ولا شيء من البدع أو المفسدات أو الأمور المخلة بالآداب بل كلهم حنبليو المذهب يعملون بما جاء في الكتاب والسنة غير ناظرين إلى غيرهما والمساجد والجوامع لها أوقاف من حضرة الشيخ المذكور وهو ينفق عليها وعلى الخطباء والأئمة والمدرسين هناك . ويوجد غير ذلك مدارس فيها معلمين[1] من علماء نجد ويدرسون التوحيد والفقه والفرائض والأصول ! والكتب الصحاح الستة والتفسير وما أشبه ذلك ، والشيخ[2] دائماً يلقي الدروس في القوم والخطب النافعة ، وعقيب كل صلاة جمعة يلقي درساً لطيفاً يحض به على طلب العلم والسعي إليه ويحض به على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بأحكام الدين والجهاد والزكاة وغير ذلك من الأمور النافعة ومن أعماله أنه يوماً (والناس حينئذ في الغوص) نظر إلى الجماعة يوم الجمعة فإذا هم ينقصون عن الأربعين فدعى أحد مماليكه وأعتقه في الحال فتمت الجماعة أربعين ، ثم قام وخطب وأقام صلاة الجمعة . وهو على جانب عظيم من التقوى ومخافة الله ، وقد أعتق أكثر من خمسين مملوكاً ما بين ذكر وأنثى ، ومن هذا السبب فهو لا يملك الا ما يقرب من خمسين مملوكاً كلهم قائمون بخدمته الخاصة .

وله أوقاف كثيرة في كل البلاد العربية . فمن ذلك أن له أربعة أوقاف كبيرة في نجد ، وأربعة مثلها في المذنب[3] . ومثلها في الأحساء وفي القصيم والبحرين وقطر وغيرها وهذه كلها تصرف على ما جاء به الشرع الشريف وغير ذلك له أعمال مبرورة مشكورة وبالجملة فهو من النابغين في الأمة العربية العاملين لسعادة الدين والوطن . وقد آتاه الله من فضله خيراً كثيراً من العلم والمال والولد . وقد ولد الشيخ المذكور في سنة ١٢١٦ فعمره الآن نحواً من مئة وخمسة عشر سنة[4] ومع هذا فهو

---

(١) الصواب : (معلمون) .
(٢) يقصد الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر في ذلك العهد — رحمه الله —
(٣) كذا والمذنب من قرى القصيم من نجد أيضاً .
(٤) الصواب : (خمس عشرة سنة) .

رجل نشيط لا يسبقه أحد ، ولا يباريه على الخيل أحد ، ومقدام يهزم المثني فارس وهو وحده . وهو الأمير في هذه البلاد ، وهو الخطيب يوم الجمعة ، وهو القاضي ، والمفتي والحاكم . ومن صفاته أنه إذا خطب أذهل السامعين وجلب قلوبهم إليه ، وإذا أعطى فعطاياه جزيلة وبالجملة فهو من أركان العربية وأنصارها ، ومن رجال الإسلام وفحوله ، وهو مسموع الكلمة في العرب مهاب عند الرؤساء والأمراء نافذ القول ، دأبه الإصلاح ولم يسع في أمر إلا وقد أتمه الله على يديه وأعماله كلها خالصة لوجه الله تعالى ، وقد أخذ[1] من النساء أكثر من تسعين امرأة ومن الإماء شيئاً كثيراً ، وقد ولد له أكثر من ستين مولوداً ما بين ذكر وأنثى ، والموجود اليوم من أولاده :

هو خليفة وثاني وعبد الرحمن وعبدالله ومحمد جوعان وعلي وفهد وعبد العزيز وناصر وأربعة لم نقف على أسمائهم ليس لهم مماليك وهم في خدمة والدهم الخاصة ، وللأولاد الكبار أولاد كثيرون لم يتيسر ذكرهم على وجه الصحة ، والمماليك قد تناسلوا في قطر فكثروا وكان لهم بلدة السودان .

وللشيخ قاسم من الإخوان الشيخ أحمد بن ثاني وقد قتل سنة ١٣٢٣ هجرية وعمره نحواً من الستين سنة .

وليس للشيخ من سفن الغوص إلا ما يقرب من خمس وعشرين سفينة لكنه يشتري من تجار الغوص والغواصين ويربحهم ، وملكيته مليون ليرة تقريباً ، وتجارة قطر كلها أكثر من أربعة ملايين ليرة والتجار تردها في أيام الغوص من الكويت والبحرين والقطيف وعمان وغيرها وحولها من العشائر قحطان ووائل وبني هاجر ومتاجر[2] ويزيد عددهم عن أربعين ألف نسمة وأكثرهم يذهب إلى الغوص في أيام الغوص وعندهم الإبل العتاق والخيل الجياد ، ويستعملون الأسلحة الجديدة وهي

---

(١) يقصد (تزوج) .

(٢) لعل الصواب (ومناصير) .

عندهم بكثرة وقيمة زهيدة ، هذا ما نقوله عن قطر وحالتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

أما تاريخها فليس له حدٌّ بيِّنٌ إنما الغزوات الجارية بين الأعراب كثيرة ، وهذه لا توجب الذكر ، وبعض شيء هو المهم أخرناه في تاريخ البحرين المتعلقة به أزيد من هذا المقام . ولم يكن فيها أمراء غير آل ثاني بل هم أمراؤها وملوكها ولم تزدن إلا بهم لكنها تكون في حالتها الملكية تابعة للدولة أو الأمير الذي تكون في قبضته الأحساء ، وهي من أتباعها كما تقدم ، وقد دخلت في أول رجب[1] تحت قبضة الأمير ابن السعود هي والقطيف وتبعتاه في أحكامها والعساكر العثمانية لم تزل مقيمة في مكانها محاصرة وهي على وشك الخروج اليوم أو غداً وسيأتي تفصيل ذلك على القول في تاريخ الأحساء .

نفوس الأحساء وتجارتها : ولنرجع الآن إلى البحث إلى الأحساء في نفوسها وتجارتها فنقول : إن الأحساء كانت في أيام (السعود) تبلغ نفوسها سبعين أو ثمانين ألف نسمة وهكذا كانت في أيام أمرائها بني خالد وأسباب ذلك أن السعود جعلوها تشبه قاعة إمارة وهي التي كانت لقربها إلى الخليج مصدر ومورد الأموال التجارية والحجاج وغير ذلك إلى الرياض قاعدة الإمارة وكان فيها سوقاً[2] عامرة البيع والشراء تشبه مصر في تنقل التجار إلى أسواقها ثم بأسباب الحروب والفتن الذي حدثت فيها بين السعود أنفسهم وبين الدولة والسعود أخذت نفوسها تتناقص فكانت حين استيلاء الدولة عليها ٤٠ ألف نسمة وما زالت تتراوح بين الخمسين وبين الأربعين ألف إلى يومنا هذا .

وأما تجارتها : فقد كانت تجارة الأحساء عظيمة في أيامها الأول وأسباب ذلك ما قدمنا ووجد فيها أغنياء أهل ثروة طائلة في ذلك العهد ، أما اليوم فقد انحطت تجارتها وتضعضعت بالمرَّة ، حتى أنه لا يكاد يوجد فيها من الأموال التجارية ما

---

(١) لعله سنة ١٣٣١هـ حيث استولى على الأحساء في هذه السنة .

(٢) الصواب : (سوق) .

يقدر بمائة وخمسين ألف جنيه انكليزي – ومعظم تجارتها تمر النخل والقمح والصوف والوبر والجلد وما أشبه ذلك وقد قدمنا أن لها أسواقاً كانت الأهالي تنتقل فيها في كل سوق له يوم معين كما ترى في هذا الجدول مرتبة حسب الأمكنة والأيام :

المبرز	يوم الجمعة
الجشة	يوم السبت
العيون	الأحد
القرن	الأثنين
الوقف [1]	الثلاثاء
الفتح [1]	الأربعاء
الكوت	الخميس

وفي هذه الأسواق يجلب كل شيء تحتاجه الناس ، من مواشي وإبل وخيل وبقر وحمر وأطعمة وملبوس وآنية وغير ذلك ، فإذا خلص نهار هذا اليوم ارتحل التجار والباعة إلى السوق الآخر في اليوم المعين وهذه الحالة من أحسن الوسائل للإجتماع وترقية البلاد وتقدمها .

وأما صناعتها – ففي الأحساء صناعة عجيبة لا تكاد توجد في غيرها منها نسج العبيّ والشفوف والفرش فإنها في غاية الدقة واللطافة ، ومنها صناعة الآنية والنقش عليها ، وصياغة الأسلحة وتلبيسها بالذهب والفضة ، والنقش عليها وكذلك صياغة الحلي الذهبية والفضية والآنية وأباريق القهوة والشاى ، وآنية المأكولات ، فإنها لا يماثلها اليوم في حسن النقش واللطافة والدقة بلاد أخرى ، وقد تقدمت في ذلك غاية التقدم وأكثر من يتعاطى صناعة هذه الصنائع هم الجعفرية هناك ، وقد كانت صناعتها منتشرة في البلاد النجدية والحجاز والعراق لكنها اختفت في الأيام الأخيرة بأسباب تأخرها وانحطاطها ما عدا العبي ومعارك الخيل وأكوار الهجن فإنها إلى اليوم مطلوبة ومختارة على غيرها من صنائع البلاد الأخرى .

(١) لا أعرفهما .

وهي محط القوافل التجارية لجنوب نجد إلى يومنا هذا ونعني بالقوافل التي تأتي من العارض وشقرا والمجمعة وبلاد بني تميم كلها لكنها لم تكن في مثل ما كانت عليه في الزمن السابق ، لأن التجار أغلبهم أخذت قوافلهم تذهب إلى بلاد الكويت لكون طريقها أعظم أمنية[1] من غيره ولأنها هي اليوم القاعدة التجارية لبلاد نجد ، ومنازل العشائر دائماً بين الكويت ونجد أكثر من غيرهما إلا العشائر المختصة بها التابعة لها وسيأتي ذكرها عند ذكر العشائر هناك .

مساجدها ومدارسها ومكاتبها : قال بعضهم : إن مجموع ما يوجد في الخطة الأحسائية نحواً من عشرين مكتباً للصبيان ويقرؤن فيها الكلام القديم؟ والقرآن العظيم . ويتعلمون فيها الخط والكتابة وبعضاً من مبادىء العلوم الدينية اللازمة . وما عدا ذلك يوجد زهاء ثلاثين مدرسة تدرس فيها الفنون العربية والعلوم الدينية كالحديث والفرائض والفقه والأصول والتفسير وما أشبه ذلك . وقد كان فيها كثير من فحول العلماء وجهابذة المحققين في العلوم ومن لهم يد طولى في العلوم كلها . ومنهم من رسخوا في العلوم الرياضية والحسابية وعلم الفلك وألفوا في ذلك تآليف وتقاويم عامة كتقويم (الأحسائي محمد) طبع في الهند ذكر فيه الأوقات إلى أربعين سنة وما يتعلق بذلك من الحوادث والاختلافات وطبائع الأيام في أوقاتها ، وهو أحسن وأصح تقويم رأيناه إلى يومنا هذا

وأما مساجدها : فقد قالوا إن ما يوجد في خطة الأحساء زهاء أربع مئة مسجد ما بين صغير وكبير وهو ليس بالعدد الكبير نسبة إلى قراها وتعدد أماكنها وابتعاد بعضها عن بعض . وفي مراكز اللواء مسجد عظيم جدد بناءه محمد باشا أحد أمراء العثمانيين في سنة سبعة[2] وأربعين بعد الألف وما زال تقام فيه صلاة الجمعة إلى يومنا هذا ، وقد بالغوا في وصفه وإطرائه ، وحسن بنائه ، واتقان هندسته وشكله ، وقد كان بودنا أن لو أتينا بذلك لولا ضيق المقام .

---

(١) يقصد (أمناً) .

(٢) (سبع وأربعين) .

ومما تقدم عرف القارىء تقدم الأحساء ورقيها فإنه يرى أن مكاتبها ومدارسها قليلة بل مدارسها أكثر نسبة إل ما يجب أن تكون فيه المكاتب الأولى ، ومنه علم ميلهم إلى العلوم الدينية والحديث والكتاب والسنة . ومنه عرف كيف أن مدينة الأحساء مستعدة للرقي والتقدم . ومنه عرف موقعها وأهميتها من حيث الإمارة ، والسياسة ، والاقتصاد والتجارة وغير ذلك فلنبحث الآن في عشائرها . وأحوالها الدينية والاجتماعية وما هنالك من العادات والأخلاق ثم نعقبه بفصل عام عن حالتها التاريخية وفي الختام نسأل الله التوفيق إنه قريب مجيب .

عشائر الأحساء : تقدم في أول الكتاب أن جزيرة العرب تنقسم إلى ستة أقسام وهي طبيعية أكثر منها سياسية وعلى هذا التقسيم رأينا عشائر العرب وقبائلها تنقسم بطبيعتها هذا التقسيم وما كان حائداً عن ذلك فهو بنفسه أما طبيعته ومقطنه ومسكنه وملتجأه لا بد أن يكون إلى واحد من هذه الأقسام فبلاد الأحساء يتبعها من العشائر مثلاً العجمان ، والمرة . وبني هاجر . والمناصير .

أما العجمان فهم قوم ذو عصبية وقوة ونخوة ، ولهم شجاعة عظيمة اشتهروا بها في نجد ، ويتفرعون إلى قبائل كثيرة منها آل معيض ، وآل حبيش ، وآل السليمان ، والهتلان وآل محفوظ والظاعنة وآل شامر وآل مصرع والشولة وآل مفلح وآل سفران وهم من قحطان وشيخهم كان راكان بن حثلين وما زالت الإمارة لهذا البيت إلى يومنا هذا وقد حاربت العجمان عساكر الحكومة العثمانية وأتعبتها وفي الأخير قبض علي راكان غدراً وأخذ إلى الأستانة ثم رجع بإنعام من السلطان .

والمرة وهم أشجع من العجمان وأحقد العشائر وأقدمها . ويتفرعون إلى قبائل أيضاً منهم آل جابر وآل غزيّة والغفران والفيد وآل علي وكان شيخهم فيصل المرضّف ، وما زالوا بجوار العجمان .

وبني هاجر والغبيشات والمناصير وبني خالد وآل زايد وأعدادهم كما ترى في في هذا الإحصاء

٤٠٠٠٠	عجمان
٣٥٠٠٠	مرة
١٠٠٠٠	بنو هاجر
١٥٠٠٠	مناصير
٠٨٠٠٠	بنو خالد
٢٠٠٠٠	آل زايد
١٢٨٠٠٠	يكون

أحوالها الاجتماعية : ديانتهم ، كانت الديانة عند أهل الأحساء قبل ألفي سنة هي الديانة المجوسية ، وبعد الإسلام الديانة الإسلامية وكانت تستمد ديانتها من العراق وأكثر أهاليها ملبين بياضية[1] ومبتدعة إلى حين نهضة السعود تلك النهضة العربية الدينية كما جاء بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رضي الله عنه في الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله واتباع عقيدة السلف ونبذ الخرافات والاعتقادات الفاسدة ظهرياً فلما تملكها السعود أصبح أهلها كلهم (إلا قليلاً منهم جعفريون) حنبليو المذهب وقد حسنت ديانتهم وصفا معتقدهم إلا أنه في الأيام الأخيرة بأسباب سعة الحرية قاموا يتوسعون في العادات الغير شرعية وليست مستحسنة في نظر العقلاء من المسلمين .

والطريقة الوهابية ليست بشيء غريب كما يزعمه الخصوم وأعداء الحق بل هم على الطريقة المثلى والمحجة البيضاء ، يعملون بما جاء في الكتاب والسنة ولا يميلون إلى شيء من الخرافات والاعتقادات الفاسدة كالانتصار بالأموات وطلب الفرجات من العظام الرفات إلى غير ذلك مما لا يجوز إلا لله ، وعامله مشرك بالله ، والله لا يغفر أن يشرك به بل من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة .

وأما ما قيل أن الوهابيين يحرمون أشياء أحلها الله فهذا زور وبهتان عظيم ، رماهم به الخصوم لأجل إحباط مساعيهم ، وضرب عقبات في طريقهم كي لا

---

(١) يقصد (إباضية) ولكن لا يعرفون في الأحساء .

ينهض بالإسلام نهضة عربية دينية ذلك لأن النهضة الدينية إذا جاءت من قبل الأمة العربية وأمرائها لا يردُّها دون الفتح رادٌّ ، ولا يعوقها عائق كما كانت سنة الأمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا .

إن الذي عليه الوهابيون اليوم هو الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الموافق لروح الرقي الحقيقي الذي يصعد به الإنسان إلى أوج الكمال والعلو وهو أشرف المبادىء وأجملها فهو يجعل الإنسان حُرّاً ليس بينه وبين الله أحد . بل كل ما يحتاجه الإنسان فمن الله وإليه فقط . وهو أمر يراه العاقل من أحسن الأشياء التي تجعل الإنسان غير مقيِّد نفسه بقيد يجعلها رقيقة لأمور لدى التحقيق لاتفيد العبد شيئاً هذا من وجه ، ومن وجه آخر لا يكون الإنسان مقروناً بالإحسان لأحد غير الله خصوصاً بالأشياء التي هي لله فقط كالاستغاثة والاستعانة والرزق وجلب الخير ودفع الضر . على أننا إذا نظرنا إلى أشياء كثيرة أضعفت الأمة وحلت جامعتها وجدنا أن السبب الحقيقي هو هذا التواكل على الغير ، والاعتماد على من ليس له قدرة على نفع نفسه بدون مشيئة الله فضلاً عن أن ينفع الغير ، وهو أصم أو بشر مثلنا دفن تحت التراب . هذه الأمور هي التي ليست من الدين بشيء وهي التي أضرت بحالة المسلمين الاجتماعية فاتكلوا بمعظم أمورهم على هذه . وأمثالها فأخذ الأجنبي والعدو بلادهم وممالكهم وجعلهم أسراء فقراء أذلاء من حيث لا يشعرون .

إن كثيراً من الذين ارتكبوا هذه الأمور أضاعوا أوقاتهم ولم ترهم استفادوا شيئاً وكثير منهم فقراء الحال يتكبدون المشاقّ وأهوال الأسفار ، من أجل الوصول إلى بعض الأماكن بدون أن ينتفعوا أشياء مع أن بيت الله الحرام الذي هو أشرف البقاع والحج إليه فرض من فروض الدين لم يكلف الله به العباد بل جعله على من يستطيع فقال : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » .

إنا لم نجد أكثر الأمم اعتناقاً لهذا الأشياء إلا ورأيناها وقعت بأحضان الأجنبي قبل كل شيء وتسلط عليها أول كل شيء وكلما رأينا أمة متمسكة بدينها غير ميّالة إلى الأمور الخرافية بل إلى الجد بالقول وبالفعل وجدناها حية ترزق مستقلّة سعيدة

بنفسها وإن كانت في حالة الفقر وشظف العيش ولا تجد أناساً يميلون إلى هذه الأشياء ويختلون بها ضعيفي الإدراك إلاّ لكي يرتزقوا من ورائها فيعيشوا مما وقع بأيديهم من وراء ذلك ، وأنه في شريعة الله حرام .

إن الوهابيين على الحق وتابعهم لا يضل ولا يشقي ، ومن يعاند في ذلك لابد أن يكون من القبوريين أو ممن له عيشة في ذلك ضنكاً (؟) ولو شاء علماء الدين المخلصين لاتفقوا على إحباط هذه المضارّ وتماسكوا الأيدي وساروا بالأمة في نهج الحق المستقيم ، وأنقذوها من هذا الضلال المبين وساروا على تلك الطريقة المثلى وربحوهم وهي سعادة في الدنيا والأخرى ، وتركوا هذا السبيل المضرة العوجاء بالإسلام والأمة والمسلمين أجمعين قال الله (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) والله الهادي إلى طريق الحق وهو المعين .

العادات والأخلاق : ما كان الأحسائيون على مثل ما كان عليه النجديون من الكرم والشجاعة والثبات والإقدام والنخوة والإباء[1] لكنهم في مقدمة أقرانهم ومجاوريهم نظراً إلى ما يوجد هناك . وبالأخص أخذت أخلاقهم تزكو وآدابهم تتحسن بواسطة مخالطة النجديين لهم دائماً أما في النشاط في العمل فهم لا يقلون عن أهالي البحرين وعُمان . وإن من أهَالي الأحساء من هم خيار وأخيار وهم قليلون . ولولا النجديين[2] محوا كثيراً من البدع والخرافات . لكان الأحسائيون على ما كان عليه غيرهم من اعتقادات فهم اليوم أقل من سواهم .

ومن أخلاقهم السماحة ولين الطبيعة والسهولة والأناة والانقياد إلى كل من يتولىّ عليهم والسمع والطاعة له .

وصفاتهم مربوعو القامة سمر الألوان والشعر ، ضعاف الأجسام رقيقو الأعضاء عصبيو المزاج بعيدو الغضب سريعو الرضا ، وكثيراً ما تحدث فيهم عاهات وعور

(١) بل كانوا كغيرهم لا يقلون في أي عمل من الأعمال الطيبة ولا فرق بينهم وبين غيرهم ، وكل الناس لا يتفقون ولا يتماثلون في كل الأحوال .

(٢) النجديون .

وعمى وهم في غاية من الوساخة وقلة النظافة والاعتناء بها[1] . والحمى كثيراً ماتحدث في بلادهم خصوصاً أيام الصيف . ويوجد في نسائهم حسن العيون والصور والجمال الباهر ، وليس لهم اعتناء في أنفسهم لا من جهة الصحة ولا المأكول والملبوس وهم قليلو الميل إلى الإمارات والرياسات بل ميلهم إل الصناعة أكثر من كل شيء وهم دقيقوا النظر في الصنائع ومتى وجهوا أفكارهم إلى شيء من ذلك أدركوه بسرعة .

ومن عاداتهم شرب القهوة فهم يشربونها كثيراً ولهم فيها اعتناء شديد ويطعمونها بالزعفران والروائح الطيبة ويشربونها في أوقات معينة ، كالصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، وبعد العشاء . ومن عاداتهم استعمال البخور بالعود الهندي عقيب كل قهوة يشربونها في محل وهو متى عمل بعد القهوة يكون إشارة لقيام الحاضرين . ومن أمثالهم (ليس بعد العود قعود) .

وليس من عاداتهم التغرب والابتعاد عن أوطانهم إلا قليلاً منهم ، وهم (الجعفريون) يذهبون إلى زيارة (كربلاء) والنجف والكاظم وغيرها أو بعض أفراد منهم يذهبون لأسباب تجارية طفيفة في البحرين وعُمان أيام الغوص . ومنهم ، من يذهب إلى الهند من أجل الاعتياض[2] لأشياء مطلوبة من ملبوس وآنية وما أشبه ذلك .

تاريخها : ليس في الإمكان تحديد تاريخها ولا في قدرة أحد أن يأتي به على وجه الصحة ، وأسباب ذلك أن الوقائع فيها صغيرة بالنسبة إلى ماسواها فهي لا تستحق من يرصدها في التاريخ ولا تستحق الذكر .

وتاريخها ينقسم إلى أربعة أدوار . فالدور الأول قبل دخول الإسلام وقد كانت قبل الإسلام لطائفة من نصارى العرب لكنها لم تكن في ذلك الحين بالشيء المهم . وإنما هي عبارة عن قرى حقيرة أو مياه تقطنها وتسكنها العرب في ذلك الوقت . والدور الثاني هو دخولها في الإسلام إلى أن جعلها القرامطة داراً لملكهم وهذا في

---

(١) هذا القول من أخطاء المؤلف ولولا الأمانة في النقل لحذفناه .

(٢) يقصد التجارة .

القرن الثالث للهجرة تقريباً ولم يحدث فيها من الأمور المهمة ما يستحق الذكر وما حدث للقرامطة وتاريخ القرامطة لايتعلق بالأحساء إنما هو يتعلق بالبحرين[1] أكثر من غيرها .

والدور الثالث كونها تشبه إمارة تتلقفها أيدي العرب كل آونة وأخرى ، وهذا هو الذي يشكل على المؤرخين الوقوف على حوادثه ووقائعه في أوقاتها .

والدور الرابع هو ما كانت فيه بين العثمانيين وأمراء نجد آل السعود في منازعات وهذا يوجد منه بعض أشياء فيمكن للباحث التسلط[2] على تاريخ وقائعها وهو ما نحن ذاكرو المهمّ منه هنا فنقول :

إن أمرآءها كانوا (بنو زويمل[3]) في عرف أهل نجد ...[4] ملك في عرف بعض المؤرخين وذلك إلى سنة ٨٥٠ تقريباً ثم اضمحلت هذه الإمارة الكبيرة وبقيت مدة خمسين سنة بأيدي الأمراء إلى أن دخلت في حكم الدولة سنة ٩٢٦ هجرية وذالك في عهد السلطان سليم خان الأول ثم في سنة ٩٦٤ دخلت تحت ولاية محمد علي باشا وقد غزاها الشريف محمد بن حسين فأصلحه علي باشا على شيء ورجع وذلك بعد الألف وفي سنة ١١٠٠ كان أميرها سليمان من بني خالد ثم بعده ببضعة[5] عشر سنة دخلت في حكم آل عريعر وهم من بني خالد وأولهم عريعر وذلك في سنة ١١٦٥ تقريباً ثم خلفه سعدون بن عريعر ثم زيد بن عريعر ثم دخلت في حكم أمراء نجد آل السعود واستقامت بأيديهم مدة فجهزت الدولة عليهم ثويني شيخ المنتفك[6]

(١) البحرين – في تاريخ القرامطة هي الأحساء من كاظمة (الكويت) إلى عمان، ويدخل فيها ما يعرف الآن باسم البحرين وهي الجزر التي تعرف قديماً باسم (أوال) فتقلص اسم البحرين حتى صار لا يطلق إلا على جزر أوال (العرب) .

(٢) لعله (السقوط) بمعنى العثور .

(٣) لعله يقصد دولة آل أجود بن زامل الجبري ، فهم الذين كانوا حكام الأحساء في ذلك العهد ، وانظر منهم مجلة «العرب» السنة الأولى ص ٦٠١ إلى ٦١٠ .

(٤) كلمة غير واضحة .

(٥) الصواب (بضع عشرة سنة) .

(٦) الصواب (المنتفق) .

فقتله فدائي يقال له العبد (طعيس) وذلك في سنة ١٢١٢ ثم جهزت أحمد بن ثامر رئيس المنتفك[1] أيضاً ومعه علي الكتخدا من قبل سليمان باشا والي بغداد سنة ١٢١٣ فرجع صفر اليدين ثم في سنة ١٢٥٧ هجرية تولاها خالد بن سعدون ثم في سنة ١٢٢٣ أراد أن يأخذها ابراهيم باشا الذي جاء إلى نجد من أجل محاربة النجديين فتركها بأمر من السلطان ، وتولاها داود باشا والي بغداد حينئذ ثم رجعت إلى السعود ثم حصل بينهم انشقاق أودى[2] إلى رجوعها إلى العثمانيين ١٢٨٥–١٢٨٧ هجرية » ثم رامت الرجوع إلى السعود فانفذ مدحت باشا في سنة ١٢٩٣ هجرية نافذ باشا وذلك مدد للشيخ بزيع بن عريعر آخر أمراء العريعر لأن يردها له ويجعله بها أميراً فأخذها وأمر فيها ناصر باشا السعدون ثم ابنه مزيد باشا وما زالت يتماتب فيها المتصرفون إلى أن اعتل صفو أمنها فأرسلت الدولة السيد طالب بك نقيب الأشراف في البصرة فسكنها وما زالت بيد الدولة إلى أن دخلت بيد أمير نجد اليوم وهو عبد العزيز باشا السعود وذلك في أول شهر جماد الآخر[3] سنة ١٣٣١ هجرية .

وهو ما زال يقول بأنه مخلص للعثمانيين وفي طاعتهم ، ولكن الذي حدا به إلى هذا الأمر هو حدوث هذه الحروب التي أضرت بالدولة العثمانية في جميع المملكة ، وخاف على هذه القطعة وما جاورها من أن تغتالها يد أجنبية فحافظ عليها وعلى قطر والقطيف وما حولها فنسأل الله أن يشمل هذه البلاد بالتوفيق والإصلاح النافع للأمة وأبنائها بمنه وكرمه .

هذا ما تيسر لنا في هذا الكتاب أتينا به على وجه الإجمال والإختصار وقد ضربنا صفحاً عن ذكر أمور كثيرة حبًّا بالحصول على الفائدة بدون ملل ولا تعب وهو لا يخلو من بعض أغلاط مطبعية يفهمها اللبيب الحازم . وبما أن تاريخ البحرين يطول ذكره وشوق القراء إلى هذا الكتاب عظيم فقد اقتصرنا على ما تقدم والله سبحانه المعين وعليه الإتكال وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) المنتفق . (٢) (أدى) . (٣) الصواب (جمادى الآخرة) .

عروة بن أُذَيْنَة الشاعر : خَبَرُه وشعره

[ملحق بما نشر في الجزء الذي قبل هذا]

ومن أخبـــاره ما ذكر صاحب « الأغاني »[1] أنه كان صديقاً للشاعر الحزين الكناني ، وعشيراً له على النسب[2] وكثيراً ما كان الحزين يأتيه ، وكانت في المدينة قينة يهواها الحزين ، فبيعت وأخرجت عن المدينة ، فأتى الحزين ابن أُذينة وهو كئيب حزين ، كاسمه ، فقال له : يا أبا حكيم : ما لك ؟ ! قال : يا أبا عامر أنا والله كما قال كثيّر :

لعمري لئن كـــان الفؤاد من الهـــوى بَغَى سَقَماً ، إني إذَنْ لسقيـــمُ
سألتُ حكيماً أين شطّتْ بها النـــوى فخبّرني ما لا أحبُّ حكيـــمُ

فقال له ابن أذينة : أنت مجنون ، إنْ أقمت على هذا !

وأورد للحزين أبياتاً في هجو عمرو بن عمرو بن الزبير[3] ، وذكر أن عمرو بن أذينة لما سمعها قال : ويحك ، بعضها كان يكفيك ، فقد بنيتها ولم تُقِمْ أوَدَها ، وداخلتها ، وجعلت معانيها في أكِمّتِهَا . قال الحزين : ذالك والله أرغب للناس فيها . فقال عروة : خير الناس من حلم عن الجهال ، وما أراه إلا قد حلم عنك . فقال الحزين : حلم عني ، شاء أم أبى ، برغمه وصغره .

ووصف عروة أبيات الحزين التي هجا بها ابن الزبير بدل على بصره بالشعر ، وتعمقه في فهمه ، فلم يكتف بوصف تلك الأبيات بضعف التركيب بقوله : (بنيتها

(١) ١١/٥١ و ١٤/٧٨ .
(٢) في ج ١٤/٧٨ : على النبيذ ، وهي أقرب إلى الصواب .
(٣) ج : ١٤/٨١ .

ولم تُقِم أودها) بل أضاف : (وداخلتها وجعلت معانيها في أكِمّتها) فهو يصفها بغموض المعنى . وقوله : (كان بعضها يكفيك) يدل على تكرار معنى تلك الأبيات .

وشعر عروة – كما أسلفنا – متعدد الأغراض ، مختلف الجوانب غير أن النسيب من أبرز ما عُرِف من ذلك الشعر .

ومن شعر عروة في أحداث عصره قوله في شاكر بن الخليفة هشام بن عبد الملك :

أتينا ، نَمُتُّ بأرحامنا … وجئنا ، بإذْنٍ ، إلى شاكرِ
فإن الذي سار معروفُهُ … بنجد ، وغارَ مع الغائر
إلى خير خندف في ملكها … لِبَادٍ من الناسِ أو حاضر

كان لهشام من زوجه أم حكيم زينب بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية – كان له ابن منها اسمه شاكر ، وكان هشام ينوّه باسمه وأراد أن يوليه العهد ، وولاه الحج[1] ، فقال فيه عروة الأبيات[2] .

ومن أخبار عروة – وكان صاحب غنم – أن راعي غنمه نام عنها فعاقبه بالضرب ، وقال فيه واسمه كعب :

لو يعلم الذئب بنوم كَعْب … إذاً لأمْسَى عندنا ذا ذَنْبِ
أَضْرِبُهُ ولا يقول : حَسْبِي ! ! … لا بُدَّ عند ضيعةَ من ْ ضَرْبْ !

مسكين كعب يُضرب ولا يتأوه أو يستعطف ، ويضرب على ذنب لم يفعله بعد – مخافة أن يقع منه فيشاركه الذئب فيه ! !

وأُصيب عروة بلوعة الحزن . وما أشدَّ التهاب الحزن في نفوس من أُصيبوا بفقد عزيز أثيرٍ في نفوسهم ، أيّاً كانت منزلة ذلك المفقود من حيث القرابة .

لقد فقد الشاعر أخاً له يدعى بَكْراً ، فرثاه بما لم يصل إلينا منه من شعره مما

(١) الأغاني ٢١/١٠٧ . و١٥/٤٩ .
(٢) «الأغاني» ٢١/١٠٧ .

نستطيع أن نستشف منه مقدار ما عانى من لوعة بفراقه ، ولكننا نحس بأثر تلك اللوعة ونحن نكرر معه قوله :

لا بَكْرَ لي إذْ دعـوت بكـراً ودُون بكْر ثَرًى وطِـيْنُ ! !

وما أبعد من حال دونه الثرى الطين ! !

وقال فيه :

سرى هَمِي ، وهَمُّ المَرْءِ يَسْري وغَار النّجْمُ إلاَّ قَيْسَ فِتْرِ
أُراقِبُ في المَجَرَّةِ كُلَّ نَجْمٍ تعرَّض للمِجَرَّة ، كَيْفَ يجري
لِهَمٍّ ما أزال لـه مُدِيْمـاً كأنَّ القلبَ أُضْرِمَ حَرَّ جَمْرِ
على بَكْرٍ أخي ، وَلّى حَمِيْداً وأي العَيْشِ يصفو بَعْدَ بَكْرِ [1]

حقّاً ما يقول الناس في أمثالهم : (النار ما تحرق إلا رجْل وَاطِيها) فالمصيبة لا يشعر بألمها إلا صاحبها ، ولا يُحسُّ بما يقاسيه من أُصيب بمصيبة إلا من شاركه فيها .

وما أقسى أولئك الذين لا يعرفون عن المصائب إلا ما يسمعونه من الأنين وشدّة التضجر ، والتعبير عن شدّة الألم بمثل قول : وأي العيش يصفو بعد بكر) ! !

روى صاحب « الأغاني » : أن الوليد بن يزيد قال لما سمع هذه الأبيات : وأي العيش لا يصفو بعده ؟ هذا العيش والله الذي نحن فيه على رغم أنفه ، والله لقد تَحَجّر واسعاً . ونقل ان ابن أبي عتيق قال : كلُّ العيش والله يصلح بعده ، حتى الخبز والزيت ، فغضب عروة من قوله ، وقام من مجلسه ، وحلف ألاّ يكلمه فماتا متهاجرَيْن .

ونقل أن سكينة بنت الحسين لما أنشدت هذا الشعر قالت : من بَكرٌ هذا ؟

(١) «الأغاني» ١٢٣/١ و١٢٧/٥ : ١١٠/٢١ .

أليس هو الأسود الدَّحْدَاح ، الذي كان يَمُرُّ بنا ؟ قالوا : نعم . فقالت : لقد طاب كلُّ شيء بعده ، حتّى الخبز والزيت[1] .

لندع هذا الجانب من شعر عروة ، ولنبحث في الجانب الذي يطيب معه العيش ! وأيُّ طيبٍ له بغير الحبّ ، وهل تصفو الحياة لغير المحبّين ؟! .

لا نعرف عن شاعرنا هل نعم بلذة الحبِّ ، وهل عصرت قلبه لواعجه فأسال تلك العصارة شعراً يكاد يذوب رِقّة — كما يقولون في وصف الشعر الرقيق .

لنعرض طرفا من شعر هذا الشاعر وهذا هو ما يعنينا الآن .

قال عروة :

قالتْ — وأَبْثَثْتُهَـا وَجْدِي ، فَبُحْتُ به : قد كنت عندي تحبُّ السِتْـر ، فاستَتِرِ

أَلَسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حولي ؟ فقلت لها : غَطّى هواكِ ، وما أَلْقَى ، على بصري

ويروي صاحب « الأغاني » أن سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهما وقفت على عروة في موكبها ومعها جواريها . فقالت : يا أبا عامر أنت الذي تزعم أن لك مروءة ، وأن غزَلك من وراء عِفّةٍ ، وأنك تَقِيٌّ ، قال نعم ! . قالت فأنت الذي تقول : قالت — وأبثثتها — . فقال : بلى ! . قالت : جواريها حرائر إن كان هذا خرج من قَلْبٍ سليم ، أو قالت : من قلب صحيح[2] .

وقال :

فَذَّانِ يَعْنِيهما للبين فُرْقَتُهُ ولا يملّانِ طول الدهر ما اجتمعا

مستقبلان نشاطاً من شبَابِهما إذا دَعَا دَعْوَةً داعي الهَوَى سَمِعَا

لا يعجبانِ بقول الناسِ عَنْ عَرَضٍ ويعجبانِ بما قالا ، وما صنعا[3]

---

(١) «الأغاني» : ٢١/١١١ .

(١) «الأغاني» ٢١/١٠٨ و «الشعر والشعراء» لابن قتيبة باختصار والنص في «الزهرة» ص ٣١٥ .

(١) «الزهرة» : ٦٣ .

وقال :

إذا وجدت أوار الحبِّ في كبدي ... عَمدْتُ نحو سقاء القوم أبترِدُ
هبْني بردْتُ ببرد الماء ظاهره ... فمَنْ لِحَرٍّ على الأحشاء يتّقِدُ؟[1]

وقال :

علقتك ناشئاً حتى ... رأيت الرأس مبيضا
على يُسْرٍ وإعسار ... وفيض نوالكم فيضا
ألا أحْبِبْ بأرض كُنْتِ تحتلينها أرضاً ... وأهلك حبّذا ما هُمْ وإن أبدَوا لي البُغْضا[2]

وقال – وهي من مختار الشعر وجيِّد – :

إن التي زعمت فؤادك ملّها ... خُلقَتْ هواك، كما خُلِقْت هوىً لها
فبِكَ الذي زَعمَتْ بها ، وكلاكُما ... يُبْدي لصاحبه الصبابة كُلّها
ويَبيتُ بين جوانحي حُبٌّ لها ... لو كانَ تَحْتَ فراشها لأقلّها
ولَعَمرُها لو كان حُبُّكَ فوقها ... يوماً وقد ضَحّتْ إذَنْ لأظلّها
وإذا وَجَدْت لها وَساوِسَ سَلوةٍ ... شفع الفؤادُ إلى الضَّمير فَسلّها
بيضاء ، باكرَها النّعيمُ فصاغها ... بلباقة ، فأدَقّها وأجلّها
لما عرضْتُ مُسَلّماً ، لي حاجة ... أرجو معونتَها ، وأخشى ذلّها
منعَتْ تحيّتها ، فقلت لصاحبي : ... ما كانَ أكثرها لنا وأقلها
فدَنا ، فقال : لعلّها معذورَةٌ ... من أجل رقبَتها فقُلتُ: لعَلّها[3] ! !

ويضيف صاحب « الأغاني » بعد إيراد هذه القصيدة أن أبا السائب المخزومي أتى عروة بن عبدالله الزبيري في دارة في عقيق المدينة ، وكان عروة الشاعر ينزل عنده فسأله عروة : هل له من حاجة ؟ فقال أبو السائب : نعم أبيات لعروة بن

(١) «الأغاني» : ١٠٩/٢١ .
(٢) «الأغاني» : ١٠٨/٥ .
(٣) «الأغاني» : ١٠٩/٢١ .

أذينة ، بلغني أنك سمعتها منه ، فقال : وأية أبيات ؟ فأجابه : وهلى يخفى القمر ؟ قوله : إن التي زعمت فأنشده عروة الأبيات فلما بلغ قوله : فقلت لعلّها . قال أبو السائب : أحسن والله ! هذا والله الدائم العهد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رَغْبَةً عنّي ، فأهلي بي أضَنُّ وأرغب

إذْهب لا صحبك الله ، ولا وسّع عليك – يعني قائل هذا البيت – وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك – يعني ابن أذينة – لحسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ، قال ابن الزبير : فعرضت عليه الطعام فقال : لا والله ما كنتُ لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل ، وانصرف[1]

وقال :

لبثوا ثلاث منًى بمنزل غبْطةٍ وهُمُ على سَفَرٍ لعمرك ما هُمُ
متجاورينَ ، بغير دار إقامَةٍ لو قَدْ أجَدَّ تَفَرُّقٌ لم يندموا
ولهُنَّ بالبيت العتيق لُبَانَةٌ والبيت يعرفهنَّ ، لو يتكلم
لو كان حَيّا قبلهنَّ ظعائناً حَيّا الحَطِيمُ وجوهَهُنَّ وزمزمُ
وكأنّهُنَّ ، وقد حَسَرْنَ لواغباً بَيْضٌ بأكناف الحطيم مُرَكّمُ[2]

ولا أدري هل من اللائق إضافة هذه المقطوعة إلى شعر الهوى والحبّ ، وشعراء ذلك العهد كثيراً ما اتخذوا زيارة تلك المشاعر المقدسة وسائل لإطفاء لوعة فراق ، أو إرواء غلة هوى أو التمتع برؤية محبوب ، ونَجأرُ إلى الله – مستغفرين – من كل أمْرٍ لا يرضاه ، ونكتفي بما أورده صاحب « الأغاني » عن أبي السائب المخزومي تعليقاً على هذه الأبيات قوله : لا والله ما أحسن ولا أجمل ، ولكنه أهجر وأخطل في صفتهن بهذه الصفة ، ثم لا يندم على رحيلهن ، أهكذا قال كثير حين يقول :

تفرق أهواء الحجيج على منى وصَدّعهم شعبُ النوى صُبْحَ أرْبَعَ

---

(١) «الأغاني» : ١٠٩/٢١ .

(٢) «الأغاني» : ١٠٦/١ و١١٠/٢١ .

فريقان : منهم سالك بطــن نخلــة   وآخر منهــم سالك بطــن تضرع
فلم أر داراً مثلهــا دار غبطـــة   وملقىً إذا التفَّ الحجيــج بمجمع
أقــلّ مقيمــاً راضيــاً بمكانِـــه   وأكثر جاراً ظاعناً ، لم يـــودّع

أنظر إليه كيف تقدمت شهادته علمه ، وكنّى لسانه ببيانه ، وهل يغتبط عاقل بمقام لا يرضى به ، ولكن مُكْرَهٌ أخوك لا بطل ، والعرجي كان بالعهد أو في منهما ، وأولى بالصواب ، حين تعرَّض لها نافرة من منى ، فقال لها عانياً مستكيناً :

عوجي عليَّ ، فسلمــي جَبْــرُ   فيمَ الصُّدُود ، وأنتُم سَفْرُ ؟
ما نلتقــي إلاَّ ثــلاث مِنـــىً   حتى يفرّقَ بيننــا النّــفْرُ(1)

وقال عروة :

سُلَيْمَى أَزْمَعَتْ بينــا   فأين تقولهــا أينــا ؟ !
وقد قالــت لأتـــراب   لها ، زُهْرٍ ، تلاقينـــا
تعالَيْـــنَ فقَدْ طــابَ   لنا العيشُ ، تعالينـــا !
وغــاب البَرم الليلَـــةَ   والعــينُ ، فــلا عَيْنــا
فأقبلـــن إليهـــا   مسرعـــات يتهادَيْنَـــا
إلى مثـــل مهــاة الرمـــل   ، تكســو المجلس الزينا
إلى خَـــوْد مُنَعّمَـــة   حَفَفْنَ بهـــا وفَدَّيْنَا
تَمَنّيْـــنَ مُنَاهُـــنَّ   فَكُنّـــا ما تَمَنّيْنـــا(2)

ويروي صاحب « الأغاني » خبرين حول هذه المقطوعة أحدهما ينسب إلى الإمام مالك بن أنس أنه غناها في عرس رجل من أهل المدينة يكنى أبا حنظلة ، مع ما في الخبر من تناقض بين كراهية مالك الغناء ، وبين نسبته إليه ، مما يدل على بطلانه .

والخبر الثاني يتعلق بطلب ابن عائشة المغني من أبن أذينة أبياتاً من بحر الهزج

---

(1) «الأغاني» : ٢١/١١٠ .
(2) «الأغاني» : ١/٧٥ و ٢١/١٠٨ .
(3) ٢/٧٥ .

فنظم له تلك القطعة ، ولما أسمعه قوله : فكنا ما تمنينا ، ضحك وقال له : يا أبا عامر ! تمنينك لما أقبل بَخَرُك ، وأدبر ذَفَرُك ، وذبل . . . ، فجعل يشتمه[1] :

وقال :

وتفرّقُوا بعد الجميع ، لِنيّةٍ ... لا بُدَّ أن يتفرّقَ الجيرانُ
لا تَصْبِرُ الإبلُ الجلادُ تفرّقَتْ ... حَتّى تَحِنَّ ، ويَصْبِرُ الإنسانُ[2]

إي والله ! وما أعظم صبره ! فلنصبر ولننتقل إلى حديث العقل بعد أن شغلنا بحديث العاطفة ما شغلنا .

قال عروة :

ما إنْ ألينُ ، إذا شُدِّدْتُ منتقصاً ... حتّى بلينَ الصّفا من جَندلٍ راسي
لستُ الظّؤورَ التي تعطي إذا عُصِبَتْ ... بعْدَ الإباء ، على مَسْحٍ وإبْسَاسِ
إنّي كذالك أبّاء لما كرِهتْ ... نَفْسِ المشاحن شكسٌ عند إشكاسِ[3]

وقال :

لا تكفُرَنَّ طوال عيشك نعمةً ... لؤماً تجاحدها امْرَءاً أولاكَها
واجْزِ الكرامة مَنْ تَرَى أنْ لَوْ لَه ... يوماً بذلت كرامةً لجزاكها
فِعْلَ الكريم أخي الكريم ، حَذَوْتَهُ ... نَعْلا ، فغابت نفسه فخدالها[4]

وقال :

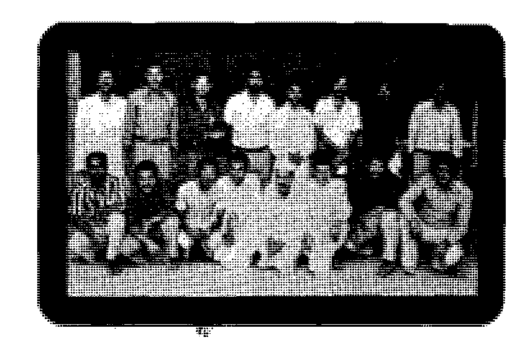
رأيت الفتى يرجو الرجاء ودونه ... لِقاء التي منها الفتى غير وائلِ[5]

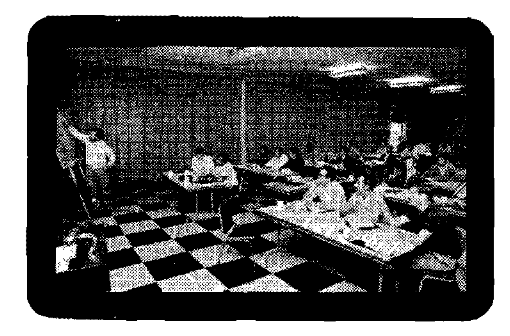
(للبحث صلة)

---

(١) «الأغاني» ٢/٧٥ .
(٢) «الزهرة» : ٢٥٧ .
(٣) «حماسة البحتري» : ٢٥ الطبعة المصرية سنة ١٩٢٩ .
(٤) حماسة البحتري : ١٦ / ٢٥٤ .
(٥) المصدر ص ٣٤٥ .

التدريب في ارامكو









أخذت أرامكو على مر السنين في تدريب موظفيها العرب السعوديين لتنمية كفاءاتهم وتطويرها ، فأقامت مراكز التدريب الصناعي ، والورش الصناعية ، ودورات تدريبية في اختصاصات مختلفة . لم تبنت برنامج ابتعاث المبرزين الى الخارج للدراسات والتدريبات العليا . وفي نفس الوقت تقيم دورات تدريبية على الادارة .

لقد بلغ عدد الملتحقين في برامج التدريب حاليا (١٩٧٥) أكثر من ٥٠٠٠ موظف ، منهم ١٥٠ موظفا يدرسون في الكليات أو الجامعات أو المعاهد الفنية أو المدارس الأخرى ، ومعظمهم في الجامعات الأمريكية .



PRI-75-11

المطابع الأهلية للأوفست
الرياض - شارع عمر بن الخطاب
ص.ب ٢٩٥٧ - ت ٢٧٥٤٦